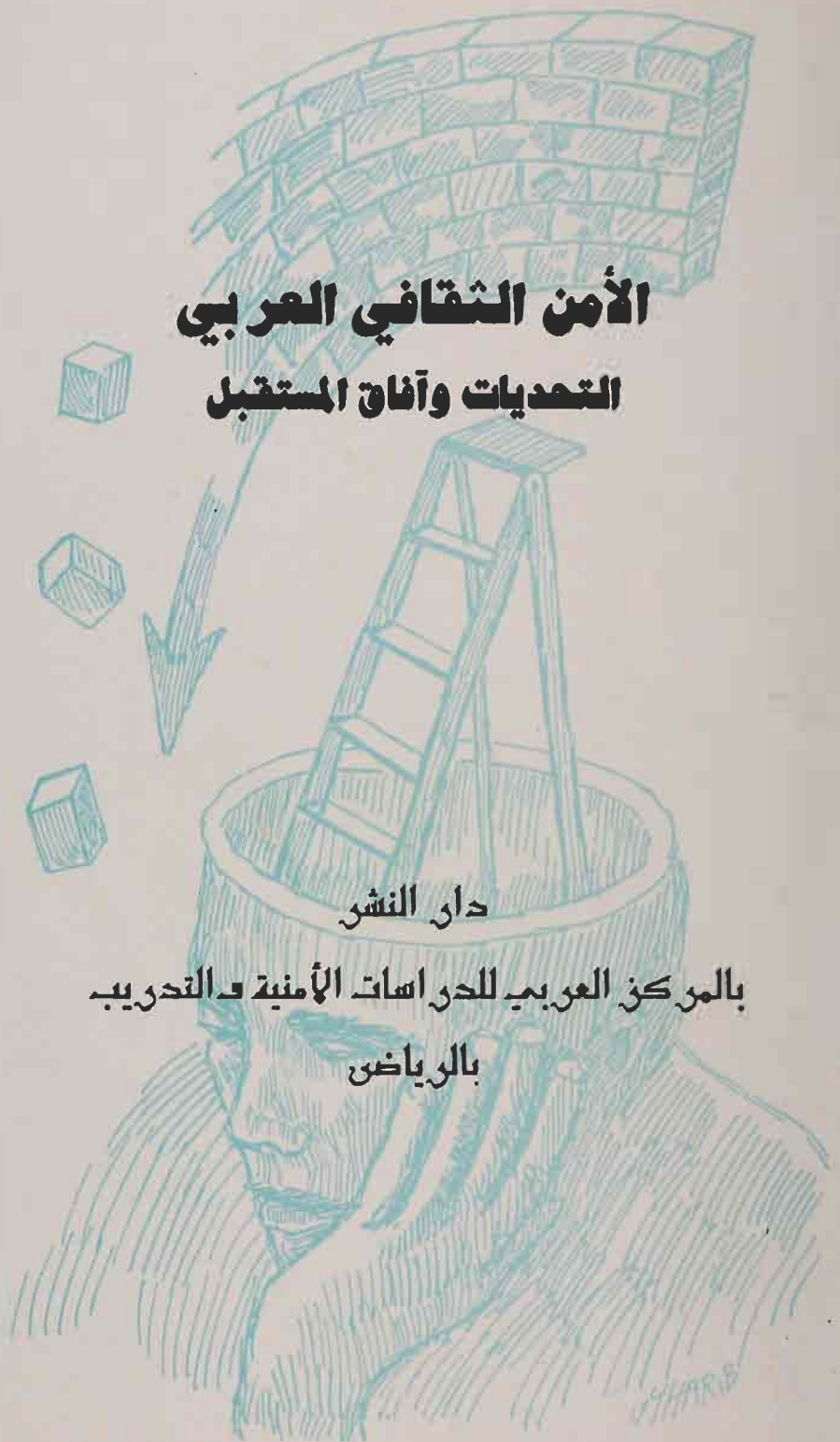

الأمن الثقافي العربي

التحديات وآفاق المستقبل

دار النشر
بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض

الأمن الثقافي العربي

التحديات وآفاق المستقبل

محمود محمود النجيري

المكتبة الامنية

دار النشر

بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب

بالرياض

١٤١٢هـ

حقوق النشر محفوظة للناشر

دار النشر
بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض

الرياض

١٤١٢هـ [الموافق ١٩٩١م]

بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويـــــات

المقدمـــة ١١

المدخـــل ١٥

الفصل الأول: الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي في العصر الحديث وأبعادها الثقافية .. ٣٥

(آليات الاستعمار الثقافي ـ نشاط اليهود الثقافي في مصر ـ تغيير أساليب الاستعمار الثقافي ـ التغريب ـ التصدي للهجمة الغربية)

الفصل الثاني: الواقع الثقافي العربي ٨٧

(أزمة الثقافة العربية ـ الاستعمار الثقافي الجديد ـ الحرب الثقافية الأمريكية ـ التسلل الثقافي اليهودي في الوطن العربي ـ سمات الواقع الثقافي العربي ـ واقع حركة النشر العربي ـ دور التغريب في تشكيل الواقع الثقافي)

الفصل الثالث: نحو مشروع للأمن الثقافي العربي ١٩٩

(مؤشرات حول المشروع العربي للأمن الثقافي ـ الأقمار الصناعية والغزو الثقافي ـ الخطة الشاملة للثقافة العربية)

المراجـــع ٢٤٧

المقدمـــــة

يمثل الأمن الثقافي العربي ضرورة استراتيجية ملحة لضمان بقاء الأمة العربية مستقلة قوية متحدة، والوطن العربي يعاني من أزمة أمن ثقافي لأنه يتعرض لتهديدات عديدة من قوى متنوعة تهدف الى عزله عن ثقافته الأصيلة وبث ثقافة مضادة تنتزعه من جذوره وتلقي به على مفترق الطرق، واضافة الى ذلك فإن البناء الثقافي يعاني الضعف والقصور في كل مجالاته.

إن الاستعمار الثقافي قد غير جلده وطور وسائله لتصبح أكثر مكراً وقوة وفتكاً، وكما يعمل الاستعمار دائماً على تحقيق الاقتصاد التابع والسياسة التابعة، فإنه يحرص على تحقيق الفكر التابع والثقافة التابعة، وهذا يمثل خطراً عظيماً في وجه الأمن الثقافي العربي.

ولأننا نعيش عصر الصراع الفكري وتدافع الإيديولوجيات ومعامل تفريخ الأفكار التي تنشئها مؤسسات غامضة ومنظمات خفية الهوية يديرها أشخاص مجهولو الإنتماء أو يستترون وراء واجهات وأقنعة مضللة. لكل ذلك فقد أصبح بإمكان أي متحذلق أو ايديولوجي معاد يستند الى دعم مادي واعلام ضخم أن يضع جمهوره في حيرة تامة

وهذا ما حدث تماماً في عالمنا العربي، فقد فقد الانسان العربي الارتباط بأصوله التي كان مشدوداً اليها دوماً فصار يسبح في فراغ حتى أحس بالغربة في وطنه وبين أهله وافتقد مبرراته التي كان يستند اليها

من تراث عربي عريق.

وأمام هذا الواقع الذي يشهد الصراع والأزمة والمؤامرات كان لابد من المواجهة بسياسة تخطيطية ثقافية شاملة تجنب التأثيرات المضادة فبدون هذا التخطيط سوف يواجه الوطن العربي على المستوى البعيد مخاطر تتهدد هويته وانتماءه ووحدته الفكرية والثقافية.

إن المحاولات المستمرة لاستيراد الثقافة الغربية أو الانفعال غير الواعي بها لا يضمن لأمتنا الرقي الثقافي والفكري، لأن معطيات الحضارة الغربية لا تتلاءم حتماً مع طبيعة ثقافتنا وهي تكرس في كثير من جوانبها لتخلفنا الثقافي وتوزعنا الفكري.

وهكذا. يعد التخطيط الثقافي الشامل هو العلاج لأزمة الثقافة العربية، عن طريق تطويع الوسائل الاعلامية والأدوات الثقافية والتقنيات الحديثة بصورة متكاملة على النطاق العربي لتسهم في احداث نهضة ثقافية ترتكز على تراثنا ومقوماتنا الروحية بهدف تشكيل العقل العربي وبلورة الشخصية العربية استمداداً من منابعنا الفكرية الأصيلة، مما يحقق الحصانة الثقافية والسمو الفكري الذي يحفظ من الاحتواء والاستلاب.

إن تحقيق الوحدة والأصالة للثقافة العربية يتطلب مجهوداً كبيراً وعملاً متصلاً منظماً من قبل الحكومات والمؤسسات والأفراد في الوطن العربي وبدون ذلك يبقى انتماؤنا وهويتنا عرضة للضياع.

ولعلاج الأزمة التي يشهدها واقع الثقافة العربية، ومواجهة

محاولات التسلل والاحتواء والهيمنة كان لابد من تجلية سمات هذا الواقع وبيان العوامل التاريخية التي تدخلت في تشكيله،وهكذا اقتضى البحث الرجوع قروناً من الزمان للكشف عن الظروف التي شكلت الواقع الثقافي العربي ودور الاستعمار الأوربي في ذلك.

ان الاجراءات السابقة لازمة للنظر الى ثقافتنا الحاضرة من منظور جديد، يكشف عن مدى الأخطار التي تتهددنا ثقافياً ويقدر فاعليتها في النسيج الثقافي العربي ثم لوضع الخطوات التي تحقق الأمن الثقافي.

ان هذا البحث يدل على أن المجتمع بدأ في الطريق الصحيح نحو العودة الى مقومات ثقافته الأصلية ومراجعة ذاتيته وهويته التي تعرضت لشيء غير قليل من التشويه والانحراف، كما يدل على فساد الطرق التي نالت حظها من التجريب ولكنها فشلت عندما عرضت على محك التمييز وعندما تنامى الوعي بالذات، وإن لم تعدم هذه الطرق، فمفتونون يسقطون كل يوم على جوانبها.

ولكن هذه العودة الى الذات مازالت في حالة من الضعف وافتقاد التنظيم وهي في حقيقتها لا تعدو أن تكون نتاجاً للمجهودات المخلصة التي يبذلها المنتمون لثقافتهم العربية بوعي وقوة، وللحق فهي مجهودات كبيرة حميدة لكنها لا تغني عن المجهودات التي يمكن أن تبذلها الجهات الرسمية المختصة بشئون الثقافة في الوطن العربي، والتي يفترض أنها تملك القدرة المادية والتنظيمية للقيام بدورها تجاه مسئوليتها الاستراتيجية في الحفاظ على الثقافة القومية.

ويدعي هذا البحث أنه يمثل القطاع الأكبر والأصيل من جيل الشباب العربي الذي عاش وتشكل وعيه في ظل الظروف التي اكتنفت أمته بعد يونيو ١٩٦٧م أنه جيل الأزمة والانكسار والشتات العربي وتصارع السياسات والإيديولوجيات المختلفة، أن هذا الواقع شكل لدى هذا الجيل شعوراً من الرغبة في البعد عن الواقع، بمعنى الخروج مس الواقع ومراقبته من الخارج، انه يستمع لكل الأصوات، وينظر في كل الاتجاهات ويناقش كل الآراء، وبغيته أن يخرج في النهاية بتجربة جديدة تعبر عن ميلاد جديد للأمة.

إن هذا الجيل يرفض الوصاية على فكره، لذلك فهو يتحرر من الإيديولوجيات التي طرحت على الساحة العربية في ظروف مضت واستنفدت خلالها كل قدرات العربي على الحلم والسبح في بحران من التقدم والقوة، كما يرفض الوصاية على مستقبله لأنه يرسم لنفسه هذا المستقبل متسلحاً بوعي التجربة المريرة التي خاضتها أمته العزيزة. وعسى أن تخرج الأيام بعد ذلك من رحمها فجراً جديداً يبسم للأزهار الطالعة في صحراء العرب.

الدكتور محمود محمود النجيري

المدخـــــل

الأمن الثقافي تعبير جديد ظهر في بلادنا في أوائل السبعينيات من هذا القرن ثم شاع تداوله حتى عقد عام ١٩٧٣م مؤتمر تحت عنوان (الأمن الثقافي) على مستوى وزراء الثقافة العرب في اطار المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

ويعد الأمن الثقافي أحد جوانب الأمن القومي الذي يشمل أيضاً الأمن الاجتماعي والعسكري والسياسي والاقتصادي. ولعل جانب الأمن الثقافي هو أهم جوانب الأمن القومي، لأنه يمثل الحفاظ على الذاتية والهوية في مواجهة محاولات الاحتواء والهيمنة على الشخصية القومية، ولاشك أن الدفاع عن الوجود يكون قبل الدفاع عن الحدود.

ونعني بالأمن الثقافي الحفاظ على المكونات الثقافية الأصلية في مواجهة التيارات الثقافية الوافدة أو الأجنبية المشبوهة وهو بهذا المعنى حماية وتحصين للهوية الثقافية من الاختراق والاحتواء من الخارج، كما يعني الأمن الثقافي حماية المؤسسات والأدوات الثقافية من الانحراف والارتفاع بها عن العجز والقصور، وتعزيز التوجهات السليمة وانتقاد التوجهات الشاذة والمتطرفة.

فالأمن الثقافي حفاظ للعقل العربي من الاحتواء الخارجي، وصيانة لمؤسسات الثقافة في الداخل، ومن هنا نرى أن مصطلح «الأمن الثقافي» أكثر شمولية من التعبير المعروف «الغزو الثقافي» وهو أفضل منه من جانبين:

الأول: أن مصطلح الغزو الثقافي يبدو في ظاهره دعوة الى الوقوف في

وجه كل ثقافة أجنبية ومحاربتها باعتبارها نوعاً من الغزو يجب التصدي له، وهو بذلك يغفل الاتصال والتبادل بين الثقافات، ولا يلتفت الى الخصب الفكري الناتج عن الأخذ والعطاء والحوار بين الثقافات.

والآخر: أن مصطلح الأمن الثقافي يهتم بالثقافة الأصلية وأدواتها ووسائلها ومؤسساتها ومدى تحقيق هذه المؤسسات والوسائل للأهداف المرغوبة في اطار الحفاظ على الهوية الثقافية والنهوض بالثقافة.

ومن هنا فالأمن الثقافي دعوة الى التعامل مع الثقافات الأجنبية من موقف قوة لا نشعر معه بالدونية والوهن، ولا نقف في خندق الدفاع ضد (الغزو الثقافي) فننحصر في بئر العزلة والشوفينية الضيقة والعداء للثقافات الانسانية.

ويمكن أن يتحدد مقصدنا بالأمن الثقافي في حماية العقل العربي من المؤثرات الأجنبية الضارة، وحفظ وعي هذا العقل أن يطال بواسطة موحيات خارجية، وتأمين خبرته الثقافية الأصلية من التشويش والتضليل، كل ذلك من أجل الحفاظ على الشخصية العربية بسماتها الأصلية وثقافتها العريقة التي تكونت على قرون عديدة استندت خلالها على معطيات الحضارة العربية الاسلامية.

واذا كانت الثقافة تعني الأفكار والمعارف والمعتقدات والقيم والأخلاق والدين والفنون والآداب فإن كثيراً من المكونات الثقافية يتغير ويتطور بل تدخل فيه عناصر جديدة، فلن تستطيع ثقافة معاصرة أن ترفض التقنية الحديثة وآلاتها المتنوعة، بل ان هذه الآلات ذاتها من راديو وتليفزيون وسينما وأقمار صناعية وغيرها قد أثرت في

التطور الثقافي بصورة أشد سرعة وعمقاً عما كان في الماضي.

لكن عملية التطور الثقافي لا ينبغي أن تترك لتتم بصورة عفوية تفتقد التنظيم بل لابد من التخطيط والمتابعة في مجال الثقافة، فلو نظرنا الى مصادر التكوين الثقافي وجدناها تنبع من ثلاثة مصادر هي:

١ ـ المكونات الثقافية التراثية: فالثقافة الأصيلة لا تتنكر لتراثها بل تحافظ على قيم هذا الماضي وتعاود احياءه والاستفادة منه والتمسك بجوهره، فكما بحث الأوروبيون عن الأدب الكلاسي في عصر النهضة وتمثلوه. ومثلما ارتبط المسرح العبثي بالفكر الوجودي، وكما ارتبط الفكر الأوروبي بمنهج ديكارت في الشك المنهجي، ومثلما ارتبط الفكر الماركسي بالفكر الهيجلي، نرى ضرورة ارتباط الشعر العربي الحديث بالمعلقات والنقائض واللزوميات. وأن يرتبط الفكر المنهجي عندنا بالتعقيد المنهجي عند المحدثين وعلماء العرب التجريبيين أمثال ابن الهيثم وأن ترتبط الفلسفة عندنا بمدرسة الفلسفة الاسلامية وأن يتصل الفكر في الجامعات العربية بالفكر الذي ساد في الجوامع (الجامعات) الاسلامية كالأزهر والزيتونة، وبذلك لا نبتر الصلة بيننا وبين ماضينا المزهر الذي يحقق لنا الأصالة والتميز.

٢ ـ المكونات الثقافية التي تنتمي الى الفكر العربي العلمي الحديث، وتعبر في مجملها عن المنتجات الحضارية العربية في معركة البناء والصراع ضد الاحتواء الفكري والاستلاب الثقافي.

٣ ـ المكونات الثقافية الوافدة مع التجارة والاحتكاك وحركة الترجمة وانتشار المؤسسات والمنظمات المعنية بالحضارات المختلفة.

وهذه المكونات قد يحملها الأثير لتقتحم الأبواب والنوافذ والجدر المحصنة بواسطة آلات التقنية الحديثة.

وهذه المكونات الثقافية التي تهجم بقوة وبلا استئذان تتطلب منا تحديداً لما يمكن أن نتقبله أو نرفضه منها، كما تتطلب وعياً حضارياً بالعناصر التي تمثل هجوماً على ثقافتنا المنتمية، ذلك لأن الثقافة أضحت أداة غير شريفة في يد بعض الدول تستغلها لخدمة مصالحها والترويج لسياساتها وإيديولوجياتها.

وترمي الدول الكبرى في هذا العالم (أمريكا، روسيا، انجلترا، فرنسا. وغيرها) الى بسط نفوذها الثقافي على الدول الضعيفة (دول العالم الثالث) كآخر شكل من أشكال الاستعمار الجديد، حتى تضمن ولاء هذه الدول ودورانها في فلكها الى النهاية. وهي لا تتورع في سبيل ذلك عن استخدام كل امكاناتها ووسائلها والتي تتبلور في المجالات الآتية:

الصحافة والاعلام، النشر، الفنون والآداب، التعليم، الاستشراق، دعاة التغريب، مؤسسات ذات واجهات علمية وحضارية.

ويرى أحد علماء الغرب (أرمان ماتل أرت) أن الاستعمار الثقافي يتغير في الشكل والمضمون طبقاً لمراحل الغزو والتوسع الاستعماري في العالم الثالث كما أنه يتكيف طبقاً للواقع الوطني وطبيعته في كل منطقة، ويرى أن الشركات المتعددة الجنسية قد بدأت تمارس المهام التي كانت تقوم بها الحكومات الاستعمارية في الماضي.

ويعطي ماثل أرت أهمية خاصة للعـاملين الثقافي والإيديولوجي ويبالغ في أهمية هذين العاملين على حساب الصراعات الأخرى وخصوصاً الصراع الاقتصادي والاجتماعي فإن استراتيجية التدخل السياسي غير المباشر من جانب القوة الاستعمارية تعتمد الى حد كبير على الحرب الإيديولوجية والثقافية.[1]

إن أزمات العالم العربي ذات أبعاد متعددة سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية، وتتفاعل هذه الأزمات لينتج عنها تهديد للوجود العربي المستقل وبلبلة لكيان الأمة.

والأمن الثقافي العربي يتهدد بشدة عندما يتهدد الأمن السياسي العربي، وكذلك الأمن الاجتماعي والاقتصادي، ونضرب مثالاً صغيراً لهذه العلاقة الجدلية، فالأمن الغذائي العربي مهدد وتحيط به الأخطار نظراً لضعف انتاج الغذاء في الوطن العربي، وهذا يلجىء الدول العربية الى استيراد الغذاء أو الاعتماد على الهبات وتعمل الدول الكبرى على استغلال سلطة الغذاء بوضع شروط على المستوردين تحقق مصالحها الثقافية والسياسية، وهذه المصالح لا تكون في صالح الأقطار العربية بطبيعة الحال.

ومثال آخر. المعونات التي توجهها الدول الكبرى لتخدم أغراضها في الدول العربية وتكرس التخلف واستمرار

١ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. قضايا التبعية الاعلامية والثقافية في العالم الثالث، عالم المعرفة ٧٨ المجلس الاقتصادي الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. ١٩٨٤م. ص: ٤٨ ـ ٤٩.

الاعتماد على المنح والهبات. أن المعونات الأمريكية التي قدمت لقطاع التعليم مثلاً في بعض الدول العربية ترافقت (بتوجيهات) انعكست على وجه التعليم بصورة سيئة

ويعرض الدكتور فؤاد زكريا تصوره للأمن الثقافي في تأمين ثقافتنا من خطرين خطر داخلي وخطر خارجي.

أما الخطر الداخلي فهو العدوان على حرية مبدع الثقافة وحرمانه من أبسط شروط الخلق والابتكار، وذلك من خلال الممارسات القمعية التي تكبت الحريات وتحول دون انطلاق المثقف في التعبيرعن نفسه وعن مجتمعه، ولن ينكر أحد أن ازالة القيود التي تقف في وجه المثقف هدف نبيل، وشرط أساسي للابداع الفني والفكري.

أما الخطر الخارجي الذي يبرر المطالبة بالأمن الثقافي فيوصف بأنه تلك المؤثرات الثقافية الدخيلة التي يمكن أن تهدد عقولنا وتشيع فيها الاغتراب والتبعية والمحاكاة الممسوخة لعادات غيرنا وأساليب تفكيرهم، وليس المقصود في هذه الحالة هو عناصر الثقافة العالمية الرفيعة، اذ لا يوجد أحد سوى المتعصبين المنغلقين ينظر الى هذه الثقافة على أنها خطر نحتاج الى تأمين ضده وانما المقصود هنا هو تلك الثقافة المشوهة اللاانسانية ثقافة الجريمة والجنس، أو ثقافة التسلط الاستعماري التي تحاول أن تغزونا بامكانات تقنية ضخمة لا قبل لنا بمواجهتها أو مقاومتها، من تلفاز وسينما ومؤسسات اعلام عالمية

وأقمار صناعية. وغيرها.[1]

إن الأمن الثقافي للوطن العربي يعتبر ضرورة استراتيجية ملحة لضمان بقاء هذه الأمة متماسكة قوية في وجه الغزو الثقافي الذي هو أنكى من الغزو العسكري والاقتصادي، أن الغزو الاقتصادي تتحد نتيجته بانهزام أحد الطرفين المتصارعين، وفي الغزو العسكري إما أن تقتل عدوك أو يقتلك، ولكن في الغزو الفكري بدل أن يكسرك أو يقتلك يغريك بالانتحار. !! انه يريدك أن تتخلى عن ذاتك لتعيش في خواء، وأن تترك قيمك ومعتقداتك وموازينك لتعيش شتاتاً وانفصاماً وضياعاً وخواء كالبيت المهجور تصفر فيه الريح!!

وليس مبالغة بعد ذلك أن نعد قضية الأمن الثقافي العربي أنها لا تقل في خطورتها عن قضية الدفاع العربي المشترك لذلك فنحن ندعو الى ابرام اتفاقية ثقافية عربية تنص على تحقيق الحصانة الفكرية والوعي الحضاري والالتزام الخلقي للأجيال العربية الجديدة وتبصيرها بالتحديات التي تحيط بها، وتكوين الشخصية العربية الأصيلة ذات المقومات والأبعاد التي تربط بالتراث والدين وتحيا العصر والحضارة التقنية معاً، وتبصير هذه الأجيال بالتحديات التي تحيط بها ووسائل الأعداء في حربهم الثقافية الرامية الى سلب هوية الجيل العربي واحتواء عقله ووجدانه.

وفي بداية هذا البحث نريد أن نطرح سؤالاً: من المسئول عن

---

١ ـ الدكتور فؤاد زكريا. خطاب الى العقل العربي. كتاب العربي ١٧ الكويت: ١٩٨٧م. ص: ٣٩ ـ ٤٠.

الأمن الثقافي العربي؟ وللاجابة عن هذا السؤال نريد أن نطرح سؤالاً آخر، من المسئول عن الأمن القومي العربي؟ بلاشك أن المسئول عن الأمن القومي هو الحكومات القائمة في الوطن العربي، وهي تقوم بجهود كبيرة بسبيل تأمين حدود الوطن عسكرياً وحفظه عن طريق التسلح والاستعداد العسكري لرد العدوان وهذا طبيعي من أنظمة ترى في الأمن العسكري أمناً لها قبل كل شيء.

لقد انشغل أصحاب القرار في البلدان العربية بالعديد من القضايا السياسية والاجتماعية والعسكرية في الداخل والخارج خلال العقود الماضية، ولم تأخذ قضية الأمن الثقافي الأولوية التي تستحقها واتجهت السلطة للمشاريع الصناعية والتجارية ومشاريع البنية التحتية، وازداد الاهتمام بالمشاريع العسكرية بصورة ضخمة خاصة بين دول المواجهة العربية مع اسرائيل، وكذلك كان الاهتمام متصاعداً بالأمن العسكري في البلدان العربية التي يحكمها عسكريون، على حين ظل الأمن الثقافي نسياً منسياً. . وربما أشرفت السلطة على استيراد الثقافة الضارة بنفسها أو فتحت لها الطريق الى الداخل ويسرت لها الذيوع والانتشار والسيادة على عناصر وأدوات الثقافة المحلية، وكانت مدفوعة الى ذلك اما بالسلبية أو بتوجيهات و «نصائح» الدول الكبرى التي ما تفتأ تعمل على نشر ثقافتها في أرجاء المعمورة.

ان الأمن الثقافي مسئولية حكومية قبل كل شيء، ولكن الواقع يقول ان الحكومات العربية تتنازعها إيديولوجيات متعددة، وتكاد كل

إيديولوجية منها أن تشكل لنفسها ثقافة خاصة بها، فأي ثقافة يمكن أن تتكاتف هذه الحكومات للحفاظ على أمنها؟ ان كل حكومة ستسعى للحفاظ على اللون الثقافي الذي ترتضيه، وستحارب في سبيل ذلك ثقافات أخرى تمثل خطراً على ثقافتها سواء أكانت هذه الثقافات الأخيرة وافدة من دول عربية أم غير عربية، فالدول العربية التي تنتمي الى الشرق ايديولوجياً تنظر بعين الحذر والعداء الى الدول العربية التي تنتمي الى الغرب إيديولوجياً، وما بين الفريقين يقف مائلون الى الشرق والغرب، إن كل ذلك يولد في النهاية صراعاً ثقافياً بين ثقافات عدة كل منها تنتسب الى الثقافة العربية وسبب هذا الصراع في حقيقة الأمر هو الصراع السياسي الايديولوجي.

اننا ننظر الى تلك الايديولوجيات التي سادت في الوطن العربي بقوة في الستينيات والسبعينيات ومازالت سائدة في كثير من الأقطار العربية، من خلال ما تركته على الساحة العربية من شقاق سياسي انعكس بظلاله على كل مظاهر الحياة الاقتصادية والعسكرية والثقافية والاجتماعية في وطننا العربي.. هذه رؤيتنا للماضي أما الرؤية المستقبلية فتتحدد من خلال التركيز على العناصر التي يمكن أن تجمع الأمة صفاً واحداً له إيديولوجية واحدة وثقافة واحدة.

انه من الواجب على الحكومات العربية أن تنبذ الشقاق الثقافي بينها وأن تعمل على دعم التعاون الثقافي وتوليه ما يستحق من مكان الصدارة، فالأمن الثقافي هو الأصل الذي تتشعب عنه جوانب الأمن القومي الأخرى.

أبعاد الصراع الثقافي بين العرب والغرب

يعتبر موضوع الأمن الثقافي من أهم الموضوعات الحيوية التي يطرحها الواقع العربي المعاصر، ذلك لأن العلاقة القائمة بيننا وبين الغرب علاقة جدلية مافي ذلك شك، تأثر الغرب بنا وتأثرنا به سياسياً واجتماعياً واقتصادياً وثقافياً على مدى قرون من التفاعلات الحضارية المتبادلة.

ولعل الوجه الثقافي هو الأهم في علاقاتنا بالغرب والأكثر حساسية فقد نشأ الصراع دائماً بين الثقافتين العربية والغربية، وحاولت كل منهما أن يكون لها الغلبة ولكن ما حدث للثقافة العربية مؤخراً يشبه مركب النقص أو العقد النفسية، وهو انعكاس عفوي لثقافة تجاهد للصمود في ظل حضارة متخلفة نسبياً ازاء ثقافة وحضارات متقدمة.

ولعل أكبر المشكلات في حياتنا العربية أننا معرضون لهجمات حضارية تكاد تنسينا أصولنا وتستلب ثقافتنا الأصيلة وتشوه قيمنا الغالبة، بل مشكلة المشكلات أن عهوداً طويلة من الاستعمار والتخلف خلقت لدى الانسان العربي ضرباً من الشعور بالدونية والعجز والانسحاق أمام الغرب، وأننا أحوج ما نكون الى أن نستعيد هويتنا الضائعة وثقافتنا الأصيلة لكي ننطلق الى البناء الحضاري متحصنين بالأمن الثقافي.

ومن المؤسف أن كثيراً من مثقفينا وسياسيينا لا ينظرون الى

علاقتنا السياسية والثقافية بالغرب نظرة سليمة، ولا يدركون أبعاد الصراع الحقيقي بيننا وبينهم، ان هذا الوضع ناتج عن ضعف الوعي والانتماء معاً، وعيهم الفكري والإيديولوجي وانتماؤهم الى المكونات الأصيلة لثقافتهم.

هذا في الوقت الذي تتبنى فيه أوروبا وأمريكا فلسفة واضحة في ادارة صراعها الحضاري والثقافي مع العرب، وادارة هذا الصراع من جانبنا في مجال الفكر والثقافة تقتضي وعياً عميقاً وانتماء عظيماً لمكونات الأصالة في ثقافتنا، كما تتطلب فهماً للغرب ومعرفة واعية به، فالتغريب كالسم يطرد بالترياق نفسه.

«وهناك نظرية جدلية عند سوردل تشير الى العلاقة بين الشرق والغرب في اطار الاستعمار الثقافي، وفحواها أن: على الغربي ألاّ ينكر ثقافة الشرقي وتاريخه وشخصيته لأنه حينئذ يتخذ موقف الدفاع بل عليه أن يقوم بعمل يجعله يعتقد أنه مرفوض ويعتقد أنه عرق من الدرجة الثانية، وأن الغربي هو الجنس الأعلى والدرجة الأولى، وأن للغربي عقلاً يفكر ويصنع وعلى الشرقي فقط أن ينظم الشعر وأن ينسخ نظريات العرفان «التصوف» ومن هنا فإن أغلب مستشرقينا يوجهون كل اهتمامهم لمخطوطات الصوفية عندنا ويحققون الواحدة منها عشرات المرات (في حين أن ٧٩٪) من مخطوطاتنا العلمية تتحلل في المكتبات وتأكلها الفئران ولا يعلم عنها أحد شيئاً».[1]

١ ـ علي شريعتي. العودة الى الذات. الطبعة الأولى. ترجمة الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا. الزهراء للاعلام العربي. القاهرة: ١٤٠٦هـ. ١٩٨٦م. ص: ٤١.

وتأخذ عملية التعويق بعداً أساسياً في تعامل الغرب معنا، ونسوق هنا مثالين ينضحان بهذا التعويق ضد الأمة وثقافتها ويكشفان عن آثاره:

الأول: لمسئول وزارة الخارجية الفرنسية سنة ١٩٥٢م قال: العالم الاسلامي عملاق مفيد لم يكتشف نفسه حتى الآن اكتشافاً تاماً. وهو حائر قلق، ضائق بتخلفه وانحطاطه، وان كان يعاني من الكسل والفوضى.

غير أنه راغب في مستقبل أحسن وحرية أوفر وعلينا أن نبذل كل جهودنا حتى لا ينهض ويحقق أمانيه. ذلك أن فشلنا في تعويق نهضته يعرضنا لأخطار جسيمة، ويجعل مستقبلنا في مهب الريح. أن صحوة العالم العربي، وما يتبعه من قوى اسلامية كبيرة نذير بكارثة للغرب ونهاية لوظيفته الحقيقية في قيادة العالم.

والمثال الثاني ننقله عن يوجين روستو رئيس قسم التخطيط بوزارة الخارجية الأمريكية، ومستشار الرئيس جونسون في الستينيات يقول: لا تستطيع أمريكا الاّ أن تقف في الصف المعادي للإسلام، أي الى جانب العالم الغربي والدولة الصهيونية، لأنها ان فعلت غير ذلك تنكرت للغتها وفلسفتها وثقافتها ومؤسساتها.

«إن هدف العالم الغربي في الشرق الأوسط ،هكذا يقول مستشار الرئيس الأسبق، هو تدمير الحضارة الاسلامية، وان قيام اسرائيل جزء من هذا المخطط وليس الاّ استمراراً للحرب

الصليبية».[1]

وتتواطأ الاشتراكية والرأسمالية على تحطيم ثقافة المجتمع العربي، فعلى الرغم من رفض الفكر الاشتراكي في الغرب للرأسمالية وعمله على ابدال الاشتراكية بها الاّ أنه يعتبر قيام الرأسمالية عملية تحطيم المجتمعات التقليدية لشعوب آسيا وأفريقيا وتأسيس الحضارة الأوروبية مكانها عملاً تاريخياً تقدمياً مثلما اعتبر الرأسمالية تقدمية وهي تحطم الاقطاع في أوروبا، وبهذا يكون ثمة اتفاق عام تقريباً في أوروبا، على ضرورة تحطيم البنى الحضارية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية لشعوب المستعمرات والحاقها بمسار الحضارة الأوروبية.[2]

ويمكن لنا أن نجمل أهداف الغرب في صراعه الثقافي مع العرب في النقاط التالية:

- العمل على احتلال العقل العربي بزرع أفكار مشوهة ومفاهيم خاطئةعن الحياة والكون والتاريخ والانسان.
- تزييف الواقع وتفريغ العقل من انتمائه وتحويله عن الساحات المرسومة للكفاح والعمل والعطاء.
- فرض مثل ونماذج خاطئة وسيئة، وعادات وسلوكيات وأساليب فكر منحرفة.

---

١ ـ الدكتور فتحي لاشين. الاقتصاد الاسلامي. ص: ٣٢.

٢ ـ منير شفيق. الاسلام وتحديات الانحطاط المعاصر. الطبعة الثالثة. الزهراء للاعلام العربي. القاهرة: ١٩٨٧م. ص: ٩٧ ـ ٩٨.

ات الماضي وخبرات التراث واتهامه بأنه

طرفة والمنحرفة في تاريخنا وتصويرها على

ي وآرائه.

ي الغربي تشكل في ثقافتنا العربية تيار
في حماية مكونات ثقافتنا من الاحتواء
آخر يدعو الى الاستفادة من الحضارة
أ هي:

كل ارادي واع، وعن طريق الانتقاء لما
ق لنا وندع غيره، ونضع ما نقتبسه في
تنا.

صلحة المقتبس لا لترسيخ قدم المقتبس
نا كما يأمل الاستعمار الثقافي.
متراخية، ونظام رتيب ييسر النفع ويمنع
ختناقات الاجتماعية. وعقد النقص
.

أن نراجع ما قلنا وما أفدنا وأن نحسب
هذا التلاقي الحضاري، وذلك على

ضوء ما نقدس من كتاب ربنا وسنة نبينا محمد (ﷺ).[1]

والى جانب هذين التيارين في ثقافتنا تكون تيار ثالث أعلن ترحيبه بكل ما يأتي من الغرب واعتباره مصدر الهام ومنبع وحي. حتى أن السابق الى عرض أحدث المذاهب الفكرية والاتجاهات الفنية الغربية يعد هو المفكر الحق عنده.

وازاء هذا الموقف غير المتوازن والذي يدل على تناقض كبير في تكوين المثقفين، يدعو هذا البحث الى منهج متوازن من أفكار وثقافات الآخرين لا يفسده الاحساس بالدونية أمام فاعلية الآخرين والتبعية المسترضية لثقافتهم، كما لا يفسده الاستعلاء الكاذب على أفكار الآخرين والرفض لكل أفكارهم دون مناقشة.

إن الانغلاق الثقافي يؤدي الى ضعف الأمة وتوهين قواها الفكرية ازاء العالم المحيط بها ولن يكون هذا الانعزال الثقافي في النهاية الاّ تهديداً للأمة بالوقوع في شراك الغزو الثقافي المنصوبة في كل وقت. ومن ناحية أخرى فإن الانفتاح الثقافي يمثل ضرورة حيوية لأمتنا خصوصاً في هذا العصر الذي تقدمت فيه تقنيات الاتصال وتطورت آليات الثقافة بصورة عظيمة.

ولقد كان النبي (ﷺ) ينفتح على الثقافات الأخرى ولا يتحرج من الأخذ بها، فقد روى مسلم في صحيحه عن جدامة بنت وهب

---

١ ـ خلدون حمادة في محاضرة ألقاها في رابطة العالم بباريس. عن محمد الغزالي. الغزو الثقافي يمتد في فراغنا. دار الصحوة. القاهرة: ١٩٨٧م. ص: ١٥٩

الأسدية في كتاب الرضاع، انها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «لقد هممت أن أنهى عن الغيلة حتى ذكر أن الروم وفارس يصنعون ذلك فلا يضر أولادهم». (والغيلة وطء المرضع).

وروى البخاري في كتاب العلم عن أنس بن مالك قال: «كتب النبي (ﷺ) كتاباً أو أراد أن يكتب فقيل له أنهم لا يقرأون كتاباً الّا مختوماً، فاتخذ خاتماً من فضة نقشه محمد رسول الله (ﷺ) كأني أنظر الى بياضه في يده».

ولما هاجر النبي (ﷺ) أخذ نساء قريش من أدب نساء الأنصار فقد روى الشيخان عن عبدالله بن عباس في سؤاله عن المرأتين اللتين قال الله تعالى فيهما ﴿ان تتوبا الى الله فقد صفت قلوبكما﴾[1] فقال عمر في قصته عن ذلك: وكنا معشر قريش نغلب النساء فلما قدمنا على الأنصار اذا قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذن من أدب الأنصار، فصخبت على امرأتي فراجعتني، فأنكرت أن تراجعني.. قالت: ولمَ تنكر أن أراجعك!! فوالله ان نساء النبي ليراجعنه.

ولم يكن حفر الخندق للدفاع معروفاً عند العرب، لكنه كان من فنون الفرس، وكان الذي أشار بحفره سلمان الفارسي. فقال: يارسول الله انا كنا بفارس اذا حوصرنا خندقنا علينا، فأمر الرسول عليه الصلاة والسلام بحفره وعمل فيه بنفسه.

ولم يكن العرب يعرفون العبرانية فأمر الرسول عليه الصلاة

---

١ - سورة التحريم. الآية: ٤.

والسلام زيداً بن ثابت أن يتعلمها فتعلمها، روى ابن سعد في الطبقات عن زيد بن ثابت قال: قال رسول الله (ﷺ) انه يأتيني كتب من أناس لا أحب أن يقرأها أحد، فهل تستطيع أن تتعلم كتاب العبرانية أو السريانية، فقلت: نعم، فتعلمتها في سبع عشرة ليلة.[1]

ويعد بعض الباحثين مرحلة الاحتكاك العربي بالثقافات العالمية وفي مقدمتها الثقافات اليونانية والفارسية والهندية نموذجاً من أروع النماذج التي عرفتها المدنيات الانسانية في فن الأخذ والاقتباس، وعلى الرغم من أن العرب في بادىء أمرهم لم يكونوا أصحاب القدح المعلى في الفكر والثقافة الاّ أن استعدادهم النفسي ووضوح الرؤية عندهم جعلاهم لا يخشون الانفتاح الثقافي على تلك الأمم التي سبقتهم في هذا المجال.[2]

ويرى الدكتور زكي نجيب محمود أن هناك درساً يجب أن نتعلمه من أسلافنا الأولين في هذا الشأن، وذلك خلال القرون الأربعة الأولى من التاريخ الاسلامي على الأقل، حيث كان لهم موقفان يدعوان الى التأمل والاحتذاء، أولهما: موقفهم من عصر الجاهلية وثانيهما: موقفهم من الثقافات غير الاسلامية. اليونانية والفارسية والهندية، فهم في كلتا الحالتين قدروا بكل الثقة في أنفسهم

---

١ ـ انفتاح الاسلام على الثقافات الأخرى. محمد أحمد بدوي. المسلم المعاصر العدد ٤٤. سنة ١١شوال، ذي القعدة، ذي الحجة١٤٠٥هـ.

٢ ـ الدكتور يوسف نور عوض. المقومات الاسلامية للثقافة العربية. دارالقلم. بيروت: ص: ٣٥.

على ما لم نقدر نحن عليه في عصرنا الحاضر ازاء الثقافة الغربية، من حيث تحليلهم للمصدر الخارجي تحليلاً يفرقون به بين ما يؤخذ وما ينبذ، ولم يتزمتوا عن خوف فينظروا الى «الثقافة» المعينة ممزوجة بأصحابها، ويخشون أن يمسوا فيها جانباً فتتسلل اليهم سائر الجوانب.[1].

غير أننا ينبغي أن نفهم أبعاد الظرف التاريخي التي تحكم موقفنا الحالي ازاء الثقافة الغربية عن موقف العرب القدماء ازاء ثقافات اليونان والفرس والهند، ويتضح ذلك من وجهتين:

أولاهما: أن العرب قد انفتحوا على حضارات قد توقفت فعلاً عن العطاء، في حين أنهم الآن يواجهون حضارات دائمة العطاء بصورة مستمرة.

ثانيهما: ان العرب لم يقفوا عند النقل لثقافات هذه الأمم، ولكنهم تمثلوها وأعادوا تشكيلها وفقاً لمعطيات العقل المسلم، ولذلك فعطاؤهم في هذا الشأن يعتبر بحق اضافة جديدة ودرجة في سلم الحضارة والمدنية والانسانية.

ومن المفيد هنا أن نعرض لرؤية عالم عاش الثقافة الأوروبية منتمياً اليها ثم عاش الثقافة العربية الاسلامية منتمياً اليها أيضاً، وهو يصور علاقة الشرق العربي والاسلامي بالغرب، ويقرر بداية أفضلية وسمو الثقافة العربية، وقدرتها على إغناء العرب عن ثقافة غيرهم

١ ـ مجلة العربي. عدد يونيو ١٩٨١م.

يقول: (. ولكنهم، أي العرب، اذا تبنوا، وهم في غير حاجة الى أن يفعلوا ذلك، أشكال الحياة الغربية والآداب والعادات والمفاهيم الاجتماعية الغربية فإنهم لن يفيدوا من ذلك شيئاً، ذلك أن ما يستطيع الغرب أن يقدمه لهم في هذا المضمار لن يكون أفضل وأسمى مما قدمته لهم ثقافتهم نفسها ومما يدلهم عليه دينهم نفسه).[1]

وهو يحدد أن اختلاف المدنية الغربية الحديثة عن الاسلام لا يحول أبداً دون امكان أخذ المسلمين من الغرب ببعض البواعث في ميدان العلوم المجردة والعلوم التجريبية، ولكن صلاتهم الثقافية يجب أن تبدأ عند هذا الحد وتنتهي عنده أيضاً. أما أن يخطو المسلمون الى أبعد من ذلك أو أن يقلدوا المدنية الغربية في روحها وأسلوب حياتها وفي تنظيمها الاجتماعي فهو المستحيل، الاّ اذا سددت ضربة قاضية الى الاسلام كدولة آلهية ودين عملي.[2]

وهو يؤكد على تمايز ثقافتنا واستقلالها من خلال اعتقاد أن الاسلام بخلاف سائر الأديان ليس اتجاه العقل فيه اتجاهاً روحياً يمكن تقريبه من الأوضاع الثقافية المختلفة، بل هو فلك ثقافي مستقل ونظام اجتماعي واضح الحدود، فإذا امتدت مدنية أجنبية بشعاعها الينا وأحدثت تغييراً في جهازنا الثقافي، كماهي الحال اليوم، وجب علينا

---

١ محمد أسد. ليوبولد. سابقاً: الطريق الى مكة. عن أبي الحسن الندوي. الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية. دارالأنصار القاهرة: ص: ٢١٠

٢ ـ محمد أسد: الاسلام على مفترق الطرق. دار الاعتصام. القاهرة. ص: ٥١.

أن نتبين لأنفسنا اذا كان هذا الأثر الأجنبي يجري في اتجاه امكاناتنا الثقافية أو يعارضها وما اذا كان يفعل في جسم الثقافة الاسلامية فعل المصل المجدد للقوة أو فعل السم.[1]

ويلفت نظرنا الى أوروبا التي تقبلت المؤثرات العربية في عصر النهضة فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط ولم تضح استقلالها العقلي أو البديعي على الاطلاق، لقد اتخذت أوربا من المؤتمرات العربية سماداً لتربتها كما فعل العرب حينما استغلوا المؤثرات الهيلانية في أيامهم، ولقد كانت النتيجة في كلتا الحالتين نمواً جديداً عظيماً للمدنية الأصلية، مملوءاً بالثقة بالنفس وبالاعجاب.

ولكن العالم الاسلامي وبه ميل متزايد الى محاكاة أوروبا والى اقتباس الآراء والمثل العليا الغربية، يقطع بالتدريج تلك الصلات التي تربطه بماضيه، وهو من أجل ذلك لا يفقد شيئاً من مركزه الثقافي فحسب. بل من مركزه الروحي أيضاً.[2]

---

١ ـ محمد أسد. المرجع السابق. ص: ١٨

٢ ـ محمد أسد. المرجع السابق. ص: ٨٤.

الفصـــل الأول

الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي في العصر الحديث وأبعادها الثقافية

إن الصراع الثقافي بين العالم العربي والغرب له أبعاده الممتدة في عمق التاريخ، وقد تجلى هذا الصراع واضحاً في الهجمة الاستعمارية على الوطن العربي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لقد عبرت هذه الهجمة عن رغبة الغرب في السيطرة على الشرق يدفعها في ذلك دوافعها المتمكنة في الاحتواء والهيمنة والاستلاب.

ولم يكف هذا الاستعمار السيطرة على مقدرات الشعوب والإضرار بأمنها السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بل انه سعى الى وضع الاستراتيجيات والخطط التي تمكنه من الهيمنة الفكرية والتأثير على المقومات والمؤسسات الثقافية ودأب على تحويل مسارات الثقافة وضبط مؤشراتها بما يخدم أهدافه في توجيه الثقافة الأصلية وجهات جديدة تبعدها عن أصالتها وتجعلها خاضعة له، وهكذا فقد تهدد الأمن الثقافي العربي بقوة.

وهكذا. ترافق الاستعمار الأوروبي للعالم العربي بمحاولات دائبة لفرض نفوذه الثقافي وسعي محموم لتثبيت ثقافته وأفكاره في مواجهة ثقافة الاسلام، ونشط لذلك مثقفو الغرب ومفكروه ورجال

الدين والمؤسسات الثقافية التي صنعتها أوروبا في الوطن العربي.

لقد منح الاسلام المنطقة العربية حضارة خاصة بها وثقافة محددة بطبيعته الالهية، وساد مناخ عقدي فكري ثقافي له صبغته المتميزة، وشكلت من خلال ذلك العقلية العربية ونفسيتها وعاداتها وتقاليدها وشخصيتها المتفردة.

هذه الحضارة وتلك الثقافة كانت حصن الأمة الذي حاولت اختراقه الهجمات الاستعمارية على امتداد تاريخ هذه الأمة، الاّ أن الفشل كان حليف هذه المحاولات في نهاية الأمر، مما حدا بالاستعمار الى انتهاج أسلوب منظم يخرج بالأمة عن مسارها الحضاري والثقافي ويقطعها عن أصولها التاريخية ويسوقها في اطار من التبعية والاستيعاب لثقافته وحضارته.

وقد حاول الاستعمار ذلك بطريقتين: أولهما الاحتلال العسكري المباشر حيث بذل كل مجهوداته لتمزيق الأمة وقتل روحها وتحطيم معنوياتها وثانيهما اتباع أساليب أشد مكراً ودهاءً وخبثاً، عن طريق سياساته ومؤسساته ونفوذه المادي والمعنوي في البلدان العربية حيث عمل على اختراق البنية الثقافية العربية واحتواء مكوناتها ونشر مظلة من الثقافة الغازية أغرى بها داخل البلاد.

ولقد بدأ عمل الاستعمار على نشر ثقافته في الأقطار العربية منذ وطئت أقدامه أرضها، وتقاسمت الثقافات الفرنسية والانجليزية والايطالية مراكز النفوذ على امتداد الخريطة العربية، وقد تهيأ لهذه

الثقافات أن تهاجم الثقافة العربية في عقر دارها في محاولة لتحتل مركزها وتقصيها تماماً عن حياة أهلها، وقد عمل الاستعمار على ذلك سواء بصورة سافرة كما في بلاد المغرب العربي، أو بالحيل والدهاء كما في مصر وسوريا. وقد تبلورت هذه المرحلة في عدة محاور كان لها تأثير كبير في إضعاف المكونات الأساسية للثقافة العربية أمام هجمة التغريب أهمها:

- الاعتماد على الغربيين في تشكيل أوجه الحياة الثقافية، والنظر الى تقدمهم بانبهار واكبار دفعنا بغير وعي منا وبوعي أيضاً الى تقليدهم واقتفاء آثارهم في الكثير من مظاهر الثقافة.
- وقد سوغ ذلك لكتب الغرب وآرائه أن تنتشر بيننا بصورة أضرت بالثقافة العربية أكثر مما أفادتها، فقد قامت حركة ترجمة غير منظمة أو مدروسة ولم يكن لها استراتيجية واضحة، فترجمت الأدبيات الفرنسية المسفة وكتب الجريمة والاثارة والعنف في حركة تجارية أضرت بالشخصية العربية وأوقعت العقل العربي في أسر ثقافة سطحية تافهة مستوردة.
- أخذت حركة الاستشراق بعداً خطيراً في تشويه عقائد الأمة وقيمها والتحامل على تاريخها ومحاولة تشويه الشخصية العربية وانكار عبقريتها وعطائها الحضاري للبشرية، وقد شارك كثير منهم في توجيه الحياة الثقافية عن طريق التدريس والقاء المحاضرات والكتابة والتأليف، وترجمت كثير من كتب المستشرقين الذين يبطنون العداء للعرب وحضارتهم في عديد من الأقطار العربية، وأقبل جمع كبير من شبابنا على قراءة هذه المترجمات أكثر من اقبالهم على قراءة

الكتب العربية الأصيلة، وانتشرت عقدة التباهي بين الشباب الجامعي بمعرفة أسماء المستشرقين وكتبهم التي يقرأونها أو لا يقرأونها.

- استطاع الاستعمار الأوروبي تنشئة جيل من المتغربين من أبناء العرب يبشرون بثقافته التي غزوا بها، ومكن المستعمر لهذه الطائفة أن تتبوأ مراكز توجيه خطيرة استطاعوا منها النفوذ الى قلب الأمة والدوران بها في فلك الغرب، وتجلى ذلك في أسماء لامعة دعت الى انتماءات اقليمية أو غير عربية مثل الانتماء الى ثقافة البحر الأبيض المتوسط أو أوروبا بدلا من الثقافة العربية والترويج للفرعونية والفينيقية.

- حرص الاستعمار على توجيه أدوات الثقافة الحديثة مثل الصحافة والنشر ثم الاذاعة والتلفزيون والسينما والمسرح، توجيهاً تغريبياً خالصاً لا يعبر عن روح الثقافة العربية بقدر اتباعه للأساليب والطرائق الغربية، وقد حاول الاستعمار بكل قوته السيطرة على هذه المنافذ الثقافية بالتوجيه أو التدخل المباشر في توجيه حركة المجتمع وثقافته.

- تابع دخول الاستعمار العالم العربي العديد من التتابعات لفصائل غربية حلت بأرض العرب أخطرها الارساليات التبشيرية التي عملت على خدمة ثقافة وقضايا بلادها من خلال مشروعاتها وخدماتها التعليمية، والتثقيفية والخيرية، وأنشأ المستعمر مؤسسات ثقافية تخدم في النهاية التيارات المعادية للثقافة العربية، ويمثل بعضها مراكز اختراق ثقافي غربي كالمدارس الأجنبية والجامعات

الأمريكية.

- كانت السياسة الاستعمارية ترمي الى تبديل القيم الأساسية للثقافة العربية، وكان طريقها في ذلك أن ترمي الثقافة العربية بكل نقيصة، وأن تغري العرب بالتخلص من ثقافتهم كي يتخلصوا من تخلفهم، وقد قرنت في مكر شديد بين القيم الثقافية العربية وتخلف العرب بصورة توحي أن الثانية نتيجة الأولى، وكان لهذا تأثيره على العقول والنفوس والمؤسسات داخل الوطن العربي التي أضحت تنظر الى ثقافتها وحضارتها نظرة استخزاء، وتجمع الى ذلك رغبة الخلاص منها.

ان نجاح الاستعمار الفكري في جعل العرب ينظرون الى ثقافتهم كشيء يشدهم الى الخلف قد اتبع من جهة الاستعمار ذاته بمحاولة لاعادة صياغة الثقافة العربية والعقل العربي والحياة العربية على أسس غربية بحيث تتبنى قيم الحضارة الغربية وثقافتها، فتتبدل تبعاً لذلك الأخلاق والعادات والتقاليد وأساليب الحياة الى النمط الغربي، وتتغير نظم المؤسسات العلمية والأكاديمية والمهنية ودور العلم والتعليم وأجهزة الاعلام والصحافة والنشر بل ونظم الحكم والقانون والادارة الى وجهة غربية.

وان كانت السياسة الاستعمارية قد أرادت أن تعمم هذه المخططات على الشعوب العربية، فإنها قد نجحت على الأقل في جعل كثير من المثقفين وقادة الفكر وأهل الرأي والولاية يتحمسون لها بصورة تشكك في انتمائهم واخلاصهم للأمة العربية.

ولتنفيذ السياسة الاستعمارية السابقة فقد استخدم المستعمر وسائله لاختراق كل مظاهر الحياة الثقافية العربية : الفكرية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية بحيث تتحول هذه المظاهر في النهاية الى الصورة الغربية، وعمل على النفوذ الى ميادين متعددة لبسط نفوذه، أبرزها: التعليم والصحافة والاعلام والنشر والفنون والآداب والنظريات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

كان الاستعمار الأوروبي يهدف من وراء غزوته العسكرية والإيديولوجية والثقافية للعرب، قتل روح التميز والمقاومة فيهم، وتخريب ثقافتهم وسلب معالم شخصيتهم القومية الى جانب استغلال خيرات بلادهم البكر.

وشكلت المحاولات العديدة التي بذلها الغرب في ذلك ضغطاً مركزاً على مقومات الأصالة العربية (الدين واللغة والأدب والمجتمع وحضارته والرابطة العربية الجامعة) وذلك بهدف قتل الفاعلية الحيوية ونزع العربي من أصوله وتغريبه في اطار من الشبهات المصنوعة والأفكار المهترئة.

وكانت المحاولات الاستعمارية ترمي الى تذويب المعالم الأساسية لنظام الحياة العربية والفكر العربي ثم اعادة تشكيل الواقع في اطار تغريبي تفقد فيه الشخصية العربية أبعادها المميزة وذاكرتها التاريخية.

وأمام كل ذلك يتحول الواقع العربي الى واقع مأزوم سياسياً وثقافياً واجتماعياً واقتصادياً، ويفقد العربي ذاته وهويته الفارقة عن

الغرب، وتتبدل مقاييسه ومنظوره الفكري، ويشمله شعورعميق بالتبعية والاعجاب تجاه الغرب، وينحصر همه في متابعة وتقليد النماذج الغربية وينسى ما وراء ذلك!

وهكذا. يتم استئناس العربي المسلم الذي كان يمثل فيما مضى الخطر الحقيقي على حضارة الغرب وثقافته ويتآكل لديه روح الانهزام تجاه القضايا الكبرى، وتتحطم ارادة الأمة في استعادة مجدها وعزها وتحقيق حريتها الكاملة، وتتهدم معنوياتها باغراقها في بحر من التحلل والانهيار يجعلها ترضى الهوان وتستمرىء المذلة وتستعذب الواقع بلا طموح.

وجاءت الحملة الفرنسية على مصر في وقت عانت فيه الثقافة العربية واقعاً سيئاً للغاية، مما هيأ للعوامل الثقافية الأوروبية الغازية التمكين في الأرض العربية، وقد تمثلت هذه العوامل في المظاهر العلمية للحملة باصطحاب لفيف من العلماء كقناع يخفي وجه الحملة الحقيقي كهجمة استعمارية مرفقة بهذه المجموعة من الإرساليات التبشيرية ورحلات الدارسين التي لقيت انتشاراً واسعاً وعريضاً، وبمجموعة من الباحثين والعلماء المدعمين من مختلف المؤسسات والمصالح الأوروبية، والموفدين تحت ستار البحث والتقصي العلمي، وأيضاً الازدهار الكبير الذي حظيت به حركة الاستشراق والمستعمرين ومنقبي الآثار والحفريات القديمة التي لم يكن غرضها العلم وحده، وانما كانت تتجه في المدى البعيد الى محاولة فهم البنية الثقافية القومية وادراك مصادرها وأسسها واستيعاب مكوناتهم في مختلف أبعادها الثقافية والاجتماعية والسياسية، وبالتالي دراسة

امكانات السيطرة عليها واحتوائها والاستفادة منها في أغراض متناسبة والأهداف الاستعمارية التي من شأنها أن تساعد هذا الاستعمار على احكام قبضته وفرض نفوذه.[1]

ولم يهدأ التربص الأوروبي بالعرب حتى انتهى باستعمار عسكري شمل كل أرجاء الوطن العربي، ودخل الانجليز مصر ١٨٨٢م تتملكهم رغبة القضاء على القوة الباقية في الأمة، لذلك فقد حاولوا الإمساك بأزمة الأمور بيديهم فحاربوا التعليم وعملوا على نشر لغتهم وثقافتهم في وجه الثقافة الفرنسية السائدة في مصر في ذلك الوقت، كما عملوا على احلال العامية محل الفصحى، وعموماً فقد عملوا جاهدين لمحاربة دواعي اليقظة الفكرية والنهضة العلمية التي شهدت هذه المرحلة بوادرها.

وقد كان لكل من الاستعماريين الانجليزي والفرنسي صراعهما في امتلاك مناطق النفوذ على الخريطة العربية، وحاول كل منهما عن طريق نشر لغته ومحاربة اللغة العربية نشر ثقافته، وتوجيه التعليم نحو تغريب أبناء المجتمع وصبغهم بصبغة أوروبية في الفكر واللسان والحياة، وبينما فرض الانجليز في مصر سياسة «دنلوب» في التربية والتعليم، التي كانت ترمي الى اعداد الموظفين واعطاء قدر ضئيل من التعليم والثقافة، كان الاستعمار الفرنسي في المغرب والاستعمار الايطالي في ليبيا يحرم اللغة العربية ويمنع طباعة الكتب بها، ويعتمد

---

١ ـ بشير الهاشمي: المؤثرات الأجنبية في الكتاب العربي. الناشر العربي. العدد الأول. يونيو ١٩٨٣م. ص: ٦

اللغات الأجنبية مواد أساسية في التعليم وتقديم من يتقنونها ومنحهم الامتيازات.

آليات الاستعمار الثقافي

اعتمد الاستعمار الثقافي على عدد من الوسائل في محاولاته للهيمنة على الثقافة العربية، ويمكن أن نحدد هذه الوسائل في «الارساليات التبشيرية، والمستشرقين والتعليم، والبعثات الدراسية لأوروبا، والأقليات القومية والدينية العربية، والجمعيات الثقافية التي أنشأها بالاضافة الى توظيفه للمستغربين في خدمة مخططاته ضد الثقافة القومية.

الارساليات التبشيرية:

مثل التبشير طلائع الاستعمار بما لعبه من دور خطير في الغزو الثقافي الغربي لبلاد المسلمين وفق مخطط مدروس على أساس استغلال الطلاب والمرضى وتحويل عقائدهم والتأثير على مفاهيمهم وتحطيم معنوياتهم وتنشئة أجيال ممسوخة مبلبلة العقائد مضطربة الثقافة منكرة لقيمها وتراثها ولغتها وتاريخها.[1]

وقد مارست الكنيسة الكاثوليكية نشاطاً ضخماً في المجال

---

١ ـ أنور الجندي. تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة مابين الحربين العالميتين ٢٠/١٩٤٠م. دار الاعتصام. القاهرة: ١٩٨٨م. ص: ١٩٥٣م.

السياسي، لكنها كانت تمارسه من وراء حجاب، وإذا كان للبعثات التبشيرية نشاط محمود في الأعمال الانسانية لكن ثبت أن بعض الارساليات تخدم قضايا بلادها القومية بل انها تخضع نشاطها الديني لهذه الغاية، وهذا ما دفع قادة كثير من البلاد التي نالت استقلالها حديثاً الى طردها من بلادها أو وضع قيود تحول بينها وبين ممارسة نشاط سياسي وثقافي يؤثر في وحدة البلاد على طول المدى.[1]

وكان للمبشرين أثرهم الكبير في التمزيق الثقافي عن طريق التعليم، لقد كان هذا التعليم ـ كما صوره جبران خليل جبران ـ يأتي من الغرب بشكل الصدقة، وكنا لم نزل نلتهم خبز الصدقة لأننا جياع متضورون. ولقد أحيانا ذلك الخبز، ولما أحيانا أماتنا، أحياناً لأنه أيقظ بعض مداركنا ونبه عقولنا قليلاً، وأماتنا لأنه فرق كلمتنا وأضعف وحدتنا وقطع روابطنا وأبعد مابين طوائفنا حتى أصبحت بلادنا مجموعة مستعمرات صغيرة مختلفة الأذواق متضاربة المشارب، كل مستعمرة منها تشد في حبل احدى الأمم الغربية وترفع لواءها وتترنم بمحاسنها وأمجادها، فالشاب الذي تناول لقمة من العلم في مدرسة أمريكية قد تحول بالطابع الى معتمد أمريكي، والشاب الذي تجرع رشفة من العلم يسوعية صار سفيراً فرنسياً والشاب الذي لبس

---

١ ـ فؤاد محمد شبل. الفكر السياسي. دراسات مقارنة للمذاهب السياسية والاجتماعية. الجزء الأول. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٧٤م. ص: ٢١٣

قميصاً من نسج مدرسة روسية أصبح ممثلاً لروسيا.[1]

وأصبحت لحركة التبشير أهداف محددة في الأقطار العربية، منها بث الأفكار والثقافة الأوروبية، وخلق تخاذل روحي وشعور بالنقص، وحمل الجماهير على القبول بالخضوع للمدنية الأوروبية المادية، وتبديل عقائد السكان وأنماط حياتهم.[2]

المستشرقون:

بدأ الاستشراق مواكباً لرغبة الدول الاستعمارية في فهم البنية الثقافية لدول الشرق لمحاولة التعرف على العقلية والدين الاسلامي وحضارته، ومحاولة استكشاف جوانب (الضعف) فيها لمهاجمتها من خلالها، وكانت هذه الحركة الاستشراقية ترمي الى اقناع العرب بالتبعية للغرب باعتبار ذلك (ضرورة حضارية) وأن الغرب المتقدم من واجبه تجاه الشرق المتأخر أن يقوم بدور (الراعي والقيم) في التوجيه الحضاري واقتلاع جذور التخلف، هذه الجذور التي كان يعني بها اللغة العربية والدين الاسلامي والتراث العربي.

كل هذا يقتضينا أن نعيد النظر في الرؤية التي قدمها المستشرقون للاسلام وتاريخه وحضارته. ان كثيراً من المستشرقين حاول ـ في اخلاص شديد احياء نزعات منحرفة شهدها التاريخ

---

١ ـ عن أنور الجندي. المرجع المذكور. ص: ١١٩

٢ ـ الدكتور عمر فروخ. التبشير والاستعمار في البلاد العربية. المكتبة العصرية. بيروت: ص: ٥٣.

الاسلامي وتصويرها على أنها التيار الأصيل مثل حركات الشعوبية والزندقة والباطنية. مع التركيز على الفتن والصراعات واظهار المسلمين في صورة مجموعات تتصارع على السلطة، وأكثر من ذلك فقد عمل المستشرقون في دأب على نبش قبور الحضارات الوثنية البائدة وتقديمها بصورة تغري الانتماء اليها بعيداً عن الانتماء العربي الاسلامي، لقد كان من نتيجة ذلك ظهور الدعوات الاقليمية التي سادت وقتاً ساحتنا الثقافية مثل الفرعونية والفينيقية والبابلية

ومن المؤسف أن نعتمد في دراستنا للاسلام واللغة العربية وآدابها على المصنفات التي وضعها المستشرقون أكبر الاعتماد وأن نعتبرها مصادر ومراجع علمية على الرغم مما يكون فيها من تحريف وخلط وتشويه لأسباب سياسية.

ان دائرة المعارف الاسلامية لا تزال مصدراً أساسياً للمعلومات الاسلامية في كثير من البلدان العربية على الرغم من تحذير العلماء من بعض ما ورد فيها مما ينافي حقائق الاسلام، والوقوف على أعمال المستشرقين يفيد أن كثيراً من الدراسات الاستشراقية في مجال الاسلاميات تهدف بطريق مباشر أو غير مباشر الى طمس معالم هويتنا والتشكيك في عقائدنا وتراثنا والنيل من استقلالية شخصيتنا العربية الاسلامية.[1]

---

١ ـ الدكتور محمود حمدي زقزوق. الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. الطبعة الثانية كتاب الأمة (٥). رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية. قطر. ١٤٠٤هـ. ص: ١٣٠

ولم يكتف المستشرقون بما قدموه من دراسات عن الاسلام واللغة والأدب العربي بل كان حرصهم على كسب الأنصار واستخدام الأتباع في ترديد آرائهم والدفاع عن مفترياتهم، والدعوة الى مفاهيمهم وشبهاتهم وفرضها على العقل العربي وافتعال معارك حولها.

التعليـــــم:

خطط المستعمر الانجليزي منذ البداية للسيطرة على التعليم المدني واضعاف التعليم الديني لأقصى حد. واستخدموا التعليم في بث ثقافة هزيلة مشوهة، وكان مرادهم من التعليم اعداد الموظفين الحكوميين والكتبة الخاضعين لهم على حد تعبير كرومر: رأس انجليزية وأيد مصرية.

واعتمد الاستعمار الانجليزي لغته في التعليم وفرضها فرضاً عشرين عاماً، تدرس بها كل العلوم، ولم ينج من مكيدته الّا الأزهر ودار العلوم، وفي تلك الحقبة قال الامام محمد عبده كلمته المشهورة (اذا أردت أن تعرف أين تموت اللغة وأين تحيا فاعلم أنها تموت في كل مكان وتحيا في دار العلوم)[1]

وحارب الانجليز كل التيارات التي مثلت الأصالة العربية وقد أثر ذلك في تنشئة جيل من المتغربين الذين حذقوا اللغة الانجليزية حذقاً تاماً، وكان بعضهم في حقيقة أمره حرباً على اللغة العربية

---

١ ـ عمر الدسوقي. دراسات أدبية. دار نهضة مصر. القاهرة: ص: ٨١.

وثقافتها، يتعصبون للغتهم المكتسبة وثقافتها ويرددون الأفكار المسمومة التي تشربوها مع هذه الثقافة، وقد كان المستعمر الانجليزي يرمي من وراء ذلك الى طبع حياتنا ولساننا وأفكارنا وأخلاقنا بطابعه الخاص لنفقد الهوية والانتماء العربي.

وقد كشف «جب» عن ذلك في كتابه (وجهة الاسلام) Wither Islam والسبيل الحقيقي للحكم على مدى التغريب (أو الفرنجة) هو أن نتبين الى أي حد يجري التعليم على الأسلوب الغربي، وعلى المبادىء الغربية، وعلى التفكير الغربي، هذا هو السبيل الوحيد ولا سبيل غيره، وقد رأينا المراحل التي مر بها طبع التعليم بالطابع الغربي في العالم الاسلامي، ومدى تأثيره على تفكير الزعماء المدنيين وقليل من الزعماء الدينيين.[2]

ويلاحظ «جب» أن النشاط التعليمي والثقافي (عن طريق المدارس العصرية والصحافة) قد ترك في المسلمين من غير وعي منهم أثراً جعلهم يبدون في مظهرهم العام لادينيين الى حد بعيد، ثم يعقب على ذلك بقوله: وذلك خاصة هو اللب المثمر في كل ما تركت محاولات الغرب لحمل العالم الاسلامي على حضارته من آثار.[1]

ويقدم أحد علماء الغرب المستعمرين حكمه على الشكل الذي

---

١ ـ الدكتور محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. ص: ٢٠٢ عن أبوالحسن الندوي. الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية دارالأنصار. القاهرة: ص: ١٦٨

٢ ـ محمد محمد حسين. المرجع المذكور. ص: ٢٠٤.

ساد كثيراً من المؤسسات الاسلامية في تعليم الأدب الأوروبي فيرى أنه يقود الى جعل الاسلام غريباً في عيون الناشئة المسلمة، اذ لايزال الموقف القديم فيه: رومانيون وبرابرة، يظهر بجلاء، ثم ان لمثل هذا العرض في التاريخ هدفاً خفياً، ذلك أنه يدلل على أن الشعوب الغربية ومدنيتها أرقى من كل شيء جاء أو يمكن أن يجيء الى هذا العالم، وهكذا يمكن خلق نوع من التبرير الأدبي لسعي الأوروبيين الى السيطرة والى القوة المادية. أما التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث من غير الشعوب الأوروبية، فإنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة وماضيهم التاريخي الخاص وبالفرص السانحة لهم في المستقبل، وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم، اللهم الاّ اذا كان مستقبلاً مستسلماً للمثل العليا الغربية.[1]

ويصرح هذا العالم المستعرب برفضه تقليد العرب نظام التعليم الأوروبي ومخاطر هذا التقليد قائلاً: واذا كان المسلمون قد أهملوا، فيما مضى ـ البحث العلمي، فإنهم لن يستطيعوا أن ينتظروا اصلاح هذا الخطأ اليوم عن طريق قبول التعليم الغربي من غير وازع ما، ان كل تأخرنا العلمي وكل فقرنا لا يوازيان بذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الاسلام الدينية الكامنة، اذا أردنا أن نحفظ حقيقة الاسلام على أنها عنصر

---

١ ـ محمد أسد. Leopold wiss سابقاً. المرجع المذكور. ص: ٧٤ ـ ٧٦

ثقافي، فيجب علينا أن نحترس من الجو الفكري للمدنية الغربية، ذلك الجو الذي أصبح على وشك أن يتغلب على مجتمعنا وعلى ميولنا، وبتقليد عادات الغرب وزيه في الحياة يصبح المسلمون تدريجياً مضطرين الى الأخذ بوجهة النظر الغربية، أن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئاً فشيئاً الى تقبل الميل العقلي المعاقب لذلك.[1]

وكان من نتيجة نجاح الثقافة الغربية في فصم الارتباط الروحي للمواطن بجوهر تكوينه الحضاري وفهم لتاريخه. ان أبعدته عن ادراك الصيغة الجديدة التي يجب أن تمارسها أمة ناهضة، وجعلته مهزوماً أمام هجمة الحضارة الأوروبية، منبهراً بها، وتدريجياً انزلق هذا النوع من المواطنين في أحضان التربية الأجنبية الى الحد الذي تطوع للدعوة أن تدرس مناهج التعليم باللغة الأجنبية.[2]

حركة الابتعاث:

نشطت حركة الابتعاث لطلب العلم في بلاد الغرب منذ الحملة الفرنسية على مصر ١٧٩٨م. وكانت الأمة ترمي من وراء هذه الحركة الى نقل علوم الغرب وتقنياته الحديثة رغبة في تحقيق الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن الغرب، ولكن المبتعثين منذ البداية لم يقوموا بدورهم في هذا الشأن، فلم يتمكنوا من العلوم التي درسوها بصورة

---

١ ـ محمد أسد. المرجع المذكور. ص: ٧٨.

٢ ـ الدكتور نزار الحديثي. سياسة التغريب في الوطن العربي. مركز الدراسات العربية لندن. ١٩٨٠م. ص: ٢٧

كاملة ولم يطوروا ما اكتسبوه من علم لخدمة بلادهم والخروج بها من دائرة التبعية والاحتياج لما في أيدي الغرب.

وبذلك تضطر الأمة الى ابتعاث مزيد من أبنائها ليقفوا على علوم الغرب المتطورة كما تضطر الى استقدام الخبرات الأجنبية، وهي بذلك تعاني من التبعية البغيضة ويزداد الأمر سوءاً حينما يعود فريق من هؤلاء المبعوثين وهم يحملون أفكاراً جديدة ومبادىء مختلفة وثقافة متعارضة مع الموروثات العربية، ويعملون بطبيعة الحال على نشرها كمعتقدات جديدة لهم، وهم بذلك يكرسون لتأخر بلادهم ويدعمون اتجاهات الانحراف الفكري، وكان الأولى بهم أن يحيطوا علماً بما عند الغرب من علوم ثم يخرجوا في كل ذلك بإطارات ومساقات علمية تخدم ثقافة أمتهم وحضارتها ولا تجرها الى وهدة الاستغراب والتبعية الفكرية

ولقد كانت روسيا واليابان والصين الى أواسط القرن التاسع عشر توصف بالجهل والتأخر!! مما دفعها لابتعاث أبنائها الى الغرب لتحصيل علومه وقد اكتفت بعد جيل من المبتعثين الذين عادوا الى بلادهم وزرعوا فيها العلم الجديد وأتقنوه، بل انهم تفوقوا فيه على الغرب وجامعاته، ورفض الروس مع ذلك اتباع نظريات الغرب في العلوم الاجتماعية لاختلاف الأيديولوجيين.

ولعل هذا الموقف يبرز تخبطنا في التعامل مع الغرب، ففي الوقت الذي نفشل في نقل علومه البحتة والتطبيقية وبناء نهضةعلمية وتقنية نجحنا في استيراد مذاهبه الهدامة ونظرياته المنحرفة ومبادئه

الباطلة وأدبياته المعوجة!!.

ان الدول الغربية تتربص بالمبتعثين لتغريبهم بثقافتها، وتحاول أن تجعل منهم محضناً لهذه الثقافة حين يعودون الى بلادهم، ونستشهد على ذلك بما كتبه جان بول سارتر في مقدمته لمؤلفه «المعذبون في الأرض» قال: قد نأتي بجماعة من الأفريقيين أو شباب الآسيويين الى أمستردام أو باريس أو لندن. ونبقيهم عدة شهور قليلة. ولنتجول بهم ونغير ملابسهم وما يتحلون به ولنعلمهم طرق التصرف في المجتمع وبعض مقاطع من اللغة، وباختصار سنفرغ ما لديهم من قيمهم الثقافية ثم نعيدهم مرة أخرى الى بلادهم، لن يكونوا أبداً هذا النوع من الناس الذي يصرح بما في نفسه، سيكونون مرجعاً لصدى ما نقوله نحن. سننادي بشعارات الانسانية والمساواة وسيرددون صدى ندائنا في أفريقيا وآسيا «انسانية»، «مساواة».[1]

وقد وصف اللورد كرومر، الحالة النفسية التي يتعرض لها المبتعثون بقوله: «ان الشبان الذين يتلقون علومهم في انجلترا وأوروبا يفقدون صلتهم الثقافية والروحية بوطنهم ولا يستطيعون الانتماء في الوقت نفسه الى البلد الذي منحهم ثقافته فيتأرجحون في الوسط ويتحولون الى مخلوقات شاذة ممزقة نفسياً».[2]

ويصور W. C. Smith مؤلف الاسلام في التاريخ الحديث

---

١ ـ عن الدكتور علي شريعتي. المدنية والحضارة. المسلم المعاصر العدد ٣٣. ١٤٠٢هـ. ص: ٤٤.

٢ ـ عن أنور الجندي. المرجع المذكور ص: ١١٩.

الدور الحقيقي الذي يلعبه كثير من المبتعثين الى الغرب وتأثير هذا الدور بقوله:

لقد سافر كثير من الشباب المسلم الى الغرب واطلعوا على روح أوروبا وقيمها وأعجبوا بها الى حد، وينطبق هذا بخاصة على الطلاب الذين درسوا في جامعات أوروبا بعدد لم يزدد مع الأيام، وهم الذين سببوا استيراد كثير من أفكار الغرب الى العالم الاسلامي، تلك الأفكار المتعددة الجديدة التي تقع مع الأهمية والدقة بمكان، والاتجاهات العقلية الرقيقة الفجة، والميول الحديثة التي كان في نشرها أوفر نصيب لنمط التعليم الغربي الحديث. . وانتج ذلك أن كثيراً من المسلمين اعترفوا بهذه النظريات والمعاهد كحقيقة ثابتة، وخضعوا لها بالتدريج، وهكذا استمر عمل التغريب بسرعة وقوة بالغتين.[1]

الجاليات الأجنبية والأقليات القومية والدينية:

كان للجاليات الأجنبية دور خطير في مختلف نواحي الحياة في الوطن العربي، فقد زاد عددها بصورة كبيرة جداً، ومكن لها المستعمر في البلاد فاكتسبت نفوذاً مسيطراً على أوجه التغيير في البلاد، فكان لها السيطرة على معظم التعليم، كما امتلكت العديد من وسائل التعبير الثقافي وتضخم مع ذلك نفوذها الاقتصادي والادبي، ولقد أوجدت سلطات الاحتلال أوضاعاً اجتماعية واقتصادية وثقافية لهذه

---

١ - أبوالحسن الندوي. الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية. الطبعة الثالثة. دار الأنصار. القاهرة: ١٩٧٧م. ص: ١٧١.

الجاليات، وجعلتها تتخذ مواقف معادية للسكان، اضافة الى نزعة الاستعلاء التقليدية التي كانت تحملها، لذلك لم تتوان هذه الجاليات عن لعب دور حماسي مضاد للحركة القومية في اللحظات التي شعرت أن هذه الحركة على وشك أن تحقق انتصاراً يهدد سلطة الاحتلال ويهدد امتيازاتها ووجودها هي.[1]

ومن ناحية أخرى فقد مارس الاستعمار سياسة تحريضية اعتمدت اثارة الأوضاع النفسية للتجمعات القومية وتحويل الثقافات الدينية الخاصة بالطوائف الى ثقافة قومية وابراز كيان ثقافي للأقليات القومية، وتوجيهها صوب اضعاف البناء العام للمجتمع العربي.[2]

ان السياسة الاستعمارية التي نجحت في أن تخلق مناخاً ثقافياً خاصاً ينتزع سكان الأقليات القومية والطوائف الدينية من المحيط الاجتماعي العام الذي ينتظمون فيه، نجحت أيضاً أن تحتوي تطلعاتهم وأحساسهم بمشاكلهم اليومية حتى اعتقدوا ان التخلف الذي يعيشونه ليس ظاهرة عامة يعيشها الشعب العربي، انما ظاهرة خاصة بهم ناشئة عن رفض المجتمع لهم، لكونهم غرباء عنه أصلاً ودينياً، كما أنها هيأت لهم دوراً اقتصادياً أوجد ارتباطاً بين مصالحهم ومصالح الاحتلال، وفي بعض الأحيان استخدمت وجهة نظرها في تقويم تاريخ الوطن العربي من خلال التعليم، وذلك لتشعر هذه الطوائف بأنها تمثل أصولاً قومية خاصة وخطاً ثقافياً تاريخياً.[3]

---

١ ـ الدكتور نزار الحديثي. المرجع المذكور ص: ١٩

(٢،٣) ـ المرجع السابق. ص: ٢٠، ٢١.

وكان أبرز هذه الأقليات المسحيون ومنهم الموارنة والأقباط، واليهود، وخاصة في مصر والعراق والمغرب العربي. والبربر في شمال أفريقيا والنساطرة التيازية في العراق، ونظراً لخطورة الدور الذي لعبه اليهود في التأثيرعلى الحياة الثقافية في العالم العربي عامة ومصر بخاصة، فسنعرض له كمثال لما كانت تقوم به الأقليات.

نشاط اليهود الثقافي في مصر

كان انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول في بال عام ١٨٩٧م نقطة تحول خطيرة في العمل الصهيوني في العالم عامة، وفي مصر وفلسطين خاصة، وكانت الصحافة ووسائل الاعلام وتأسيس الجمعيات اليهودية أدوات الصهيونية لتحقيق أهدافها داخل الاطار العربي عامة والفلسطيني خاصة.

السيطرة على سوق الورق وأدوات الطباعة والإعلان:

لقد كان دور اليهود في مصر نموذجياً ـ على حد تعبير الدكتور نزار الحديثي ـ في خدمة الاستعمار والصهيونية انجاز عملية الاحتواء الثقافي لمصر وقد بدأ اليهود دورهم باحتكار تجارة الورق وأدوات الطباعة وسيطروا على الصحافة، واقتصروا في تسهيل الخدمات للصحف التي لا تقف مواقف معادية منهم، أو من السياسة الاستعمارية فعانت منهم الصحف الوطنية الأمرّين، خاصة الاسلامية الاتجاه، أو تلك التي ناصرت القضية الفلسطينية، ثم احتكروا الاعلانات من خلال تشكيل شركة الاعلانات الشرقية التي

كانت تصب فيها اعلانات كافة الشركات والمتاجر، والوكالات، ودور السينما، وعن طريق الاعلانات كانوا يقررون من من الصحف تستمر، ومن منها يتوقف[1] وقد عمل رئيسها اليهودي هنري حاييم، ومعه فريق من اليهود المجندين لخدمة الصهيونية في مجال الاعلام، على الضغط على الصحف الوطنية عن طريق الترغيب والترهيب بالاعلانات والاشتراكات.

الصحافة اليهودية:

لقد ظهرت صحف يهودية عديدة في مصر بعد مؤتمر بال، أصدرتها الهيئات والجمعيات الصهيونية والطائفية واليهودية بمصر وكانت في معظمها ذات انتماء صهيوني سافر كما كانت أدوات دعاية قوية لنشر الفكر الصهيوني باللغتين العربية والفرنسية في مصر

وقد واجه اليهود في البداية بعض الصعوبات في تحقيق أهدافهم عن طريق اصدار صحف يبثون من خلالها الفكر الصهيوني، فحاولوا تعويض ذلك بالعمل على الاستفادة من الصحف المصرية بمحاولة النفاذ اليها، وقد وجدت بالفعل بعض الصحف التي تبنت وجهة النظر الصهيونية وأفردت صفحاتها للدفاع عنها.. وتأتي المقطم في مقدمة هذه الصحف كما يأتي هذا الموقف انطلاقاً من تبعية المقطم المطلقة للاستعمار البريطاني، وقد اتبعت المقطم سياسة تتسم بالدهاء والنعومة، فهي الصحيفة المصرية

١ ـ المرجع السابق. ص: ٢٢

الوحيدة التي أتاحت الفرص للكتاب العرب والكتاب اليهود لابداء وجهات نظرهم في مختلف التطورات التي طرأت على مسرح الأحداث منذ بدأت الحركة الصهيونية تتجسد في مواقف وأفعال محددة في فلسطين. ولذلك أتيح لليهود فرصة استخدام المقطم للرد على الاتهامات والتحذيرات التي يعلنها بعض المصريين ازاء النشاط الصهيوني في فلسطين، أما المقتطف فقد كانت أقل ذكاءً من المقطم اذ تبنت الاتجاهات الصهيونية بشكل سافر، كانت تكتب عن نشاطهم وتمتدح جهودهم وتمنحهم فرصة الكتابة والتعليق والدفاع.. وبالنسبة للأهرام فقد حاولت أن تضفي على موقفها صفة الحياد والموضوعية، فكانت تمنح مساحات لا بأس بها لليهود للرد على وجهات النظر المخالفة لهم، وذلك عملاً بحرية النشر والواقع أن المقطم كانت الصحيفة المصرية الوحيدة التي حظيت بثقة اليهود الكاملة وكانوا يعتبرونها بمثابة البديل العادل لصحفهم، وقد أشار حاييم وايزمان في مذكراته الى ذلك عندما تحدث عن زيارته لمصر عام ١٩١٧م وأشاد بالروح الودية العظيمة التي يكنها أصحاب المقطم لليهود.

ويبرز انحياز المقطم واضحاً نحو الجانب الصهيوني عندما نكتشف أنها كانت تمنح الكتاب الصهيونيين ما يماثل ضعفي ونصف الفرصة التي كانت تمنحها للكتاب الفلسطينيين. أو المصريين للدفاع عن وجهة النظر العربية على صفحاتها.[1]

١ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ ـ ١٩٥٤م. دار الثقافة الجديدة. القاهرة: ١٩٨٠م. ص: ٣٠ ـ ٣١.

وكذلك تعددت الصحف المصرية التي كانت لها دور بارز في الدعاية للحركة الصهيونية مثل الصحف التي كانت تصدرها أحزاب الأقلية كصحيفة (الاتحاد) عن حزب الاتحاد وصحيفة (الشعب) عن حزب الشعب. وصحيفة (السياسة) عن حزب الأحرار الدستوريين. والتي كانت تروج للدعوة الى التفاهم بين اليهود والفلسطينيين لأجل اقامة الوطن المشترك. !!

ومن ناحية أخرى فقد تمكن اليهود من اصدار عدد من الصحف التي تتبعهم مباشرة أهمها:

- المجلة الصهيونية ١٩١٨م لسان حال المنظمة الصهيونية في مصر
- صحيفة الصوت اليهودي ١٩٣١م وتمثل الجناح المتطرف في الحركة الصهيونية.
- صحيفة الشمس الصهيونية السافرة ١٩٣٤م. وكانت تهدف الى استقطاب الرأي العام المصري لصالح الصهيونية من خلال مخطط ذكي وغير مباشر.[1]
- صحيفة النهضة اليهودية ١٩١٧م. واستمرت عامين ونصف العام وكانت أحد المنابر الهامة لترويج الفكر الصهيوني.
- مجلة التهذيب ١٩٠١ - ١٩٠٥م.
- صحيفة الارشاد ١٩٠٨م وقد ارتبطت كل من التهذيب والارشاد بالاتجاهات الصهيونية

وترى الدكتورة عواطف عبدالرحمن أن المجلة الصهيونية تمثل

---

١ - المرجع السابق. ص: ٤٠.

البداية العلنية للنشاط الصهيوني في مصر خصوصاً أنها أعلنت بوضوح في افتتاحية العدد الأول أن هدفها هو: (خلق وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين يمارس بداخله اليهود الحرية والعدالة ويجعلون من القدس القلب النابض للأمة اليهودية).

وقد استمرت في الصدور خمسة أعوام مما أبرز هويتها التي أعلنتها منذ العدد الأول.

وتحدد الدكتورة عواطف عبدالرحمن عدداً من الأغراض اعتمدت المنظمة الصهيونية في مصر على هذه المجلة في تحقيقها هي:

أولاً: تثقيف الجماهير اليهودية في مصر وتوعيتها بأبعاد المشكلة اليهودية وأهداف الحركة الصهيونية وتعبئتها من أجل مساندة انشاء الوطن القومي في فلسطين.

ثانياً: الترويج للفكر الصهيوني بين قيادات الرأي العام المصري والتي كان يمثلها كبار الساسة والمثقفين المصريين وخصوصاً تلك المجموعات التي درست في الجامعات الأوروبية وتأثرت بالفكر الليبرالي، وكان يطلق عليها المجموعة العلمانية أو التيار القومي المصري في مواجهة المجموعات الأخرى التي كانت تمثل الاتجاهات الاسلامية وتبدي تعاطفاً شديداً مع التيار العربي.

ثالثاً: استخدام مصر كمنبر للدعاية الصهيونية في المنطقة العربية والاسلامية بأكملها وقد عبرت المجلة الصهيونيةعن ذلك بوضوح في كثير من أعدادها اذ أبرزت أهمية كسب الرأي العام المصري الى جانب الحركة الصهيونية ادراكاً منها لقدرته على التأثير على الدول

العربية والشرقية وحرصاً على استثمار مصر ويهودها في بناء الوطن القومي اليهودي في فلسطين.[1]

وقد سارت على الخط نفسه صحيفة «اسرائيل» التي صدرت باللغة العربية في مصر عام ١٩٢٠م واستمرت ١٤عاماً ثم توالى اصدار الصحف الصهيونية في المشرق العربي لتمارس مهمتها كمنبر للدعاية للفكر الصهيوني مثل صحيفة الفجر التي أصدرت في القاهرة عام ١٩٢٤م ومجلة الاتحاد الاسرائيلي ١٩٢٤م، وكانت هذه الصحف ترتبط بخطة وسياسة واحدة ترمي الى استقطاب اليهود جميعاً نحو الحركة الصهيونية اضافة الى تضليل المصريين والعرب وخداعهم عن حقيقة التطلعات الصهيونية في فلسطين والمنطقة العربية.

الجمعيات الثقافية:

وقد انتعشت الدعاية الصهيونية في مصر ابان الحكم الفاشي في ايطاليا وألمانيا في الثلاثينيات، وتحت ستار مقاومة الفاشية تشكلت الهيئات اليهودية ذات الولاء الصهيوني وقامت بدور خطير في الترويج للفكر الصهيوني من خلال الادعاء بمقاومة الهتلرية، ونجحت في اجتذاب اهتمام بعض كبار الكتاب والأدباء المصريين مثل طه حسين، ومحمد حسنين هيكل وغيرهما، حيث منحا الرابطة (رابطة مقاومة الهتلرية) تأييدهما وتشجيعهما سواء عن غفلة أو ادراك بحقيقة الدور المزدوج الذي كانت تقوم به رابطة مقاومة الهتلرية التي كونها

---

١ - المرجع السابق. ص: ٣٢ - ٣٣.

اليهود المصريون في ذلك الحين.[1]

وعلاوة على الاطار التعليمي الخاص الذي يؤكد على التراث اليهودي بجوانبه الدينية والعنصرية، حرص المثقفون اليهود على تأمين الجمعيات الثقافية لإحياء الثقافة العبرية ودراسة العلوم المتصلة بتاريخ اليهود في الشرق، وذلك استكمالاً للمخطط الذي يهدف الى تحقيق العزلة الكاملة وجدانياً وفكرياً لليهود المقيمين بمصر، ومنعهم من الاندماج الحضاري والثقافي في المجتمع المصري، وذلك بالعمل على تعلم اللغة والتراث الثقافي العبري. ومن أبرز المؤسسات الثقافية اليهودية (جمعية مصر للدراسات التاريخية اليهودية) ١٩٢٥م. و (الجمعية المصرية لأصدقاء الثقافة العبرية) التي كانت تقوم بإيفاد بعثات دورية من يهود مصر الى فلسطين حيث يتلقون دورات دراسية في الفكر الصهيوني والثقافة العبرية يعودون بعدها الى مصر وقد أصبحوا كوادر قادرةعلى نشر هذا الفكر وترويجه.

ومع تزايد انكشاف العلاقة الوطيدة بين يهود مصر والحركة الصهيونية التي تجسدت في مجالات عديدة فقد برزت هذه العلاقة في المجال الثقافي، في ازدياد الاهتمام بفلسطين من ناحية والعمل على احياء الثقافة العبرية بجميع الوسائل والأساليب.

وفي اطار هذا الاهتمام أنشأ اليهود المثقفون (جمعية أصدقاء الجامعة العبرية في القدس) ١٩٢٥م نشطت أوساط المثقفين اليهود في انشاء العديد من التجمعات والمؤسسات الثقافية ـ منها النادي

---

١ ـ المرجع السابق. ص: ٢٢

العبري للدعاية للغة العبرية، واتحاد المدارس اليهودية، وجمعية هرتزل لتشجيع الثقافة العبرية والعمل على نشرها بين يهود مصر [1]

السيطرة على السينما:

ودخل اليهود أيضاً قطاع السينما وسرعان ما سيطر عليه مزراحي وايلي وريمي، وأسس جوزف موصيري شركة جوزي فيل التي أقامت وادارت عدداً من دور السينما في القاهرة وغيرها من مدن القطر المصري، وتقدم الممثلون اليهود ليحتلوا أرضاً متسعة في قطاع السينما المصرية.

وقام ألبير مزراحي ـ أحد الصحفيين اليهود المصريين ـ بإصدار صحيفة المصباح عام ١٩٤٦م، وخصصها للنقد الفني ونشر الثقافة الفنية، وقد حملت على عاتقها مهمة كشف المصالح اليهودية في مجال السينما المصرية، والعلاقات التي تربط بين المنتجين السينمائيين من اليهود المصريين وكبار الصهيونيين في فلسطين، وكشف عن الدور الذي تقوم به الصهيونية في محاربة الشركات السينمائية المصرية والفلسطينية والتحايلات التي تقوم بها الشركات الصهيونية لتتفادى قرارات المقاطعة التي أصدرتها الجامعة العربية ضدها، ومنها مثلاً اخراج أفلام تحمل أسماء مصرية أو الاشتراك مع منتجين مصريين على حين يكون التمويل ومضمون الأفلام صهيونياً في الواقع.[2]

---

١ ـ المرجع السابق. ص: ١٧ ـ ١٨

٢ ـ المرجع السابق. ص: ٤٨.

الالتفاف حول كبار الكتاب والأدباء:

ولعل أخطر ما قام به اليهود في مصر من الناحية الثقافية ما ذكرته الدكتورةعواطف عبدالرحمن من محاولاتهم الالتفاف حول كبار الكتاب والأدباء المصريين والتقرب اليهم والعمل على اكتساب مودتهم وتعاطفهم. وبالتالي ضمان امتناعهم عن كتابة أي شيء يؤدي بشكل أو بآخر الى كشف النوايا الحقيقية للنشاط الصهيوني الذي كان يحاول التخفي خلف القناع الديني لليهود المصريين. وقد نجح اليهود بالفعل في اكتساب ثقة وتعاطف ومشاركة كبار الكتاب والأدباء المصريين مثل طه حسين ومحمد حسنين هيكل والعقاد ولطفي السيد وغيرهم.

وفيما يتعلق بطه حسين فقد تتلمذ عليه كثير من الطلبة اليهود أمثال (اسرائيل ولفنسون) الذي أعد رسالة الدكتوراه عن (تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الاسلام) وقام بالاشراف عليها الدكتور طه حسين، وقد ركزت هذه الرسالة على «اظهار فضل اليهود على العرب».

هذا. وقد أحاطت الصحافة اليهودية الدكتور طه حسين باهتمامها الواضح وخصوصاً عندما أعيد الى الجامعة بعد اقصائه عنها لفترة طويلة سنة ١٩٣٤م. وقام أحد المثقفين اليهود بترجمة كتاب طه حسين (الأيام) الى اللغة العبرية. كما قام طه حسين بزيارة مدارس الطائفة الاسرائيلية بالاسكندرية في عام ١٩٤٤م وكان في استقباله كبار الشخصيات اليهودية على رأسهم الحاخام الأكبر

فنتورا. كما أعدوا نشيداً خاصاً للترحيب به. وألقى طه حسين محاضرة في دار المدارس الاسرائيلية أبرز فيها علاقة اليهود بالأدب العربي. وقد استثمرتها الدوائر اليهودية أفضل استثمار فنشرتها الصحف اليهودية والصهيونية في صفحاتها الأولى. واعتبرت وثيقة دعائية هامة لليهود. وقد تعرض طه حسين للهجوم بسبب هذه المحاضرة من جانب الصحافة العربية. ولكن تصدت الصحف اليهودية بالدفاع عنه.

وكان نجاح اليهود عظيماً في احتواء كبار الأدباء والكتاب عن طريق اصدار مجلة مصرية ذات طابع ثقافي ضمت نخبة من كبار المثقفين المصريين بتمويل يهودي صهيوني وتحمل واجهة حضارية لا تحمل اثارة الشكوك حول انتمائها أو هويتها الحقيقية، تلك الصحيفة هي «الكاتب المصري» التي صدرت في أكتوبر عام ١٩٤٥م. وكان يرأس تحريرها الدكتور طه حسين وكانت تتولى تمويلها احدى العائلات اليهودية الثرية وهي أسرة هراري.

وقد ضمت طائفة من الكتاب الأوروبيين والأمريكيين الى جانب الكتاب المصريين أمثال توفيق الحكيم ولويس عوض وسهير القلماوي وحسين فوزي ونجيب الهلالي ويحيى حقي وشوقي ضيف ومحمود تيمور ويحيى الخشاب وفؤاد صروف. وقد تعرضت مجلة الكاتب المصري لحملة عنيفة من جانب بعض الصحف المصرية مثل (مصر الفتاة) وغيرها متهمة اياها بالخضوع لسيطرة الصهيونية وشراء صمتهم ازاء الصراع العربي الصهيوني في فلسطين.

وبالفعل فقد ثبت من متابعة أعداد مجلة (الكاتب المصري) تجاهلها الكامل وشبه المتعمد للقضية الفلسطينية، في الوقت الذي بلغت الصدامات العربية الصهيونية في فلسطين ذروتها. ولم تخل صحيفة مصرية من متابعة هذه الأحداث بشتى ألوان الكتابة والتغطية الصحفية. كما يمكن ملاحظة النغمة الحيادية التي تناولت بها مجلة «الكاتب المصري» القضية الفلسطينية من خلال معالجتها للأحداث ذات الدلالة في مصير القضية مثل قرار التقسيم سنة ١٩٤٧م، اذ نلاحظ أنها نشرت الخبر وردود الفعل في الأوساط العربية والبريطانية فحسب، كذلك يلاحظ اهتمام المجلة بإبراز انجازات اليهود واسهاماتهم في الثقافة والأدب العربي.

وتنتقل الدكتورة عواطف عبدالرحمن الى محاولة تفسير المبررات التي دفعت تلك النخبة البارزة من المثقفين المصريين للمشاركة في اصدار مجلة الكاتب المصري رغم ما أحاط بها وبمولها من شكوك وعلامات استفهام ظلت حتى اليوم دون تفسير مقنع، وعندما نحاول فهم ذلك الموقف سوف نجد أن معظم الذين شاركوا في «الكتاب المصري» كانوا ينتمون الى التيار القومي المصري الذي عبر عن نفسه في أوائل القرن العشرين لدى كل من لطفي السيد وأحمد فتحي زغلول وفي خلال العشرينيات والثلاثينيات لدى محمد حسنين هيكل وأحمد أمين وعباس العقاد وتوفيق الحكيم وابراهيم المازني وطه حسين ومنصور فهمي، ومن أبرز الصحف التي تبنت هذا الاتجاه وروجت له صحيفة (الجريدة) التي كان يرأسها لطفي السيد ثم انتقلت دعوة القومية المصرية من الجريدة الى (السفور) ثم (السياسة) اليومية

والأسبوعية في العشرينيات والثلاثينيات، وقد لعبت (الكتاب المصري) أثناء الحرب العالمية الثانية دوراً هاماً في إحياء تيار القومية المصرية ونشر الفكر القومي المصري، والواقع أن ذلك التيار كان يضم المجموعة الفكرية التي أعلنت تبنيها للنظرة المتوسطة التي ذهبت الى أن مصر كانت تمثل باستمرار جزءاً من حضارة البحر المتوسط التي شملت أوروبا والشرق الأدنى. وقد قيض لهذا الرأي الذي نادى به قبل الحرب العالمية الأولى لطفي السيد وقاسم أمين أن يجد في طه حسين أقوى معبر عنه. وقد سجل هذا التيار موقفاً متحفظاً من التيار العربي في مصر منذ البداية [1]

كذلك التف اليهود حول أحمد شوقي أمير الشعراء لاكتساب صداقته ولم يدخروا وسعاً في انتهاز جميع الفرص والمناسبات للتقرب اليه واظهار تقديرهم له منها اشتراكهم في المؤتمر العربي الذي أقيم لتكريم شوقي حيث ألقى مراد فرج قصيدة تكريماً له وأرسلت جمعية الأدباء والمؤلفين العبرية ونقابة المعلمين اليهود بالقدس برقية على لسان الشاعر اليهودي بياليك للمشاركة في هذا التكريم، وقد استطاع اليهود أن يجذبوا أيضاً الكاتب المصري المعروف عباس العقاد مما عرضه الى اتهام بعض الصحف الوطنية[2] بأن اليهود قد نجحوا في شراء قلمه.

وفي اطار الاهتمام بالمثقفين المصريين خصصت بعض

---

١ المرجع السابق. ص: ١٨ - ١٩ ٤٣ - ٤٥.

٢ صحيفة مصر الفتاة. ١٩٣٩/٧/٢٩م. العدد ١٨

الصحف اليهودية ذات الاتجاه الصهيوني السافر مثل صحيفة «الشمس» أبواباً خاصة للتحدث عن الشخصيات المصرية البارزة في مجال الثقافة والفن والعلوم.

ولا يخفى الهدف المراد تحقيقه من وراء ذلك، والذي كان من نتيجته أن وجد اليهود بين الكتاب المصريين من يتعاطف معهم ويقتنع بقضيتهم.[1]

لقد أنشئت اسرائيل في ظرف تاريخي يمكن أن نحدده بالحلقة الاستعمارية الأخيرة ضد بلاد العرب، وقد اتسمت هذه المرحلة بالتخلف العربي والتجزئة التي صنعها الاستعمار والمحاولات المستمرة لتغريب الأقطار العربية وحصرها في اطار من التبعية الكاملة للغرب سياسياً وثقافياً واقتصادياً. وقد جاء زرع الكيان الصهيوني في صدر الأمة العربية كحلقة من حلقات الاستعمار في تحقيق أهدافه وفي تكريس التخلف والتجزئة والتبعية.

ومن هنا. فالكيان الصهيوني ـ يمثل محوراً من محاور الصراع الحضاري ـ الثقافي الفكري العقدي بين العرب والمستعمر الذي زرع الكيان الصهيوني واحتضنه منذ البداية، وعلى ذلك يمكن أن نفهم بوعي كامل أبعاد الصراع وسمات هذا الكيان وطبيعته وأهدافه. فهو حرب معلنة وخفية على الوجود العربي الاسلامي المتوحد المتحضر بمقوماته الأساسية إن هذا الفهم سيفسر لنا كل

---

١ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. المرجع المذكور ص: ١٩ ـ ٢٠

المحاولات الصهيونية لاحتواء العقل العربي والشخصية والأرض العربية، والعمل الدائب للهيمنة على المؤسسات الثقافية وأدواتها من أجل اشاعة جو من التحلل الفكري الخلقي وعزل الرأي العام في مصر عن قضاياه الجوهرية.

إن هذا البحث لا يؤمن بما تروج له الآن اتجاهات الفكر التغريبي من تصوير للصراع العربي الاسرائيلي على أنه صراع حدود، أو صراع على الأرض. أو صراع ضد سياسات صهيونية رجعية معينة لا ضد الوجود الصهيوني كله.

تغيير أساليب الاستعمار الثقافي

اشتعلت اليقظة العربية وزاد الوعي بأخطار ما يمارسه المستعمر من محاولات سافرة لتمزيق الثقافة العربية وقتل روح الأمة، وأمام ذلك لجأ المستعمر الى تغيير أساليبه وتحوير منطلقاته ليصل الى الأهداف ذاتها، فتوجه في المجال الثقافي الى انتهاج أساليب جديدة أكثر خطورة وأكثر امكانية لفرض مقومات الهيمنة والاحتواء وذلك باعتماد ركائز فكرية وثقافية نابعة من نفس البنية الثقافية ومتمرسة في مجالاتها وذلك بتسليطها عليها وتوفير وسائل دعمها وتشجيعها وارسائها كواجهات أساسية داخل المجتمع وبفعاليات قادرة على التحرك والاستقطاب فساعدها على انشاء مجموعة من المؤسسات المهتمة بالثقافة والصحافة وشئون النشر، وقدم لها كافة الامكانات المادية والمعنوية

وقد مارس هذا الأسلوب في مختلف أرجاء الوطن العربي الخاضع لسيطرته وخاصة في البيئات العربية التي تتوافر فيها نشاطات فكرية وثقافية متميزة، في سوريا ولبنان ومصر، وتتكاتف فيها عوامل التحرك والانطلاق.

واذا كان قد سبق له الاعتماد على الإرساليات والبعثات التبشيرية فهو هنا يتعامل مع مجموعة الأسماء الفكرية العربية وبطرق مباشرة وغير مباشرة تتحول هذه الأسماء الى أداة عاملة ومساهمة في خدمته.[1]

لقد كانت الصحافة ميداناً كبيراً لتحقيق هذه السياسة فقد لعبت بريطانيا دوراً معروفاً في استخدام الأرمن حيث ساعدتهم على نشر صحف لهم بمصر تحمل دعوتهم الانفصالية عن الدولة العثمانية وأبرزها صحيفة الزمان، وكذلك استقطبت انجلترا الكثير من الصحفيين الشوام الذين هاجروا الى مصر واستخدمتهم لخدمة مصالحها والترويج لأفكارها من خلال الصحف التي ساعدتهم على اصدارها مثل: (صدى الشرق، والمحروسة، والمقتطف، والاتحاد المصري). كما شجعت بريطانيا على صدور بعض الصحف اليهودية ذات الميول الصهيونية المبكرة مثل صحيفة (الحقيقة) و«الزراعة» اللتين كانتا تعدان بوقاً للدعاية البريطانية في مصر[2] وعلى

---

١ ـ بشير الهاشمي. المرجع المذكور. ص: ٧

٢ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. قضايا التبعية الاعلامية والثقافية في العالم الثالث. ص: ١١٢ ـ ١١٣

حين كانت المقطم تؤيد الاحتلال البريطاني لمصر وتدافع عنه وتبرره وتجعله ضرورة حضارية للأمة. كانت الأهرام تساند فرنسا ضد بريطانيا.

وكذلك اعتمد الاستعمار الثقافي على اختراق نظام التعليم بصورة أشد مكراً ودهاءً وخبثاً سواء عن طريق انشاء مدارس ومعاهد وجامعات تتبعه مباشرة أو عن طريق التدخل غير المباشر في محتوى التعليم وبث أفكاره من خلاله

وقد نشأ عن هذا الأسلوب الاستعماري في استقطاب الكفايات الثقافية التي استعان بها على مظلة من الثقافة المشوهة ما يعرف بظاهرة التغريب أو الاستغراب وهو ما سنعرض له في الصفحات التالية.

التغريـــــب

يطلق شريعتي لفظ (الاستيعاب)على سلوك كل فرد يبدأ في محاكاة سلوك الآخرين سواء أكان ذلك عن وعي منه أم بدونه، ويرى أن الشخص الذي يفعل ذلك انما يجهر بضعفه ويغفل عن ماضيه وطبيعته الوطنية وثقافته، وان تذكر ذلك فإنما يتذكره باستثناء وهو ينكر ـ في صلابة ودون تحفظ ـ ذاته كي يبدل هويته أملاً أن يصل الى الرفعة التي يراها في سواه ويحاول المستوعب أن يتخلص من الخزي الذي يشعر به لانتمائه الى مجتمعه الأصلي وثقافته القديمة.

والانسان عندما يشعر بدنيانته الخاصة وأدبه ورغباته وآلامه من

خلال ثقافته انما يشعر بذاته وبحقيقة التاريخ والمجتمع والمنبع الذي أتى بهذه الثقافة. وتطبيقاً لذلك فالثقافة هي التعبير والهيكل الخارجي للوجود الحقيقي للمجتمع بالنسبة لذلك الانسان وهي تاريخ كامل للمجتمع ولكن بعض العوامل المصطنعة قد تكون ذات طبيعة مريبة تزحف الى داخل المجتمع لتمحو كل ثقافة حقيقية وتحل محلها ثقافة مزيفة تصلح لظروف أخرى وحقبة تاريخية مختلفة تمام الاختلاف واقتصاد مغاير وخلفية أخرى ووضع سياسي واجتماعي مغاير.

وهكذا. يقع الانسان تحت ثقافة اجتماعية أخرى تفقده ذاتيته وتفرض عليه مشاكل ليست مشاكله على الاطلاق، وفي مجتمع يشكو كل هذه المجاعة والأمية الشائعة ليس بمستغرب أن نجد طبقة مثقفة ومفكرة لها أحاسيس ورغبات وسلوك يشابه مافي أمريكا وانجلترا وفرنسا الآن، وهذه الطبقة من المفكرين لم يعودوا يشعرون بشعور الشرقيين ولا يئنون كالشرقيين وليست لهم تطلعات الشرقيين، فالمفكر لا يشقى بمشاكله الاجتماية ولكنه يشعر بألم وشقاء ورغبات واحتياجات الأوروبي وهو في قمة الرأسمالية والنجاح المادي والتمتع، وهكذا فاليوم تجتاح البلاد غير الأوروبية أقصى صور المعاناة من الفساد وانعدام النظام وهذه المجتمعات لها صفات خاصة ومع ذلك تتنكر لها، فهم يبثون في أذهانهم شيئاً غريباً عنهم، انهم يشعرون بشخص آخر يحاكونه بصورة عمياء.

فاليوم تمكنت المجتمعات الغربية من فرض فلسفاتها وطرق

تفكيرها ورغباتها وتذوقها للأشياء وعاداتها على البلاد غير الأوروبية فأصبحت مجتمعات لا شكل لها تحمل بعض ملامح الماضي ولكنها ملامح ممسوخة مستوردة من أوروبا، ويحكم شريعتي على هذه المجتمعات (شعوبها ومفكريها) بأنهم لا يعرفون لماذا يعيشون!؟ ويجهلون هدفهم وما يخفيه لهم المستقبل. ولا يعرفون مم تتكون طموحاتهم ومذاهبهم الفكرية.

وأصبحت المهمة الوحيدة للأوروبيين أن يضعوا اغراء «الحضارة» أمام أعين المجتمعات غير الأوروبية، لقد أدرك الأوروبيون أنهم بإغراء الشرقيين على الرغبة في التحضر فقد يقبلون أن يتعاونوا معهم على انكار الماضي ورفضه وتدمير مقومات ثقافتهم الخاصة وديانتهم وشخصيتهم، وهكذا يتغلب الاغراء والشوق الى (الحضارة)على كل شيء في جميع أنحاء الشرق الأقصى والأوسط والأدنى وفي البلاد الاسلامية والسوداء وأصبح أن يكون الانسان متحضراً معناه أن يكون صنواً للأوروبي والتحضر هنا معناه التحضر في الاستهلاك.

ولكي تتبع البلاد الشرقية أوروبا وتحاكيها كالقردة، على الأوروبيين أن يثبتوا للدول غير الأوروبية أنهم لا يملكون نفس صفات القيم الانسانية التي للأوروبيين وكان يجب عليهم أيضاً أن يقللوا من شأن تاريخهم وآدابهم ودياناتهم وفنونهم كي يعزلوهم عن كل ذلك ومن الممكن أن ترى الأوروبيين وقد حققوا ذلك بالفعل.

لقد خلقوا أناساً لا يعرفون ثقافتهم ولكنهم مع ذلك مستعدون

لاحتقارها، انهم لا يعرفون شيئاً عن اسلامهم ومع ذلك يقولون عنه قولاً قبيحاً. انهم لا يفهمون قصيدة شعر بسيط ومع ذلك ينتقدونه بألفاظ غير منتقاة، انهم لا يعرفون تاريخهم وماضيهم ومع ذلك فهم على استعداد لإدانته، ومن ناحية أخرى ـ وبدون أي تحفظ نراهم معجبين بكل ماهو مستورد من أوروبا، ونتيجة لذلك وجد مخلوق انعزل عن ديانته وثقافته وماضيه وتاريخه ثم احتقر كل ذلك.[1]

وعلى مستوى الوطن العربي. يمكن القول ان ساحته الثقافية شهدت صراعاً ثقافياً عميقاً ونشاطاً تغريبياً مكثفاً نظراً لطبعته الحضارية والثقافية، وقد تبلور هذا الصراع في ظهور ثلاثة تيارات مثّل أحدها الرفض للانفتاح الثقافي على الغرب والاعتزاز بالعروبة والإسلام والتراث، ومثل هذا التيار: الرافعي والزيات وعزام ومحمد عبدالمطلب وغيرهم. والتيار الثاني مثّله: طه حسين وسلامة موسى وجرجي زيدان ولطفي السيد وقاسم أمين وهيكل وفيليب حتى.
وبين هذين التيارين ظهر تيار توفيقي يدعو الى الأخذ عن الغرب بما يفيد مع الاستمساك بالأصالة العربية ورائد هذا التيار الشيخ محمد عبده وعبدالله النديم وزكي مبارك والشيخ عليش ورشيد رضا وشكيب أرسلان ومحب الدين الخطيب ومصطفى صادق الرافعي.
وقد بدأ العقاد متحرراً وانتهى محافظاً على أبعد الحدود.

ولم يكن لأصحاب التيار العربي الأصيل منبر في مثل ارتفاع

---

١ ـ على شريعتي: المدنية والحضارة. المسلم المعاصر ع ٣٣ ١٤٠٢هـ. ص: ٣٣ ـ ٤٦.

منبر دعاة التغريب ولا صحافة في مثل قوة صحافتهم. لذلك فقد شهدت هذه المرحلة انتصار تيار الفكر الغربي في مجال السياسة والثقافة والأدب. وعن هذا الانتصار يتحدث الدكتور زكي نجيب محمود يقول: «كنا ننظر الى اعلام تلك المرحلة الأولى. أي خلال النصف الأول من هذا القرن فيأخذنا غير قليل من الجزع اذ نلمح في هؤلاء الأعلام شيئاً من الإسراف في التباهي بثقافة الغرب وحضارته مما أدى يومئذ الى العيش في مناخ كاد المواطن فيه أن يخفي مصريته وعروبته واسلامه حتى لا يتهم بالجلافة والتخلف، ولا أظن أحداً منا قد نجا من تلك التبعية العمياء القاتلة. نعم: كان الصوت الأعلى لأصحاب هذه الثقافة المتفوقة عند الغرب، وكان الشعور بالنقص هو نصيب من درس الكنز الموروث مكتفيا به وهو موقف فيه هزال المريض وضعف الذليل».

لقد نجا الفريق المنهجي (التوفيقي) من هذه التبعية العمياء القاتلة، ولم يخفوا مصريتهم ولا عروبتهم ولا اسلامهم، ولم يرهبهم أن يرميهم بعض فئات المجتمع بالجلافة والتخلف، بل كان لسان حالهم حين يعظون وينصحون ويوقظون من منابرهم المنخفضة: «اللهم اهد قومنا فإنهم لا يعلمون».

ويعطي الدكتور زكي نجيب محمود في مقاله هذا اقراراً خطيراً يقول فيه: «وكنت لفترة طويلة واحداً من أولئك الذين ضلوا سبيل الحق حتى أراد الله في رؤية أهدى».[1]

---

١ ـ الدكتور زكي نجيب محمود. اسلامنا يكفينا ولكن كيف. الأهرام ١٩٨٣/٧/٣م.

ولا يمكن لمثل هذا العرض الوجيز أن يغفل الموقع الكبير المتميز الذي أفلحت الإيديولوجيا الشيوعية في أن تحتله على الساحة العربية في الخمسينيات والستينيات ومازال لها نفوذ كبير، وقد عملت الشيوعية بإصرار وعنف على زحزحة الاسلام عن الساحة العربية باعتباره العدو الأول لها، واتبعت في ذلك أساليب عديدة ويوضح ذلك ما نشرته مجلة «العلم والدين» الروسية في عددها الصادر في أول يناير ١٩٦٤م:

«وفي المحيط العربي كله يعمل أنصارنا بجد، وقد استطاعوا أن يثبوا الى المناصب الرئيسية في الوزارات والادارات الحكومية، والشركات والمؤسسات الرسمية وغير الرسمية وقد وفقوا حسب تعليماتنا للسيطرة التي وان كانت فردية الاّ أن توفيقهم للوصول الى تلك المناصب يعد من الأعمال الناجحة، كما أن لقاء الأفراد ببعضهم جعل اللقاءات في صورة اللقاء الجماعي ويزداد على مر الأيام عدد أنصارنا الذين يتولون المناصب ذات الأثر الفعال في خلق الجو الصالح للتحرك الثوري، وحسب تعليماتنا لهم، جعلوا من الوزراء والمسئولين الذين لا يشك في اخلاصهم للنظام الرجعي الحاكم المعادي للاشتراكية واجهة يقفون وراءها، ويعملون تحت ستارها ما يريدون في أمن وطمأنينة مع اليقظة والحذر دون أن تحوم حولهم الشكوك لأنهم يتسترون بأولئك المسئولين».[1]

وفي اطار نشاط التغريب تكونت سياسة استقطاب الطبقة

١ ـ عن محمد الغزالي. المرجع المذكور. ص: ١٢٨ ـ ١٢٩

البارزة من الكتاب والأدباء لتتحول عملية فرض الثقافة الأجنبية الى معركة داخلية بين (الأشقاء) يلعب المستعمر فيها دوراً بعيداً عميقاً ولكن من وراء ستار، وقد جند كثير من المثقفين البارزين نفسه عن طواعية وطيب خاطر أو لحاجة في نفس يعقوب، لتنفيذ سياسة التغريب في الوطن العربي.

ولعل سلامة موسى أشد المتعصبين لثقافة التغريب والمعارضين لكل قيم الثقافة العربية ومقوماتها مثل اللغة العربية والدين الاسلامي والأدب العربي وتراثه، وهو يعلن صراحة كراهيته للشرق وكفره به وتعلقه الشديد بالغرب وايمانه به.

ومارس جرجي زيدان دوراً في تشويه تراثنا وتاريخنا وشخصياتنا الاسلامية في رواياته التي تطبع وتعاد طباعتها في العالم العربي، وقد ثبت لدى بعض الباحثين صلته بالمخابرات البريطانية[1] وربما يوضح لنا هذا سر الضربات التي وجهها الى عمق المكونات الثقافية العربية والاسلامية.

ولم تسلم بعض القيادات الوطنية من تبني عدد من بين الموضوعات التي تنتمي الى الحضارة الغربية وثقافتها، وبذلك فقد

---

١ ـ يرجع في ذلك الى عمر الدسوقي. تاريخ الأدب العربي. وألبرت حوراني. الفكر العربي في عصر النهضة. والدكتور محمد محمد حسين. الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر. حيث يورد معلومات هامة حول علاقة بعض الأدباء بالاستعمار، والدكتور عمر فروخ: التبشير والاستعمار حيث يتضمن معلومات هامة وموثقة عن المؤسسات الفكرية والصحافية العملية

تغربت في فكرها ومنها لطفي السيد مدير الجامعة المصرية الذي اشترك في احتفالات بافتتاح الجامعة العبرية في فلسطين عام ١٩٢٥م، وكان ممثلاً رسمياً للحكومة المصرية في افتتاح هذه الجامعة الصهيونية مما أثار عاصفة احتجاج من جانب الفلسطينيين.

ولويس عوض يعلن بوضوح هو الآخر موقفه قائلاً: «لقد لازمتني الثقافة الغربية منذ صباي وكونت لهذا الغرض مكتبة ضخمة باللغة الانجليزية، وتشبعت بها أكثر فأكثر في لندن وعدت الى مجتمعي لأعلمه أن يثور ويحطم كل شيء يتمسك به أي الموروث».[1]

وتشير وثائق عديدة الى وضع علامات سؤال كبيرة حول ارتباطات معظم رواد التغريب الفكري والسياسي الأوائل بالدول الاستعمارية الغربية، ولهذا تساءل أنطوان عبدالمسيح وهو ينشر بعض هذه الوثائق: هل كان جبران خليل جبران عميلاً فرنسياً لأن الوثائق تشير الى أن جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة وأمين الريحاني وشكري غانم وأيوب ثابت ونعيم دياب وشكري نجاش وعبدالمسيح حداد ونسيب عريضة وايليا أبوماضي أيدوا السياسة الفرنسية الرامية الى السيطرةعلى سوريا الكبرى، بل ان هذه الوثائق تذهب الى التأكيد على أنهم وقفوا ضد استقلال (لبنان الكبير) وطالبوا بحكومات فيدرالية تحت الحماية الفرنسية.[2]

---

١ ـ محمد عبدالسلام التريكي. انهم يريدون اغتيال اللغة العربية صحيفة الصباح التونسية. ص: ١٣ عن منير شفيق. المرجع المذكور. ص: ٩٤.

٢ ـ منير شفيق. المرجع السابق. ص: ٩٨، ٩٩.

نقد كتاب «مستقبل الثقافة في مصر»:[1]

أصدر طه حسين كتابه (مستقبل الثقافة في مصر عام ١٩٣٨م) وقد أحدث هذا الكتاب دوياً هائلاً في الأوساط الفكرية والأدبية وذلك لما احتواه من قضايا رآها كثير من المثقفين خطراً يهدد الثقافة في مصر ويرسم لها طريقاً يفقد فيه جذورها العربية الأصيلة.

يبدأ الكتاب فيحدد أن المؤثر الأساسي في تكوين الحضارة المصرية في تكوين العقل المصري هو حضارة البحر الأبيض المتوسط ثم يشرع في البحث عن أصل الثقافة المصرية وانتماء العقل المصري من الحضارة الفرعونية حتى اذا وصل الى (السلطان العربي) أو (الفتح) يرى أن المصريين لم يخضعوا لهذا السلطان كما لم يخضعوا من قبل للفرس واليونان والرومان بل كانوا في مقاومة وثورة حتى استعادوا استقلالهم.[2]

ويغفل تماماً الصلات العربية في حين يركز حديثه في القومية المصرية والشخصية المصرية التي لم تفن في جيل من هذه الأجيال الكثيرة التي أغارت علينا[3] وهو بعد ذلك يدعو الى ألاّ ننكر الحضارة الأوروبية ونحن مقبلون عليها وغارقون فيها.[4]

---

١ - يعتمد هذا البحث على المجموعة الكاملة لمؤلفات الدكتور طه حسين. المجلد التاسع. علم التربية. دار الكتاب اللبناني. بيروت: ١٩٨٢م.

٢ - المرجع السابق. ص: ٢٦، ٢٧

٣ - المرجع نفسه. ص: ٥٩.

٤ - المرجع نفسه. ص: ٩٩.

ويرى الكتاب أن مصر دائماً جزءاً من أوروبا، في كل ما يتصل بالحياة العقلية والثقافية ، وان الاسلام لم يخرج عن عقليتها الأولى (الفرعونية) فحياتنا المادية أوروبية خالصة في الطبقات الراقية، وهي في الطبقات الأخرى تختلف قرباً وبعداً، من الحياة الأوروبية باختلاف قدرة الأفراد والجماعات وحظوظهم من الثروة وسعة ذات اليد ومعنى هذا أن المثل الأعلى للمصري في حياته المادية انما هو المثل الأعلى الأوروبي في حياته المادية. وليس في الأرض قوة تستطيع أن تردنا عن أن نستمتع بالحياة على النحو الذي يستمتع بها عليه الأوروبيون.[1]

وحياتنا المعنوية على اختلاف مظاهرها وألوانها أوروبية خالصة نظام الحكم عندنا أوروبي خالص نقلناه عن الأوروبيين في غير تحرج ولا تردد. واذا عبنا أنفسنا بشيء من هذه الناحية، فإنما نعيبها في نقل ما عند الأوروبيين من نظم الحكم وأشكال الحياة السياسية.[2]

«والتعليم عندنا على أي نحو قد أقمنا صروحه ووضعنا مناهجه وبرامجه منذ القرن الماضي، على النحو الأوروبي الخالص، ما في ذلك شك ولا نزاع، نحن نكون أبناءنا في مدارسنا الأولية والثانوية والعالية تكويناً أوربياً لا تشوبه شائبة».[3]

«ولم يقف الأمر عند هذا الحد. بل نحن قد خطونا خطوات

---

١ ـ المرجع نفسه ص: ٤١.

٢ ـ المرجع نفسه. ص: ٣٦، ٤١.

٣ ـ المرجع السابق. ص: ٤٦، ٤٧.

أبعد حداً مما ذكرت، فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الادارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوروبا وهل كان امضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الإمتيازات الاّ التزاماً قاطعاً أمام العالم المتحضر بأنا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع».[1]

ويستخلص من هذ كله النتيجة الآتية:

«كل هذا يدل على أننا في هذا العصر الحديث نريد أن نتصل بأوربا اتصالاً يزداد قوة من يوم الى يوم حتى نصبح جزءاً منها لفظاً ومعنى، وحقيقة وشكلاً».[2]

واذا كان الكتاب يحدد سبيل النهضة «في أن نسير سيرة الأوروبيين ونسلك طريقهم لنكون لهم أنداداً، ولنكون لهم شركاء في الحضارة خيرها وشرها، حلوها ومرها، وما يحب وما يكره، وما يحمد منها وما يعاب»[3] وأن نشعر الأوروبي بأننا نرى الأشياء كما يراها، ونقوم الأشياء كما يقومها، ونحكم على الأشياء كما يحكم عليها[4]، فإنه يدعونا الى أن نتعلم كما يتعلم الأوروبي، لنشعر كما يشعر الأوروبي ولنحكم كما يحكم الأوربي. ثم لنعمل كما يعمل الأوروبي. ونصرف الحياة كما يصرفها».[5]

---

١ ـ المرجع نفسه. ص: ٤٤.

٢ ـ المرجع نفسه. ص: ٥٨.

٣ ـ المرجع نفسه ص: ٤٥، ٤٦.

٤ ـ ٥ ـ المرجع نفسه ص: ٥٤.

ولعل أخطر ما جاء في الكتاب الإدعاء بأن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساساً للوحدة السياسية ولا قواما لتكوين الدول[1]، وذلك لقطع الكلام عن الوحدة العربية، كذلك يؤخذ على الكتاب دعوته المبالغ فيها الى الاعتناء بتعليم اللغات الأوروبية وآدابها على حين يدعو الى ترك تعليم الدين للأسر، وكان بعد ذلك خطورة ما دعا اليه من فصل الدين عن الحكم ومهاجمة الأزهر كأثر من مخلفات العصور المتأخرة المنحطة وبث الاقليمية المصرية في عقول الناشئة

وأمام كل هذا الطرح التغريبي من قبل شخصية مثل طه حسين يصعب علينا أن نفسر التناقض والاضطراب في التصورات التي طرحها الكتاب، كما يعز علينا أن نحلل التناقض الظاهر بين ذلك وبين دراساته الاسلامية والأدبية المتعددة، ولكن من الممكن أن تزول هذه الصعوبة اذا نظرنا الى دراساته الأخيرة كعطاء أكاديمي بحت قدمه طه حسين في الاطار الذي تكونت فيه ثقافته دون اعتبارات أخرى.

وقد انتقد الكتاب كثيراً من المثقفين المصريين مثل زكي مبارك وساطع الحصري والشيخ حسن البنا والدكتور محمد محمد حسين وكشفوا ما فيه من أخطاء، كما انتقده الشيخ أبوالحسن الندوي بقوله: لقد كان من المتوقع ومن المعقول جداً أن مثل الدكتور طه حسين صاحب الشخصية القوية في الأدب والعلم الذي حفظ القرآن

---

١ ـ المرجع نفسه ص: ٢٥

في الصغر ودرسه في الكبر، وتعلم في الأزهر ونظر في العلوم والآداب نظرة حرة واسعة، ورأى شقاء أوروبا بحضارتها المادية وفلسفاتها الالحادية، وحكوماتها القومية، وتذمر مفكريها والعلماء الأحرار فيها، ودرس تاريخ العرب والسيرة المحمدية دراسة تذوق واتقان، لقد كان من المتوقع والمعقول جداً، أن يدعو مصر الى الاستقلال الفكري والحضاري، وتربية شخصيتها الاسلامية العربية، والنهوض برسالتها العظيمة التي تستطيع ان تحدث انقلاباً في الأوضاع العالمية، وتمنح مصر مركز الزعامة والقيادة والتوجيه حتى لو كانت مصر جزءاً من العالم الغربي وقطعة من أوروبا، فالرسالات السماوية الانسانية أسمى وأوسع وأبقى من الحضارات وهي غنية عن الحدود الجغرافية والأدوار التاريخية، واذا فعل ذلك وقام بهذه الدعوة كان رائد النهضة الفكرية الحقيقية والثورة المصرية المباركة، واتفق ذلك مع مواهبه العظيمة كل الاتفاق».

«إن هذا المستوى الفكري ـ مستوى التقليد والتشبه والانسجام بالغرب وان قياس التبعات والواجبات والرسالات بمقياس الجغرافيا والتاريخ وطبائع أمم وعقلياتها في ضوء التاريخ القديم، مستوى كنا نتوقع من عالم مصري وأديب مفكر مثل الدكتور طه حسين أن يترفع عليه».[1]

---

١ ـ أبوالحسن الندوي. المرجع المذكور. ص: ١١٤ ـ ١١٦

التصدي للهجمة الغربية

لقد نجح الغزو الثقافي الاستعماري على بلاد العرب، وإن لم تكن قد تحققت أهدافه كاملة، فقد استطاع على أية حال أن يبلغ في تحقيقها حداً مذهلاً لم يكن متوقعاً، فعلى الرغم من أن العرب لا يزالون (مسلمين) الاّ أن عقيدتهم ضعفت وبعد البون بينهم وبين شريعة الاسلام وأخلاقياته، ومع أنهم لايزالون (عرباً) في لسانهم الاّ أن العجمة طغت على هذا اللسان العربي، وعلى الرغم من أنهم (أمة واحدة مستقلة) الاّ أن هذه الوحدة صارت تجزئة في الأرض والسياسات والثقافات وفقد النقاء الفكري، ومع أن العرب لا يزالون يدرسون تاريخهم الاّ أنهم يدرسونه كما كتبه الغرب أو كما أراد أن يُكتب!! وعلى الرغم من أن نظام التعليم (وطني) الاّ أنه مصاب بكثير من (التأثيرات) الغربية. وبكلمة واحدة. فقد استطاع الغرب الى حد ما أن يحتوي منا العقل والقلب والشكل والجوهر

ولعل نجاح هذا الغزو كانت نتيجة للفوضى العلمية والاجتماعية والسياسية التي ترجع الى عقود خلت، والجهل والتخلف الفكري الذي ساد في عالمنا العربي، اضافة الى التخلف الاقتصادي والعوز المادي الذي ساد في عالمنا العربي، اضافة الى التخلف الاقتصادي والعوز المادي الذي أحوجنا الى الاعتماد على الغرب، والأمية الفكرية التي أبعدتنا عن تراثنا وأصولنا وجعلتنا عالة نتكفف الغرب علومه وصناعاته وتقدمه فيمنح ما يشاء وقت شاء، ولا يفوته

الحرص على تذويب قيم المجتمع وموروثاته أو مشاركتها في تكييف الحياة العربية.

ويمكن القول أننا تمكنا من مواجهة الهجمة الاستعمارية الغربية سياسياً وعسكرياً، لكننا لم نتمكن حتى الآن من مواجهتها فعلى صعيد العلم والفكر والثقافة، على الرغم من روح الاخلاص والتضحية والفداء في الدفاع عن تراب الأمة ومقدساتها، الاّ أننا فشلنا في مناجزة الغرب علمياً وثقافياً نتيجة لضعف بنيتنا الثقافية وتدهور معرفتنا العلمية وانحطاط قدراتنا الفكرية والتنظيمية.

والأمر يقتضي إحداث نهضة فكرية وثقافية تدفع الى التقدم ومجاوزة مواقع العجز والغرب ذاته حين هاجمته طلائع العثمانيين لم يتمكن من الوقوف لهم وغلبتهم الاّ بعد تحقيق نهضة شاملة في الفكر والثقافة أطلق عليها عصر التنوير كانت منطلقاً لإعادة بناء وتنظيم قوى الغرب وتفجير طاقاته.

إن الذي أدى الى انهيار الحضارة العربية الاسلامية وضعف المعرفة والثقافة في المجتمع الاسلامي هو تخلي الحكومات عن مسئوليتها الرسمية تجاه الثقافة والعلم وانشغالها بالسياسة، والشقاق العسكري والتطاحن الذي جلب التمزق وأوهن القوى.

ان الازدواج الذي أصاب القيادة في الأمة حيث انقسمت الى قيادة سياسية وقيادة فكرية، جعل المعرفة والثقافة في آخر الاهتمامات وفتح الباب للصراع بين القيادتين السياسية والفكرية، ومناهضة

القيادة السياسية لنهج وتطلعات القيادة الفكرية.

إن على الحكومات العربية أن تقوم بدورها في تدعيم الثقافة العربية وتقريب القيادة الفكرية للأمة والاستجابة لتوجيهاتها وعدم الصراع معها في سعيها نحو التأصيل الثقافي والنهوض الفكري.

الفصـــل الثـــاني
الواقع الثقافي العربي

إن الواقع الثقافي هو الذي يصنع الانسان ويقدم له مبررات الحياة الروحية والموضوعية والتي تمثل بالنسبة له دوافع قوية للبقاء والتطلع والطموح الفكري والعلمي والعسكري والاقتصادي، وهذه المبررات يستمدها الانسان من رصيده الثقافي ويتزودها من واقع أمته الفكري، فإذا فقد الانسان مبررات وجوده نتيجة لنفاد رصيد أمته الثقافي أو نتيجة الانحراف به، ولم يستطع مع ذلك ايجاد مبررات تعويضية، تملكته أزمة نفسية خطيرة يشعر فيها بالخواء الروحي والنفسي، وتكون النتيجة هي انتحاره أو سعيه الدائم لتدمير وجوده بيده، وهذا عين ما يحدث في الغرب اليوم، وما يمكن أن يحدث في الشرق بعد قليل.

وتتعرض الدول الضعيفة ثقافياً في هذا العصر لغزو ثقافي مكثف من الدول القوية، مما يجعلها محاطة بواسطة ثقافة قوية تمتلك أدوات عاتية وتقنيات هائلة، وهذا يعرضها للاحتواء الثقافي بسهولة اذا كانت لا ترتكز الى تراث ثقافي أصيل أو ليست لها جذور ثابتة في الأرض.

واذا كانت الأقطار العربية قد تخلصت من الاستعمار المباشر فإن وضعها لا يختلف عن وضع بلدان العالم الثالث التي تعاني من التبعية عموماً، والتبعية الثقافية خصوصاً. . وهذه شهادة من اجتماع

الخبراء الحكوميين حول السياسات الثقافية في البلاد العربية.[1]

والساحة الفكرية العربية لم يهدأ فيها الصراع قط بين الأفكار والقيم العربية والأفكار والقيم الغربية، وهذا الصراع يشتد اليوم ليصبح معركة حقيقية يخوضها العالم العربي تحدد في النهاية انتماءه وتبلور توجهه، إنها المعركة الكبرى التي تتضاءل أمامها كل المعارك الأخرى لأنها ستحدد بعد الفصال هوية هذه الأمة وترسم مستقبلها.

ويعتمد الغرب في هذا الصراع على أسس أرساها في عصر السيطرة المباشرة بيناها من قبل، وهي تتعامل مع هذه الأسس باستمرار وإن لم يخل الأمر من أسس جديدة تستدعيها طبيعة الظرف التاريخي المتغير، والتغيرات في علاقة العرب بالغرب، والوعي بالأسس والفلسفة التي يسير عليها الغرب في توجيه صراعه مع العرب قضية ذات أهمية كبيرة لنا اذا أردنا أن نكون على مستوى الصراع.

ان المطرقة الثقافية الغربية ما فتئت تدق بقوةعلى السندان منذ بداية الهجمة التغريبية على العالم العربي، وبين المطرقة والسندان وضع العقل العربي ليعاد تشكيله وفق مناظير ومقومات جديدةتباعد بينه وبين أصله الثقافي وانتمائه الديني، تجعل منه مسخاً ثقافياً، فلا هو احتفظ بأصالته ولا هو لحق بالثقافة الغربية، بل هو أشتات موزعة وأشلاء ممزقة تحمل من كل مرض ثقافي جرثومة فكرية تنخر في عظام

---

١ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس ٢٣ ـ ٢٧ نوفمبر ١٩٨١م. منير شفيق: المرجع المذكور ص: ١٣٧

ثقافتنا الأصلية.

لقد تحقق بتأثير هذا الدق والضرب بكل قوة للمطرقة الثقافية الغربية ما نراه من استسلام ثقافي عربي نلمسه بجلاء في كل المجالات: الأدب والفن والصحافة والاعلام والنشر، والقيم والعادات والسلوك حتى أصبح العالم العربي مهدداً بالتحول عن ثقافته تحت تأثير الحملات الثقافية الغربية.

وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن فتن الواقع الثقافي العربي بين اتجاهين: ففي البداية كانت الهيمنة للحضارة الغربية وثقافتها، وقد اتسمت بسمة أساسية هي العلمانية، وقد مثل ذلك فتنة للعقل العربي الذي اعتمد منذ البداية على الدين كمقوم أساسي لثقافته، وفتن آخرون بالحضارة الشرقية الشيوعية وثقافتها القائمة على الالحاد وبغض الدين، وقد اتخذ المفتونون من الحضارتين طريقاً للتحرر والتقدم، لكن الواقع تكشف عن ضعف وأخطاء أذهلتهم، وفتحت عيونهم على حقيقة الصراع الدائب بين الفريقين لاحتلال مناطق النفوذ والسيطرة على مقدرات الشعوب، ونشر المذاهب الهدامة والمنحرفة عن روح الثقافة العربية:

ومع هذا الاتجاه الذي يرمي الى الانقياد وراء الفلسفات الأجنبية تنازع الفكر العربي اتجاه آخر يتردد في حيرة بين التجديد والأصالة، ونتجت عن هذا التردد حالة من التمزق الثقافي والتوزع الفكري أدت بدورها الى تململ العقل العربي من سوءات هذا الواقع. وشروعه في اتجاه يحفظ عليه أصالته الثقافية المستمدة من

العلم والدين جميعاً والقائمة على استيعاب معطيات العصر في مختلف الفنون المعرفية وهذا التوجه هو الذي يؤكد نفسه يوماً بعد يوم.

إن بعض الباحثين يطلقون على هذه الحقبة التي تغلب عليها الصبغة الغربية في التربية والحضارة وفي المظهر الخارجي للتفكير والتدريب الثقافي، حقبة الاستعباد الفكري، ويرى أن السبب الحقيقي لبقاء هذا الاستعباد هو الطريقة الأكاديمية والثقافية الحالية التي تركز على التصور الغربي للثقافة، وانه لكي نتخلص من هذا الاستعباد ينبغي أن نتأمل كيف فعل الشيوعيون عندما تسلموا السلطة في روسيا، لقد رفضوا كل العلوم الغربية واستبعدوها بوصفها علوماً برجوازية، وشعروا بالحاجة الى اعادة بناء كافة العلوم في ضوء المفاهيم الماركسية اللينينية.[1]

ويؤكد «جب» على تغلغل نفوذ الثقافة الغربية الأمر الذي يتضح لنا إذا نظرنا الى ما وراء المظاهر السطحية، وبحثنا عن الآراء الجديدة والحركات المستحدثة التي ابتكرت بدافع من التأثر بالأساليب الغربية، بعد أن تهضم وتصبح جزءاً حقيقياً من كيان الدولة، فتتخذ شكلاً يلائم ظروفها[2].

---

١ ـ محمود غازي. اسلامية المعرفة. الفكر السياسي والدستوري. مترجم عن الانجليزية. المسلم المعاصر. السنة السادسة. العدد ٣٤. ١٤٠٣هـ. ص: ٧٥ ـ ٨٦.

٢ ـ جب. الى أين يتجه الاسلام. عن أبوالحسن الندوي. المرجع المذكور. ص: ١١٢

كما يكشف أبوالحسن الندوي عن الفلسفات الغربية المادية التي ترد الى البلاد من الخارج، ويتطوع لنشرها وشرحها كبار الأدباء والكتاب لتعمل عملها في أذهان الناس، ولتلتهمها الطبقة الجامعية المثقفة والشباب الناشيء، وكل ذكي ثائر على الأوضاع الفاسدة السائدة التي لا تطاق!! وتظهر في هذه الأغراض كتب ومؤلفات يقرؤها الشبان عند المراهقة الفكرية فيستسيغونها، وتصبح جزءاً من فكرهم وعقيدتهم ومطامحهم في الحياة، وينظرون الى هذه الفلسفات كالطريق الوحيد للنهضة بالبلاد ومجاراة الدول والأقطار الحرة الراقية.[1]

ثم يرسم صورة معبرة لهذه السيطرة الفكرية بقوله: «في العصر الأخير ترى ظلال الفكر الغربي وارفة ممدودة على العقول العربية والأقلام العربية، مسيطرة عليها كسيطرة الأشجار الكبيرة على الحشائش الصغيرة منعكسة فيها انعكاس الشمس في المرآة الوضيئة».[2]

أزمة الثقافة العربية

ثقافتنا العربية تحتضر هذه حقيقة لا يشك فيها، الاّ الأخرس العهيل. ثقافتنا أضحت كالعصف المأكول. فيا شعراء وكتاب وأدباء ونقاد وعباقرة أمتنا العربية ماالذي تبقى على وجوهكم من حياء المواجهة. !!؟؟

١ ـ نفس المرجع المذكور. ص: ١١٩

٢ ـ نفس المرجع المذكور. ص: ١١١

إن الكاتب العربي والكتاب العربي صورة لهذه الحالة الارتطام الثقافي العام، الاّ يعني هذا أن العرب يعيشون عصر القيامة؟![1]

هذه صيحة أطلقها كاتب عربي يعيش الواقع الثقافي الذي تنعكس عليه التجزئة السياسية في العالم العربي بظلالها، وتظهر في صورة محزنة من التباعد والتفكك الثقافي حيث «تكون التربة خصبة لنمو الثقافات المختلفة المتباينة المتضاربة والمتناقضة داخل الأقطار الناطقة بالعربية.. وبذلك تتباعد أكثر مطامحها ومصالحها وتتشتت في مواجهة الأخطار المشتركة. وبالتباعد الثقافي تتباعد الصلات وامكانات اغناء التجارب، والمعرفة وفنون الابداع، وتنحصر الثقافات الضيقة وتزداد عزلة بعيداً عن الانصهار والتفاعل مع ماهو ايجابي وخلاصة الى العقم والفشل والضياع».[2]

ويمكن أن يظهر تبعاً لذلك الحديث عن ثقافة مصرية مستقلة وأخرى عراقية أو سورية أو لبنانية أو مغربية. وهذا ما نرى له بعض البوادر للأسف في أصقاع مختلفة في الوطن العربي.

---

١ ـ عبدالرءوف الخنيسي. بعض الملامح التاريخية عن الكتابة والكتاب. الناشر العربي. العدد الثاني. أبريل ١٩٨٥م. ص: ١١٤

٢ ـ شريف جيوشي. نشر وتوزيع الكتاب العربي. اشكالات وحلول. الناشر العربي. العدد الخامس. يوليو ١٩٨٥م. ص: ٦٤
وقد وصف البيان الصادر من ملتقى تونس عن الحريات الديمقراطية بين ١ ـ ٣ نيسان /أبريل ١٩٨٣م. المشكلات العربية الراهنة بأنها نابعة من حالة الانهيار والتفتت في المجالات السياسية والاجتماعية والثقافية.

ويتجاوب مع هذه الصيحة كثير من المثقفين العرب الذين يعترفون أن الثقافة العربية تمر في أزمة شديدة وانحطاط ورداءة.
ومن هؤلاء أحمد عبدالمعطي حجازي الذي يرى أن ثقافتنا تمر بمرحلة من أسوأ مراحل تاريخها، ويعدد بعد ذلك أوجه هذه الأزمة في الآتي:

- انهيار الأسس العقلية والوطنية التي قامت عليها ثقافتنا الحديثة.
- تبرؤ الكثير من تاريخهم وتمزيقهم سير أبطاله شر تمزيق.
- مؤسساتنا الثقافية قلاع الفوضى والبطالة وتبديد المال العام.
- انتاجنا الثقافي تلفيق من أعمال المقربين يظهر في المناسبات، أو تخنيق لأعمال المغضوب عليهم ممن يرفضون المساومة أو يأبون الامتثال.
- اتحادات الأدباء والفنانين ونقاباتهم اقطاعيات وأبعديات تستثمرها القلة وتقاطعها الكثرة. والثقافة في واد والصحافة في واد والتعليم في واد آخر والاعلام في واد رابع والشعب في واد سحيق. ![1]

ولعل أوضح مظاهر هذه الأزمة هو الرنة الخطابية المهولة والمستغرقة في التمجيد والاستعلاء التي ترتفع من أقلام كثيرة تتعرض لدراسة الفكرة العربي في مراحل ضعفه وركوده وجموده، وادعاء أنه لم ينهزم قط على الرغم من القوى والأسلحة والمؤامرات التي تجمعت للقضاء عليه، وأنه استطاع أن يقاوم بقوة وعنف، وأن يكشف عن أصالة وحيوية وقدرة على التطور والتلقي والاقتباس مع الاحتفاظ

---

١ - أحمد عبدالمعطي حجازي. الأهرام ١٩٨٨/٦/١م.

بمعالمه الأصيلة[1] ولعل الأفضل لنا ـ أو من حقنا ـ بعد ذلك أن نسترخي في أحلام فكرية وردية ننسى فيها (زمن الانحطاط العربي المعاصر) و (الزمن الرديء) و (التخلف الفكري والعلمي والسياسي). ونحمد الله على تلك (الأصالة والقوة والحيوية) التي أغرقتنا الى ما فوق الآذان.

وتتعدد آراء المثقفين حول أسباب هذه الأزمة فيرى الدكتور فؤاد زكريا أن الأزمة الثقافية تنشأ عندما تفرض قيود شديدة على حرية التعبير بوجه عام، أو على حرية أصحاب اتجاهات فكرية معينة في التعبير عن أنفسهم، أو أن توكل أمور الثقافة الى أشخاص جهلاء يتعمدون تخريبها أو نشر التفاهة أو ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ومن الواضح أن جزءاً كبيراً من أزمة الثقافة في وطننا العربي وفي معظم بلاد العالم الثالث تنتمي الى النوع الأخير.[2]

ويتفق جمال الغيطاني مع هذا الرأي فيرى أن أزمة الثقافة في النهاية أزمة نظم سياسية مع أزمة حرية لأن كثيراً من النظم العربية تضطهد المبدعين وتريد تحويل الابداع الى مادة للدعاية، ونتيجة لذلك فإن معظم المبدعين الكبار في العالم العربي يعيشون أزمات مع أنظمة حكمهم، وهناك تناقض بين المبدعين على أساس سياسي، بحيث يتم حجب كاتب أو فنان لأن له موقفاً سياسياً معيناً بغض

---

١ ـ أنور الجندي. المرجع المذكور. ص: ١٠

٢ ـ الدكتور فؤاد زكريا. المرجع المذكور. ص: ١٨.

النظر عن موهبته [1]

ورأي الياس خوري لا يبعد كثيراً عن الرأي السابق. فهذه الأزمة كما يراها نابعة أساساً من أزمة الديمقراطية التي تفرض على الثقافة وضعاً مترجرجاً ولا تسمح بأن تتطور انطلاقاً من كونها أسئلة تطرح على الواقع، ففي زمن الأجوبة الجاهزة تصبح الثقافة جواباً، أو يجري حجبها لمصلحة ثقافة الترويج للسلطة. هنا تغيب الثقافة أو تُغيّب.

وأزمة الديمقراطية ترتبط ـ في رأيه ـ بأزمة أكثر عمقاً هي غياب المبنى النقدي في الثقافة العربية فثقافتنا الحديثة لم تحسم العديد من المشكلات التي طرحتها لا مسألة الشرعية حسمت نظرياً بعد كتاب علي عبدالرازق. ولا مسألة اخضاع النص للبحث العلمي المجرد حسمت بعد كتاب طه حسين في الشعر الجاهلي. كل الأمور بقيت معلقة في توفيقية تقوم بعبادة الماضي وتصاب بالدهشة أمام الفكر الغربي.[2]

وهناك بعد آخر نراه عند ادوارد سعيد. ويتمثل في ضعف البنية الثقافية الأساسية والاعتماد على الزاد الثقافي الغربي، فما من باحث عربي أو اسلامي يستطيع المخاطرة بتجاهل ما يحدث في

---

١ ـ القبس. ١٩٨٦/١/٢٤م.

٢ ـ الياس خوري. الكتاب والصحافة. ملاحظات حول علاقة ملتبسة. الناشر العربي. العدد الخامس. يوليو ١٩٨٥م. ص: ٤٤، ٤٥.

المجالات البحثية والمعاهد والجامعات في الولايات المتحدة وأوروبا، غير أن العكس ليس بصحيح. ليس هنا مثلاً مجلة رئيسية واحدة للدراسات العربية تصدر في العالم العربي اليوم، بالضبط كما أنه ليس ثمة مؤسسة تعليمية عربية واحدة قادرة على مضاهاة أماكن مثل: أوكسفورد، وهارفارد، وجامعة كاليفورنيا ـ لوس أنجلوس في دراسة العالم العربي. ودع عنك أي موضوع آخر غير شرقي.

والنتيجة المتوقعة لهذا هي أن الطلاب الشرقيين والأساتذة الشرقيين لايزالون يريدون الحضور الى الولايات المتحدة والجلوس عند أقدام المستشرقين الأمريكيين ثم العودة فيما بعد لتكرار الشعيرات اللغوية التي مافتئتُ أسميها:

مذهبيات جامدة استشراقية ـ على مسامع جمهورهم المحلي. . ونظام اعادة انتاج كهذا يجعل من الحتمي أن يستخدم الباحث الشرقي تدريبه الأمريكي ليشعر بالفوقية على أبناء وطنه، لأنه قادر على تدبر النظام الاستشراقي وفهمه واستخدامه، أما في علاقته بمن هم أسمى منه مكانة ـ المستشرقون الأوروبيون والأمريكيون ـ فإنه سيبقى (المخبر الذي ينتمي الى السكان الأصليين)، وهذا هو بحق دوره في الغرب إذا كان من حسن الحظ بحيث يتاح له البقاء فيه بعد انتهاء تدريبه المتقدم، وهو يرى أن ذلك يتم لأن العالم العربي والاسلامي يبقى قوة من الدرجة الثانية على صعيد انتاج الثقافة والمعرفة والبحث[1].

---

١ ـ إدوارد سعيد. الاستشراق. الطبعة الثانية. مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت: ١٩٨٤م. ص: ٣٢٠.

ويطرح محمد أسد بعداً آخر له أهميته الخاصة، فهو يذهب الى أن ضعف البناء الثقافي عندنا ناتج عن ضعف الأساس الديني، فالعنصر الذي خلق قوة العالم الاسلامي من قبل هو المسئول الآن عن ضعف المسلمين، فإن المجتمع الاسلامي بني منذ أوله على أسس دينية، وضعف هذا الأساس قاد بالضرورة الى ضعف البناء الثقافي فيه، وربما كان سبباً لاضمحلاله بالكلية.[1]

ويمكن أن نضيف الى ما سبق ضعف الاتصال والتواصل الثقافي داخل الوطن العربي من خلال أدوات الاتصال المختلفة حتى أن نسبة المطبوعات المتداولة في أرجاء الوطن العربي لا تكاد تزيد على ١٪ من نسبة المطبوعات المتداولة في البلدان المصنعة، الى جانب قلة عناوين الكتب الصادرة في الوطن العربي وضآلة الدور الذي يلعبه الكتاب في حياتنا الحديثة كأداة لتوفير المعلومات والخبرات ونشر الثقافة، ويمكن أن نجمع الى ذلك ضعف محتوى الكتاب العربي، وعرضه لقضايا هامشية واشكالات مصنوعة يفرغ فيها الطاقة ويستنفد الوسع حتى صار محصوراً في محيط دائرة ضيقة من الاهتمامات السطحية أو الأحاديث المعادة.

إن ضعف المؤسسات الثقافية العربية وتدني السياسات الثقافية المرسومة من جانب، وهزال أدوات الثقافة المختلفة (صحافة ـ اعلام، اذاعة وتلفزيون) من جانب آخر ينعكس بالتخلف على الثقافة العربية ـ وان كانت الثقافة العربية تحاول النهوض المرة بعد

---

١ ـ محمد أسد. المرجع المذكور ص: ١٤

الأخرى فإن ما يقف في وجهها ويوقعها في أزمة حقيقية هو تلك المؤسسات الأجنبية التي تعمل على نشر ثقافة مضادة للثقافة العربية وهذا ما أغفلته جميع الآراء السابقة.

هذه الثقافة المضادة تستغل الأدب والفن والاجتماعيات لتغليف العقل العربي برؤى ضبابية تحجب عنه رؤية الهدف الحيوي الأساسي، وتأخذ به الى ميادين خادعة لا تشرف هازماً أو مهزوماً ان النظر المستشف لأبعاد الثقافة المضادة كما ترد في الأدبيات الاجتماعية والانثروبولوجية الغربية يكشف عن التوجهات الآتية:

أولاً: استغلال وتعزيز الثنائية: ثنائية العلاقة بين الدين والدولة، ثنائية التعامل والعلاقة بين الرجل والمرأة، ثنائية الفكر والسلوك، ثنائية العلاقة والتعامل بين الحضارة العربية وتقاليدها والحضارة الغربية ومستلزماتها الثنائية في العلاقة بين العامية والفصحى وأجهزة الاعلام والمؤسسات التعليمية، الثنائية في الاعتبارات التي تفرضها مقاييس الشرف والرجولة كما تتبناها العشيرة، وكما يتمثلها الانسان المعاصر ويمكن فحص هذا التوجه في حقل الدراسات اللغوية على سبيل المثال في الآراء التي سجلها شوبي عن اللغة العربية: ميل العرب الى المبالغة واختلاف في لغة التفكير عن لغة الحديث.[1]

ثانياً: التأكيد على عدم توافر حضارة عربية، بل مجموعة حضارات

---

1 - E. Shambi. The Influence of the Arabic Language on the Psychology of the Arabs. Middle East Journal Vol. 5, 1951; P. 284.

شرق أوسطية متفرقة وكذلك التأكيد على الاختلاف الحضاري داخل الوطن الواحد، فثمة حضارة شيعية وأخرى مارونية وثالثة درزية في لبنان.. وما شابه ذلك مع اختلاف التسميات في مصر وسوريا والعراق، ويمكن مراجعة هذا التأكيد فيما كتبه روفائيل باتاي في The Arab Mind [1]

ثالثاً: محاولة ابراز المجتمع العربي في صور مجتمع الموازييك تتوزع فيه الاثنيات توزيعاً قائماً على احتراف عملي متوارث من تجارة متخصصة أو نحو آخر على مستوى آخر، أو تجارة ذات طابع خاص أو ممارسة طقوس دينية معينة وان هذا المجتمع لا يستطيع الصمود أمام الهزات، ان التجمعات تلتف حول نفسها وتعود الى أصولها الأولى عند حدوث تلك الهزات كما حدث في نزح اليهود اليمانيين الى الأرض المحتلة. !! ويمكن النظر الى هذا التحليل في الدراسات التي كتبها البروفيسور (كون) في مؤلفه الذي يحمل عنوان (قافلة) Caravan [2]!

رابعاً: محاولة التأكيد على الاعتراف بإسرائيل واقعاً ثابتاً لا يمكن نكرانه وأن التآلف معها عملية لابد منها. وقد لا يأتي هذا التأكيد عن طريق مباشر بل باتباع أسلوب التحويل، وذلك بمحاولة الابتعاد عن الثقافة الحقيقية التي تتناول أبعاد الصراع العربي الصهيوني الى

---

1 M. Patai- The Arab Mind. (Charles Scrileniri Sans. N.Y. 1973.

2 - Carleton S. Coon. Caravan. The Story of the Middle East. Rev. E.D. Rinehort and Winston N.Y. 1985.

الاستعمار الثقافي الجديد

إن الوسائل والأساليب الجهنمية التي اعتمدها الغرب في حربه الثقافية ضد العالم العربي وبلدان العالم الثالث عموماً بلغت درجة عظيمة في السيطرة على الثقافات المختلفة واحكام النفوذ بحيث أغنت العالم الغربي عن الأساليب القديمة التي اتبعها في الاحتلال المباشر

إن الدول التي تنتمي الى العالم الثالث. ومنها الوطن العربي - تعاني من التبعية الثقافية - المفروضة عليها فرضاً تبعاً لديناميكيات العلاقة بينهاوبين الغرب، فالدول الكبرى تستغل حاجة وضعف دول العالم الثالث في املاء الشروط وتصدير النماذج وتقديم النصائح والمعونات، وما على دول المجاعة الثقافية الاّ أن تستهلك وتستمر في الاعتماد على الفضل الغربي دون قدرة أو تفكير في الاستقلال الثقافي.

ولا تتورع الدول الكبرى اليوم عن استثمار كل الفرص التي تتيحها علاقتها المتفوقة بالعالم الثالث، حتى الصيغ القانونية المشروعة في ايصال أفكارها، فهي تستثمر الاتفاقيات والعقود والشركات والمراكز الثقافية، ومراكز البحوث والمعلومات في الجامعات

---

١ - زكي الحابر. الثقافة العربية في معركتها ضد الاغتراب. الناشر العربي. العدد الأول يونيو ١٩٨٣م. ص: ٦٥ - ٦٦

وخارجها، اضافة الى حضورها الفاعل في المؤتمرات والمحافل والندوات الدولية في كل المجالات.

ومازال الاستعمار الثقافي يعتمد على كثير من الركائز الفكرية والمؤسسات الثقافية والتعليم التي اعتمد عليها من قبل في ادارة صراعه الثقافي مع العالم العربي، ولكن أكثر هذه الوسائل والواجهات الثقافية تطور كثيرا ليصبح أكثر قدرة وعنفاً. والى جانب ذلك استحدث الاستعمار عدداً من الوسائل والأساليب مستفيداً من امكاناته المادية والتقنية الهائلة.

فمازالت الخريطة العربية يتوزع عليها كثير من المؤسسات التي أنشئت لتلعب دوراً ثقافياً كبيراً أو صغيراً مثل: المعهد الشرقي بدير الدومينيكان والمعهد الفرنسي وندوة الكتاب ودار السلام والجامعة الأمريكية، ومعهد جوته، والمركز الثقافي الإسرائيلي والمركز الثقافي الأمريكي، والمركز الثقافي الروسي، والمجلس الثقافي البريطاني. هذا في مصر وهكذا في كل قطر عربي.

التبشيـــر:

والى الآن. تنتشر الإرساليات التبشيرية ومدارسها في العالم العربي وتأخذ وجهاً بريئاً لتعمل من تحت حجاب على التأثير على الأطفال والمراهقين المسلمين والأقباط كذلك.

إن للإرساليات التبشيرية تأثيرها غير المنكورعلى العالم العربي

والاسلامي في نشر الأفكار الغربية، والعمل على هدم الذاتية الثقافية العربية وتذويب معالم ومقومات الشخصية العربية المستمدة من تعاليم الاسلام.

إن عديداً من هذه الجماعات التبشيرية تصل الى درجة متطرفة في نشر أفكارها ومن هؤلاء طائفة «أبناء الله» الأمريكية التي أرسلت مبعوثيها الى مصر للتبشير. وفي بداية أكتوبر ١٩٨٥م اعتقلت الشرطة المصريةعدداً من هؤلاء بينهم فرنسيون، بعد توزيعهم لمنشورات طائفة «أبناء الله» التي تعتنق ممارسات تتناقض مع التقاليد الثقافية والدينية للمجتمع المصري.[١]

وتظهر في قلب القاهرة ـ حيناً بعد حين ـ منظمات تنصيرية تمارس نشاطها ضد الاسلام ومهمتها غسل مخ أطفال مصر، ومنها منظمة (بلان انترناشيونال إيجيبت) وهي فرع لمنظمة تدعى (فوستر بيزنس بلان انترناشيونال).[٢]

التعليـــم:

النظام التعليمي العربي السائد اليوم في الوطن العربي غربي

---

١ ـ ورد ذلك في برقية وكالة الأنباء الفرنسية يوم الجمعة ١٨ أكتوبر ١٩٨٥م. عن حازم هاشم. المؤامرة الاسرائيلية على العقل المصري. دار المستقبل العربي. القاهرة: ١٩٨٦م. ص: ٢٤٧.

٢ ـ صحيفة الأحرار ١٩٨٦/٥/٥م. عن الدكتور خالد نعيم. تاريخ جمعية مقاومة التنصير المصرية. المختار الاسلامي. القاهرة: ص: ٥.

الشكل والتنظيم في مستوياته الدنيا والعليا، أما بالنسبة للمضمون فهناك صراع حقيقي بين المخلصين من القائمين عليه، والقوى الاستعمارية المتسلطة التي تحاول التسلل واحتواء النظام التعليمي، وتمارس في ذلك ضغوطها على النظم السياسية.

ان كثيراً من المحاولات أجريت لفرض مقررات دراسية تخدم في النهاية أهداف الاستعمار، ويمكن أن نقول ان بعض هذه المحاولات لاقت نجاحاً كبيراً. ومن ذلك مادة التربية السكانية التي ترفدها المعونة الأمريكية بملايين الدولارات لتوجهها كما تريد.

ان برامج المعونة الأمريكية التي تخص التعليم تمثل خطراً عظيماً عليه، فالمعونة لا تخدم الاّ معطيها ولا تحقق في النهاية الاّ أغراض مانحيها، ولا تمثل تقدماً للتعليم بقدر ما تمثل تعويقاً لأهدافه الوطنية، ان بعض المعونات العينية كانت فرضاً صريحاً للقيم والأفكار الغربية، ومحاربة للقيم والأفكار العربية، ولعل الخطر يتضح اذا ضربنا مثالاً بالخرائط التي وردت في المعونة الأمريكية ومنعتها بعض الدول العربية ولكنها تسللت الى دول عربية أخرى ليدرس عليها النشء العربي، خريطة اسرائيل.. هذا الواقع الذي يجب أن يعجز الجميع عن مجرد الحلم بتغييره. !!

وكثير من البحوث المشتركة التي أجريت على النظام التعليمي العربي تحولت الى ملفات تصب في أضابير الاستخبارات الأمريكية وغير الأمريكية.

وتمثل المدارس الأجنبية وحدها عنصر شقاق ثقافي قوي، لأن الكثير منها تنشىء طلابها على ثقافات أجنبية متنوعة وتقطع كثيراً من روابط الاتصال بثقافتهم الأم. وفي فرنسا يدرس الطلاب الفرنسيون في أحد كتبهم المقررة من وزارة التربية الفرنسية أن هؤلاء الرجال الذين يحملون اسم «محمد» هم مجانين. !! وأن كل ١٥ أو ٢٠ فرداً منهم يقيمون في غرفة واحدة استأجرها «محمد» آخر أكثر خبثاً منهم. ، وقد ذكرت احدى الصحف الكويتية في عددها الصادر بتاريخ ١٩٨١/٤/٢م أن هذا الكتاب يدرس في بعض المدارس الأجنبية في الكويت وفيها بعض أبناء المسلمين. !![1]

والطريقة التي تجري عليها معالجة الأدب الأوروبي وتدريسه في معاهدنا العلمية ـ في رأي عالم غربي مستعرب ـ تدور مع الهوى وتغرق العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال، اغراقاً لا حد له في تشرب روح المدنية الغربية بثقة عمياء واندفاع كبير، قبل أن يتاح لها أن تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية. وهكذا لا تكون الطريق معبدة لحب ذلك الأدب حباً عذرياً فقط، ولكن لتساعد على التقليد الأعمى لتلك المدنية الغربية التي لا يمكن أن تتفق وروح الاسلام، ان الدور الحاضر الذي يقوم به الأدب الأوروبي في المدارس الاسلامية يجب أن نستبدل به تدريساً عاملاً بصيراً للأدب الاسلامي يتأثر منه الطالب بسعة الثقافة الاسلامية وغناها وهكذا

---

١ فؤاد بن سيد عبدالرحمن الرفاعي. النفوذ اليهودي في الأجهزة الاعلامية والمؤسسات الدولية ص: ٦١ ـ ٦٢

يشبع في نفسه أمل من جديد بحسن مستقبلها.[1]

وعن خطورة هذه التنشئة الغربية لاحداث المسلمين، يرى هذا المستعرب أنها ستفضي حتماً الى زعزعة ارادتهم في أن يعتقدوا أو أن ينظروا الى أنفسهم على انهم هم ممثلو الحضارة الالهية الخاصة التي جاء بها الاسلام، وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين «المتنورين» الذين نشأوا على أسس غربية تلك التنشئة القائمة في مجموعها على التجارب الثقافية الأوروبية وعلى مقتضياتها.[2]

ان روح التعليم ينبغي أن يصلح وأن يصاغ صوغاً جديداً يلائم عقائد الأمة ومقومات حياتها وأهدافها وحاجاتها، ويخرج من جميع موارده روح المادية والتمرد على الله، والثورة على القيم الأخلاقية والروحية، وعبادة الجسم والمادة، وينفخ فيه روح التقوى والانابة الى الله وتقدير الآخرة والعطف على الانسانية كلها، فمن اللغة والآداب الى الفلسفة وعلم النفس، ومن العلوم العمرانية الى علوم الاقتصاد والسياسة والاجتماع لا تسيطر على كل ذلك إلاَّ روح واحدة، ويقصي استيلاء الغرب العقلي، ويكفر بأمامته وسيادته، ونجعل علومه ونظرياته موضع الفحص والدراسة الجريئة، نأخذ منه ما يوافق حاجاتنا ورغباتنا وعقيدتنا وثقافتنا.[3]

---

١ ـ محمد أسد. المرجع المذكور ص: ٧٤

٢ ـ المرجع السابق. ص: ٦٧ ـ ٦٨.

٣ ـ أبوالحسن الندوي. التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية. المختار الاسلامي.

الجامعـــات:

يحاول الاستعمار الجديد بكل امكاناته السيطرة على الجامعات في بلدان العالم العربي، ويعمل على أن تظل تابعة له ولتوجيهاته، فبالاضافة الى الجامعات التي أنشأها في الوطن العربي والمعاهد المختلفة التي تتبعه مباشرة ويشرف عليها ويقدم لها الدعم والعون وتحمل اسمه، هناك المحاولات الدائبة لاختراق الجامعات الوطنية سواء أكان ذلك باستقطاب النخبة من الأكاديميين أصحاب النفوذ في الجامعة، أم تقديم المنح والمساعدات للكليات المختلفة، أو عن طريق الأساتذة الأجانب، وما يقومون به من دو خطير في نطاق الجامعة.

والى جانب ذلك فإن الواقع يدل على أن النظام الجامعي في شكله وموضوعه غربي اللحمة والسداة في كثير من قطاعاته، ان العلوم الانسانية كما نشأت ووضعت لها المناهج في الغرب، هي العلوم التي تدرس في جامعاتنا، كما أن علماءنا في الجامعات انساقوا في تيارها الخطر، فلكل مدرسة من مدارس علم الاجتماع كليات أو أقسام في كليات عربية تدرسها وتدرس مبادئها وتروج لها وتعتز بالانتساب اليها.

فمثلاً المدرسة الاجتماعية الفرنسية تقتصر بعض الكليات على دراستها دون غيرها من المدارس، وهذه المدرسة تلح على الغاء كل دور المصلحين في التقدم البشري، وترجع كل المجتمعات الى ما أسموه العقل الجمعي، وتلغي كل أثر للأنبياء، وتجازف المدرسة على

لسان دوركايم في كتابه (قواعد المنهج في علم الاجتماع) بأن الجريمة والانحرافات هي أمور سوية وليست خاضعة لأي تقويم بالحسن أو بالسوء، ويقول الدكتور محمود قاسم مترجم الكتاب في أحد تعليقاته عليه: فمن ذلك أنه يرى أن الجريمة ليست ظاهرة معتلة أي شاذة بل هي ظاهرة سليمة لأنها توجد في جميع الأنواع الاجتماعية مهما اختلفت أشكالها وصورها، ويقول دوركايم في ذلك: وسنطلق اسم الظواهر السليمة على تلك الظواهر التي تتشكل بصور يعم وجودها المجتمع، وسنطلق على الظواهر النادرة اسم الظواهر المرضية أو المعتلة، فعنده اذن قوم لوط وقوم شعيب أسوياء، أما لوط وشعيب فهما ظاهرتان معتلتان ويقول: ومن ثم تكاد الجريمة أن تكون الظاهرة الوحيدة التي تنطوي بصيغة لا تقبل الشك على جميع أعراض الظاهرة السلبية.

وهناك فلسفة التاريخ والجدلية المادية في تفسيره، وبلغ من جرأة التابعين لها أن يحاولوا دس التفسير المادي للتاريخ على القرآن الكريم[1] وهناك بعد ذلك نظريات داروين وفرويد وغيرها من النظريات المنحرفة في منظور ديننا وقيمنا الشرقية. فلاتزال نظرية النشوء والارتقاء الداروينية تدرس في مدارسنا على أنها علم مقدس على الرغم من تخلفها وتجاوزها عند أصحابها أنفسهم، ومصادمتها للعقائد الدينية الثابتة، وقد امتد استخدامها الى جميع الميادين الانسانية على الرغم من أنها خاصة بالحياة العضوية، فاستخدمت في دراسة الحضارات والأدب والفنون وحركة المجتمع.

---

١ ـ راجع محمد أحمد بدوي. المرجع المذكور. ص: ٤٧.

ونظرية فرويد في التحليل النفسي على الرغم من كونها مجموعة من الفروض النظرية التي تعتمد على تفسيرات وهمية تصادم القيم والأخلاق السائدة في المجتمعات العربية الاّ أن المحللين النفسيين عندنا يعالجون مرضاهم استناداً اليها، ويعملون على نشر فلسفتها بين طلاب المدارس والمعاهد العلمية.

وهناك بعد ذلك عديد من النظريات في التاريخ والاجتماع والنفس والتربية والاقتصاد والسياسية والأنثروبولوجيا والأخلاق والجمال والفن. وغيرها. لا تلتقي مع معطيات الحضارة العربية وثقافتها، وعلى العرب أن يجتهدوا لتنقية مدارسهم ومعاهدهم العلمية وحياتهم من طوفان النظريات والأفكار والمذاهب التي لا تتوافق مع ثقافتهم العربية الاسلامية.

وعن محاولات اختراق الجامعة نستشهد بقول الدكتورة بنت الشاطىء وهي احدى الأكاديميات:

(لم ينقض لي عجب وأنا أرى كلية الآداب دون غيرها من الكليات تستأثر بكل هذا الاهتمام من الدول ذات النفوذ الاستعماري مع أن الكلية كانت في حساب قومي أقل الكليات أهمية وأهونها شأناً، ثم هيأ الله لي من كشف اللغز المحير!!.

فهذه الكلية بالذات هي التي تتولى دراسة وجدان الأمة ومزاج الشعب وتكشف عن عناصر شخصيته ومقومات وجوده بما تقوم به من دراسة للغة الأمة وآدابها وتاريخهاوفلسفتها، ثم هي التي تتولى في الوقت نفسه فتح النوافذ الغربية أمام عقول الشباب بما تدرس من

آداب أجنبية قديمة وحديثة وبما تختار من تيارات الفكر الغربي ومذاهبه، فأي عجب في أن تتصارع الدول الأجنبية على مناطق النفوذ فيها وأن يعدوها مركزاً للغزو الفكري والتأثير الوجداني. والدراسة في الكليات الأخرى علمية موضوعية لا مجال فيها لتسلل الغزو ولا فرصة فيها لتشويه أو تحريف وأدركت قيمة الكنز الذي نملكه من تراث المعرفة والذي طالما أغرانا مغرون بالصد عنه والزهد فيه وألحوا علينا في اهماله ونبذه في الوقت الذي كانت دوائر الاستشراق تحرص أشد الحرص على جمعه وتعكف في شبه رهبنة على درسه ووعيه.

اذ اشتغلنا نحن العرب بتراثنا اتهمنا بالرجعيين. ووصمنا بالتأخر وشبهنا بالهياكل الحفرية، واذا اشتغل به أمثال: (جب، ومرجليوث، وماسنيون) يعتز بهم العرب.

هل نتوقع أن نصبح ونمسي فإذا شيوخنا الذين يدرسون لنا القرآن والحديث وتاريخ الاسلام قد استبدل بهم خواجات من الغرب. يهتم المهتمون منا بدراسة تاريخ الاسلام فيقال أننا نصر على أن يظل الشرق العربي في مكانه الاستراتيجي بمقابر الأنبياء. وأما اذا عشنا في أساطير اليونان مع زيوس وباخوس وديانا ومالا أدري من آلهة خرافية فنحن ذوو ثقافة عصرية تستحق منا جائزة الدولة.[1]

---

١ ـ عن أنور الجندي. الصحافة والأقلام المسمومة ص: ٢٥١، ١٥٢

أمثلة للقيم الثقافية الغربية التي غزت الثقافة العربية:

إن ما تفرزه وتولده المجتمعات الرأسمالية الاستهلاكية ليس فقط المدارس والاتجاهات والتيارات والنتاجات الثقافية الفكرية السلبية (أو التي لا تصلح لمجتمعاتنا نحن) بل وتنتج أيضاً ميولاً وعادات وعقليات مريضة وفتاكة وملوثة كاللامبالاة تجاه الانسان، والجفاف في العلاقات الانسانية، وتفسخ الروابط العائلية أو العنف الاجرامي، والعنصرية وحالات الضياع واليأس والانحلال.[1]

وكمثال واضح للأفكار الغربية التي غزت وطننا العربي والعالم الاسلامي قاطبة ذلك الروح المادي الذي سرى في العقول وشمل مناحي الحياة، وجعل النغمة الغربية تتردد بصورة قوية عن ضرورة الوصول الى الرقي المادي والقوة والرفاهية باعتبار ذلك الهدف والغاية من الحياة والسعي فيها، وتلك النغمة التي سادت في الأفواه وترددت في العقول تغفل في حقيقة الأمر هدف الحياة وغايتها ومعيار التقدم والرقي، ويبدو ذلك واضحاً في السلوك الغربي حيث أن الأوروبي العادي سواء أكان ديمقراطياً أم فاشياً أم رأسمالياً أم بلشفياً. صانعاً أم مفكراً. يعرف ديناً ايجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأنه ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج طليق من ظلم الطبيعة.

---

١ ـ ماهر الكيالي: الرد على الاتجاهات المعادية في المجالات الفكرية والثقافية الناشر العربي. العدد الأول. ص: ١٣٢

إن هياكل هذه الديانة انما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيميائية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال الطيران، وان النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بخلق جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح ومصممة على أن يفني بعضها بعضاً حينما تتصادم مصالحها المتقابلة، أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر انما هو التقدم المادي.[1]

ومن القيم الثقافية التي غزتنا أيضاً: الاعتقاد بهامشية شأن الدين في توجيه الحياة وحصره في نطاق من الرسوم والأشكال دون نظر الى حقيقته وجوهره التي هي قيادة للحياة بأقوم سبيل.

ومن هذه القيم الغربية التي احتلت مركزاً كبيراً في عقولنا وقلوبنا تمجيد التراب وتقديس الأرض في الوقت الذي تهمل فيه القيم الخلقية والتربية الصالحة للمواطن والاصلاح الاجتماعي السوي.

ومن هذه القيم أيضاً انتشار النزعة الفردية والتي تحدد للفرد منظوره في الحياة بأن يحقق لنفسه أقصى قدر من النمو المادي والتقدم العملي، ويقف طموحه عند ذلك فيجعل من الوسيلة غاية ومن الحياة

---

١ ـ الكاتب الأوروبي. محمد أسد. المرجع المذكور ص: ٤٧، ٤٨.

أنانية وصراعاً مريراً على أشيائها، وجعله هذا يفقد الشعور بالمسئولية الذاتية التي كانت حكمه نحو مجتمعه وأمته والعالم والتي كانت مدداً زخماً من قيم ثقافته الأصيلة.

ومن ذلك حالة الانفصال التي أحسها الفرد العربي عن واقعه والتي كان من نتيجتها المنطقية أن وقع في مطب الحرمان الكامل من كل محتوى حقيقي، وأصبح مجرد فرد أو ذات مجردة، وفي مثل هذا الواقع العجيب القائم على استلاب المواطن العربي هبت ثقافات وأفكار وظهر نوع من أدب التجريد وأدب اللامعقول الذي يعكس محنة الانسان في المجتمع الغربي الصناعي والذي أعطى صورة حية لغربة المواطن الأوروبي النفسة والفكرية في ظل نظام تجريد الانسان من كل ماهو انساني.

هذا النوع من الأدب وبكل أسف سيطر الى حد كبير على نماذج كثيرة مثقفة عندنا حتى أن بعضهم مازال حتى اللحظة يتعامل بهذا النوع من الأدب في حين أنه يدعى انتماءه فكرياً الى المنهج الواقعي في التعامل مع الأشياء، وهم اما أنهم لا يدركون ما يفعلون وهذا افتراض مسبق لحسن النية طبعاً واما أنه تخطيط ثقافي مسبق، والهدف من هذا الأدب بالطبع والذي كرسته مؤسسة فرانكلين ومجلة حوار في العاصمة اللبنانية هو ايهام الفرد العربي بعدم جدوى أي تساؤل انساني هادف!!

لقد تأثر جيل الستينيات الأدبي عندنا بهذا النوع حتى أن نتاجهم بات تقليداً أعمى لكل مسارات الأدب بحجة المعاناة

واستخدام الجديد الثقافي دون ادراك لما يفعلون.[1]

ومن طريق آخر فقد تأثرت اللغة السياسة العربية المعاصرة بالثقافة العلمانية الغربية حيث هجرت بعض الألفاظ الأصيلة التي لها دلالتها المرتبطة بالتراث كألفاظ الشورى، الحسبة، الخلافة، الامامة. أهل الحل والعقد. وغيرها.. وذلك في مقابل شيوع ألفاظ أخرى تستخدم كترجمة لمرادفاتها المقتبسة من لغات أخرى، كالمعارضة مثلاً ترجمة للفظة Opposition والصفوة والنخبة ترجمة للفظة Elite أو غيرها من ألفاظ تعرب مثل البرلمان والديمقراطية، وما الى ذلك.

ومن التعبيرات الماكرة التي شاعت تعبير الشرق الأوسط وهو من تعبيرات الغزو الفكري، ويراد به ايجاد مكان لإسرائيل في المنطقة لا يثير الاستنكار، فلو وصفت المنطقة بأنها منطقة اسلامية فكيف توجد فيها اسرائيل، ولو وصفت بأنها عربية، فكيف توجد فيها اسرائيل!؟ أما حين تصبح منطقة (جغرافية) لا صفة لها ولا انتماء فإن وجود اسرائيل فيها يصبح أمراً لا يثير الاستنكار.[2]

وللحق فإن محاولة فرض ألفاظ ثقافات ولغات أخرى على واقع مجتمعنا تصطدم مع الآثار الموجودة أو المختزنة من التراث ويكون

---

١ ـ صدر الدين الماغوط. بحثاً عن الجوهر في الثقافة العربية المعاصرة. الرأي. ١٩٧٧/٨/٢٨م.

٢ ـ محمد قطب. واقعنا المعاصر الطبعة الأولى. مؤسسة المدينة للصحافة والطباعة والنشر جده: ١٩٨٧م. ص: ٣٥٣.

الصراع بين الوافد والموروث من أكبر التحديات التي يواجهها المشتغل بالعلوم السياسية إذا كرس نفسه للعمل في عملية احياء التعرف على التراث والتفاعل معه، واستخدامه في مجال العلوم السياسة.[1]

ومن هذا التغلغل للمنهج الغربي الاعتماد في الدراسات عندنا على معطيات الفكر الغربي والقصور في الأخذ من التراث مما يشكل تحاملاً على التراث واهمالاً لقيمه وفي الوقت ذاته اعلاء لقيم الثقافة الغربية ومعطياتها مما يوقع المثقف العربي في اشكالية الازدواج الفكري والتوزع في الانتماء.

ويمكن أن نضرب مثالاً بيناً لذلك بالمقولة التي تطرح كحقيقة تاريخية لا لبس فيها عند التاريخ لبداية النهضة الحديثة في الوطن العربي، وهي أن النهوض الحضاري العربي في العصر الحديث يبدأ بدخول الحملة الفرنسية على مصر، وذلك بما أحدثته من احتكاك العقل العربي بالعقل الأوروبي وبما اصطحبت من علماء في التخصصات المختلفة ويجملون القول بأن الحملة أتت بثمارها الطيبة في حركة الاحياء العربي وقد لاقت هذه المقولة ومازالت تلاقي رواجاً على أقلام كثير من المفكرين العرب حتى استقرت في الأذهان حقيقة من حقائق التاريخ.

---

١ ـ الدكتورة نيفين عبدالخالق مصطفى. اشكالية التراث والعلوم والسياسة. المسلم المعاصر العدد ٤٣ السنة الحادية عشرة. ١٤٠٥هـ. ص: ٧٥ ـ ٧٦.

والذي يشهد به التاريخ أن الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م مكثت في مصر ثلاثة أعوام في عزلة عن الشعب المصري الذي حاولت أن تسترضيه، وقام ضدها عدد من الثورات باعدت بينها وبين الشعب أمداً بعيداً. وانما كان النهوض الحقيقي والتفتح العربي قبل ذلك بكثير

ويرى بعض الباحثين العرب أن مصدر اليقظة العربية الحديثة هو حركة الامام محمد بن عبدالوهاب وليس الحملة الفرنسية، لأن هذه الحركة كانت دعوة الى التحرر من التقليد والجمود في الفكر والاستبداد في السياسة عن طريق تحرير الفكر العربي الاسلامي من الزيوف التي دخلت اليه خلال فترة الضعف التي مر بها.[1]

ويذهب بعض آخر الى أن النهوض الحقيقي والتفتح العربي على يد محمد علي الذي اتخذ اجراءات رسمية للنقل الثقافي عن الغرب فأنشأ المدارس وأرسل البعوث واستقدم الخبرات الأجنبية ونظم شئون الدولة. وان هذه النهضة الشاملة التي أحدثها محمد علي لاقت تخوف الغرب فقد رأى في القوة الفتية العربية تهديداً لمصالحه ونفوذه الاستعماري في الشرق فأجمع أمره على وأدها في المهد!! ولعله يمكن توجيه الكثير من النقد الى الطريقة التي سار بها محمد علي في تحديث البلاد أو الأهداف المحدودة التي كان يرمي اليها الاّ أننا لا يمكن أن ننكر دوره في اليقظة العربية.

---

١ ـ أنور الجندي. تاريخ الغزو الفكري والتغريب. ص: ٧ ، ٩.

ويميل الباحث هنا الى ما يقدمه بعض الدارسين[1]: ان البداية الحقيقية للنهضة العربية تعود الى بداية القرن الثامن عشر ١٧٠٦م عندما ظهرت أول مطبعة عربية بالمشرق. حيث يعتبرها بعض الباحثين الشرارة التي تولد عنها الحركة الاصلاحية في العالم العربي الاسلامي، وذلك قبل الحملة الفرنسية على مصر التي يزعم كثير من الدارسين أنها تمثل بداية النهضة العربية الحديثة، وقد أثارت قضية الاعتمادعلى المطبعة صراعاً تاريخياً تمخض عنه تياران: أحدهما معارض محافظ والآخر تجديدي اصلاحي، وكان هذا الصراع بمثابة الخلفية الفكرية للصراع الحضاري بين أنصار القديم والجديد في العالم العربي.

ويمكننا القول أن هذه العوامل الأربعة قد لعب كل منها دوراً في اليقظة العربية صغيراً أو كبيراً. وفي البداية كانت المطبعة ١٧٠٦م فأحدثت حركة نشطة في الترجمة والتأليف وتحقيق ونشر التراث، ثم كانت الحركة الوهابية التي عبرت ١٧٥٧م عن حركة مد فكري نحو التفتح والاستقلال، ثم أتت الحملة الفرنسية فكانت تحدياً كبيراً للعقل العربي والارادة العربية، وبعد ذلك أتى محمد علي فقام بمشروعه الحضاري الكبير.

---

١ ـ الدكتور وحيد قدوره. ومحمد رضا الكافي. تحديد جديد لبداية عصر النهضة العربية. بداية الطباعة العربية في القرن الثامن عشر ١٧٠٦ الناشر العربي. العدد الخامس. يوليو ٨٥. ص: ١٦٢

الحرب الثقافية الأمريكية

ان اشكالية الغزو الثقافي ليست خاصة بالوطن العربي وحده، ولكنها اشكالية العالم الثالث كله، بل انها فوق ذلك مشكلة أوروبا في مواجهة الغزو الثقافي الأمريكي لها، على الرغم من أن أوروبا تفوق أمريكا في انتاج الكتب مثلاً الاّ أن أمريكا تعتمد في غزوها على الامكانات المادية والتقنية والعسكرية الهائلة التي تمتلكها بالاضافة الى المراكز الفكرية والثقافية والاقتصادية والسياسية في أنحاء المعمورة.

ان أخطار الغزو الثقافي الأمريكي بالنسبة للمجتمعات الأوروبية صارت أمراً داهماً وواقعاً على الرغم من التفاوت القوي بين هذه المجتمعات من الناحية الثقافية والإيديولوجية. ولكن أخطار الغزو الثقافي الأمريكي للعالم العربي عديدة ومتنوعة وتتخذ صوراً وأشكالاً شتى وتعتمد على أدوات ومنافذ كثيرة.

ولعل الشاهد القوي على ذلك ما وقع في المؤتمر العالمي للسياسات الثقافية الذي عقد بالمكسيك[1] حيث شن وزير الثقافة الفرنسية هجومه على السياسة الثقافية الاعلامية الأمريكية، وأنهاتريد فرض سيطرتها على الثقافة والاعلام في العالم وحدد في هجومه النقاط التالية:

أ ـ ان أمريكا فضلاً عن استعمارها الدولي مالياً فإنها تسيطر أيضاً على

---

١ ـ في ٢٦ يوليو ١٩٨٢م. برعاية اليونسكو. عن مجلة العربي. العدد ٢٩ ديسمبر ١٩٨٢م. عن بشير الهاشمي. المرجع المذكور. ص: ١٤

وسائل الاعلام الجماهيري في العالم، واننا في خطر أن نصبح كالشاطر والمشطور في أشداق مؤسسات تبسط ظلهاعلى العالم بأسره.

ب ـ ان السيطرة الأمريكية على وسائل الاعلام الدولي تشجع تدمير الثقافات وخاصة ثقافات الشعوب الصغيرة.

جـ ـ وان قبضة أمريكا على الاقتصاد العالمي ستؤدي الى السيطرة على أذهان الناس اذا سمح لها بالمضي فيماهي في سبيله.

د ـ ان الولايات المتحدة تغرق العالم بخاصيتها الثقافية فتسبب في نشوء تضخم دولي.

وشاركته وزيرة الثقافة اليونانية في الهجوم والتأييد لوجهة نظره بقولها انها تشعر بالانزعاج لسيطرة الولايات المتحدة في الميادين الثقافية في العالم. اننا نتعرض للغزو عن طريق السراويل الضيقة الزرقاء والأفلام والموسيقي.

واذا كان أحد المندوبين الأمريكيين قد رد بخبث حول هذه النقاط بقوله:

لا تصغوا للأنباء الكاذبة. ان فرنسا تعمل أيضاًعلى تصدير ثقافتها وتفعل كذلك دول عديدة أخرى.

ولكن الكاتب الفرنسي «بيير بيرار» يقول في مقالة له بعنوان (تلك الثقافات التي تُغتال: ان انجلترا وفرنسا اللتين كانتا مركز المذابح الثقافية الاستعمارية، تتساءلان اليوم عما اذا وقعتا هما نفسيهما ضحية لعدوان جديد يحمل صفة الذبح الثنائي الذي يمكن أن

نختصره في كلمة واحدة هي «الأمركة» Amaricanation على حين يقول الكاتب (جاك تيبو) ان فرنسا هي الآن بلد قيد الاستعمار، فطريقة الحياة الأمريكية قد بلغت الى أعماق المجتمع الفرنسي بالذات الى عقله وحساسيته وفكره.

بل ان الخطر يزداد بما تنبأ به ميشيل جوبير وزير خارجة فرنسا الأسبق في كتاب له صدر بأن أوروبا اذا استمرت في فقدانها الراهن لهويتها وفي عجزها الحالي عن تحديد نفسها بنفسها، فلن تكون في المستقبل القريب الاّ مستعمرة أمريكية.[1]

وكان فيلب كومز وهو أول من شغل مساعد وزير للشئون الثقافية والتربوية أول من صاغ نظرية «البعد الرابع» فإلى جانب الأنماط الثلاثة من النشاط الدولي التقليدية الدبلوماسي والعسكري والاقتصادي، فإن الحكومة الاتحادية الأمريكية تضيف بعداً رابعاً هو بعد العلاقات الثقافية.[2]

ويذهب كارل روان سفير الولايات المتحدة ثم مدير الوكالة الأمريكية U.S.L.A. الى صراحية أبعد فيقول: اننا بنشر ثقافة الولايات المتحدة نساعد على تحقيق أهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة فليس لنا مهمة أخرى.[3]

---

١ ـ كتاب «لتحيا أوروبا الحرة». منشورات رامي. باريس ١٩٨٤م. نشر بمجلة الوحدة. العدد الثالث. ديسمبر ١٩٨٤م. جميل طراد. الغزو الثقافي الأمريكي لأوروبا والعالم الثالث. عن حازم هاشم. المرجع المذكور. ص: ١٠

(٢،٣) المرجع السابق. ص: ١٣

ويمثل التلقي العشوائي والاستيراد الآلي في مجال الثقافة تحفظاً واعتراضاً يثيرهما الكتاب الفرنسيون بالنسبة للتعامل الثقافي الأوروبي مع الولايات المتحدة، فهنري جوريار مؤلف الحرب الثقافية La Guerre Culturelle وجاك تيبو مؤلف كتاب (فرنسا المستعمرة) La France Colonisec يستخدم تعبير المطرقة الثقافية الأمريكية التي ما فتئت تضرب وتدق منذ ١٩٤٥م حتى تحقق مايراه استسلاماً فرنسياً وأوروبياً ثقافياً يتجلى في كل ميدان. وباسم «الجديد». الجديد دائماً يتم استيراد آخر التقليعات الثقافية الأمريكية في هذيان موسيقى صاخب وبرامج تلفزيونية مصنعة تصنيعاً لإدخالها في أي برنامج تلفزيوني في أي بلد من بلدان العالم وفي كل يوم يرمى القديم في المزبلة ليحل محله «الجديد» المربح تجارياً للأمريكان والمفسد للذوق والشعور.[1]

وتزداد محاولات أمريكا الدائبة للسيطرة على ثقافات العالم الثالث، واحتوائها واخضاعها لصالح السوق الرأسمالي العالمي، ويساندها في تحقيق ذلك قدراتها الاقتصادية الضخمة ونفوذها السياسي الجبار وامكاناتها الهائلة في مجال الاعلام متمثلاً في وكالات الأنباء والأقمار الصناعية وتكنولوجيا الاتصال بالاضافة الى الشركات المتعددة الجنسية ووكالات الاعلان الدولية التي تجعل من وسائل الاعلام أدوات لتحقيق مصالحها وسوقاً لترويج منتجاتها الاعلامية بما تحمله من قيم ثقافية غربية مناوئه.

---

١ - عن ماهر الكيالي. المرجع المذكور ص: ١٣٢

ويوضح هربرت شيللر أفكاره حول الاستعمار الاعلامي فيقول: (انه جهد منظم وواع تقوم به الولايات المتحدة من خلال تنظيماتها الاقتصادية والعسكرية والاعلامية من أجل الحفاظ على تفوقها الاقتصادي والسياسي والعسكري ويرى أن وسائل الاعلام هي امتداد للامبراطورية الأمريكية التي بدأت تنتشر عالمياً بعد الحرب العالمية الثانية حيث وجدت مجالاً مفتوحاً في الدول الحديثة الاستقلال في العالم الثالث، ويستشهد على السيطرة الثقافية الأمريكية بالبرامج التلفزيونية التي غزت بها أمريكا معظم دول العالم ومنها بعض الدول الاشتراكية بحيث أنها جعلت الدول تأخذ موقف الدفاع عن هويتها الثقافية في مواجهة الغزو الثقافي الأمريكي.[1]

ولا يؤمن «ماثل ارت» بالأساليب الشائعة في قياس الاستعمار الثقافي بحجم المنتجات الثقافية المستوردة، اذ يرى أن الدول الصناعية الرأسمالية المتقدمة تنتج النماذج الثقافية وعلى الحكومات المحلية في دول العالم الثالث أن تقوم بتقليد هذه النماذج وتكييفها طبقاً للواقع الوطني: مثل الأفلام والمسلسلات التلفزيونية والريبورتاجات الصحفية، كما تقوم الحكومات المحلية بخلق المناخ الثقافي المناسب والشروط الاجتماعية والفكرية الملائمة لتغلغل الأنماط الأجنبية في الثقافة والقيم في ثوب لا يكشف حقيقتها بشكل سافر، ويستشهد على ذلك بعدة مؤثرات أولها يتعلق بتطوير وتحويل أجهزة الرعاية التابعة للحكومة الأمريكية والمقصود بها المراكز الثقافية

١ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. قضايا التبعية الاعلامية والثقافية. ص: ٤٩، ٥١ ـ ٥٤.

الأمريكية بالتغلغل بل والتوسع داخل أجهزة التعليم والثقافة دون ضجيج، وثالثها مراكز البحوث ونظم التعليم الأمريكية.

ويرى هربرت شيللر الأمريكي أيضاً أن انشغال صناع القرار السياسي والمفكرين الغربيين بالبحث عن بدائل تضمن استمرار السيطرة الغربية وعلى وجه التحديد الأمريكيةعلى الأوضاع الثقافية والاقتصادية الدولية، هذا الانشغال قد استقر في النهاية على التكنولوجيا كبديل. وتتضمن هذه التكنولوجيا شبكات الكمبيوتر ونظم الأقمار الصناعية.

وتقوم هذه الشبكات ببث كميات هائلة من الأخبار والمعلومات عبر دوائر عابرة للحدود القومية، وأكثر من ذلك فإنها سوف تصبح في منأى عن الرقابة المحلية ولذلك فإن هذا التوسع في الاستخدام العالمي للمعلومات من ناحية البث الالكتروني وشبكات وبنوك المعلومات ستكون له آثاره الخطيرة على الثقافات القومية في الأعوام القادمة.

ويدعو شيللر الى الاعتماد على الذات بالنسبة للدول النامية وتشجع التعاون الأفقي بين شعوب العالم الثالث ووضع سياسات وطنية للاتصال، وذلك للخروج من دائرة التبعية الثقافية الاعلامية، لأنه بدون فرض السيطرة الوطنية على الأوضاع الثقافية والاعلامية في دول العالم الثالث فإن الثقافة الوطنية لن تتمكن من النمو والازدهار [1]

---

١ - المرجع السابق.

وعلى صعيد الوطن العربي فقد حاولت أمريكا دائماً أن يكون لها النفوذ وأن تعقد العلاقات الخاصة وكان لها ذلك خصوصاً بعد حرب ١٩٧٣م حيث عادت الى مصر وقدمت معوناتها الاقتصادية وسرعان ما حظيت بوجود سياسي وعسكري واقتصادي بل وثقافي خطير في البلاد، وأصبح لأمريكا علاقة خاصة بمصر وظهر ذلك جلياً في اللجان والبحوث المشتركة والمكاتب الاستشارية والبعثات المتبادلة.

وكان الغزو الثقافي الأمريكي في أول الأمر غزواً تبشيرياً دينياً ثم تطور الى غزو فكري شامل عن طريق الارساليات والتبشير والسينما والصحف والمطبوعات، وقد أنشأت أمريكا سبع جامعات أمريكية في الوطن العربي غير المدارس والبعثات الدينية، وبلغ ما ينفق عليها سنوياً حوالي ١٥ مليوناً من الدولارات.[١]

وفي مجال البرامج المشتركة صرفت الوكالة الأمريكية للاتصال الدولي المباشر ٧ ملايين دولار للجامعة الأمريكية بالقاهرة عام ١٩٧٨م من مجموع ١٧ مليون دولار، خصصت للمدارس والمستشفيات الأمريكية في الخارج، وقد اتهم أحد الكتاب العرب هذه الجامعات بممارسة عمليات التجسس في الوطن العربي.[٢]

ويعترف أحد الأكاديميين العرب العاملين في جامعات الغرب

---

١ ـ أنور الجندي. تاريخ الغزو الفكري والتغريب. ص: ١٨٧

٢ ـ زكي الحابر الثقافة العربية في معركتها ضد الاغتراب. الناشر العربي. العدد الأول. ١٩٨٣م. ص: ٦٨

ان العالم العربي اليوم كوكب تابع، فكرياً وسياسياً وثقافياً للولايات المتحدة الأمريكية، وليس هذا في ذاته بشيء يدعو الى الرثاء، في رأيه، غير أن الشكل المحدد بعلاقة التكوكبية نفسه يدعو الى ذلك. خذ بعين الاعتبار أولاً أن الجامعات في العالم العربي تدار بشكل عام تبعاً لنسق ما موروث عن - أو مفروض مباشرة من قبل - قوة مستعمرة سابقة [1]

ثم يقرر أن ثمة عملية تسوية هائلة للذوق في المنطقة متجسدة لا في الترانزستورات، والجينز الزرقاء والكوكاكولا وحسب، بل كذلك في الصور الثقافية للشرق التي توفرها وسائل الاعلام الأمريكية وتستهلكها دون تفكير جماهير التلفاز الضخمة وليست المفارقة الضدية المتجسدة في أن يعتبر عربي نفسه «عربياً» من النمط الذي تنتجه وتسوقه هوليود سوى النتيجة الأكثر بساطة لما أشير اليه. [2]

وهكذا.. كان تأثرنا عميقاً بوجهة النظر الأمريكية والمقاييس الأخلاقية المشوهة والمضللة، فالاعلام الأمريكي يتحكم في الانطباع الذي تكونه معظم الشعوب عن القسوة والوحشية والهمجية والارهاب على المستوى الدولي، ويلون ذلك الانطباع باللون الذي يخدم مصالحه، بحيث يكون الغرب دائماً هو الراقي والانساني والمتحضر وخصومه هم دائماً الوحوش والبرابرة والهمج.

(١، ٢) ادوارد سعيد. المرجع المذكور. ص: ٣١٩، ٣٢١.

ومن الأدوات التي تمثل مستوى محدداً من مستويات الغزو الثقافي الأمريكي البحوث المشتركة، حيث تدخل دوائر التخابر الأمريكية والهيئات البحثية المتصلة بها مع بعض الهيئات البحثية المصرية والعربية في دراسات وبحوث تمثل مسحاً شاملاً للتركيبة الاجتماعية ثقافياً واقتصادياً وسياسياً.

ويستخدم الباحثون الأكاديميون المصريون كأدوات موظفة في اجراء هذه البحوث دون ادراك بطبيعة استخدام هذه الأبحاث في المستقبل ومدى ارتباطها بجهات التخابر الأجنبية.[1]

وتقوم الشركات المتعددة الجنسيات بدورها الاقتصادي والاجتماعي الخطير على البلدان العربية الاّ أن دورها الأخطر في المجال الثقافي، ولعل أبرز ما يمكن أن نذكره في ذلك أن في مقدمة الهبات التي تتلقاها الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ما تقدمه الشركات الأمريكية متعددة الجنسية مثل وستنجهاوس وفايزر

وتقوم الشركات المتعددة الجنسية بالدور الرئيس في نقل المنتجات الثقافية والكتب والأفلام والمواد التعليمية وتحرص من خلال ذلك على فرض الأذواق الاجتماعية والثقافية الأجنبية على شعوب العالم مستهدفة خلق نمط ثقافي عالمي واحد من حيث الذوق والأسلوب والمضمون ومع ذلك فإن الشركات المتعددة الجنسية لا

---

١ - يمكن الرجوع في ذلك الى: عبدالخالق فاروق. الحرية المطلوبة في مجال البحوث والمعلومات. محاذير حول احتواء العقل المصري. مجلة اليقظة العربية العدد التاسع. السنة الأولى. نوفمبر ١٩٨٥م. ص: ١٠٩

يمكن أن تتحمل المسئولية بمفردها في مجال الغزو الثقافي، اذ أنه ليس في وسعها أن تمارس نفوذها مالم تكن الصفوة السياسية والثقافية في الدول النامية على استعداد لمعاونتها واقتسام الفوائد معها، على أن تدفق الثقافات الأجنبية داخل دول العالم الثالث لا يؤدي فحسب الى اعاقة نمو الثقافة الوطنية بسبب انتشار الأنماط الدولية الموحدة للثقافة، بل كثيراً ما يضع المثقفين والمبدعين الوطنيين في منافسة غير عادلة مع المنتجات الثقافية الأخرى.[1]

هذا وقد قدم كل من الباحثتين راكيال ساليناس، ولينا بالدان، اسهاماً بارزاً في قضية الاستعمار الثقافي في الدراسة التي نشرت بعنوان: (الثقافة في اطار التنمية التابعة) فقد أوضحتا أن الشركات المتعددة الجنسية قد تمنح الفرص للتصنيع لبعض دول الهامش في العالم العربي. ولكن في اطار التنمية الرأسمالية التابعة وبناء على ذلك تنمو الطبقات الوسطى المحلية التي تتشبع بالمؤثرات الثقافية لدول المركز على حين تزداد هامشية الطبقات الشعبية، وينتج عن ذلك ازدياد التصاق ثقافة النخبة الحاكمة بالثقافات الأجنبية المنتمية إلى دول المركز، ويتولد ما يسمى بالتجانس الثقافي الذي يواصل دوره في العمل على تجريد الشخصية القومية من مقوماتها الانسانية والتاريخية وتسطيحها الى المدى الذي يجعلها تتوافق مع مجموعة الأهداف والمصالح التي تحكم شبكات التوزيع والتسويق الاعلامي والثقافي التي تديرها الشركات المتعددة الجنسية.[2]

١ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. قضايا التبعية الاعلامية والثقافية. ص: ٧.
٢ ـ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. المرجع السابق. ص: ٤٧.

ومن جانب آخر وفي السنوات الخمس الأخيرة من حكم الرئيس السابق أنور السادات بلغ المعدل السنوي لأعداد المبعوثين المصريين الى الولايات المتحدة نحو ٧٠ ألف مبعوث من مختلف التخصصات (منح السلام).

بل وتأكيداً على المغزى السياسي لهذا النشاط «العلمي» تأسس في السفارة الأمريكية بالقاهرة، ما أطلق عليه اتحاد المصريين الدارسين بالولايات المتحدة، وأصبح بمثابة غرفة عمليات للسيطرة على عقول هؤلاء وتوجهاتهم الثقافية، والسياسية في حياتهم اليومية، هذ التشابك يضع علامات استفهام حقيقية حول طبيعة ومدى السيطرة الأمريكية على الساحة المصرية اجتماعياً وثقافياً.[1]

ولعل هذا يذكّر بالأسلوب الذي لجأت اليه السفارة الأمريكية بالقاهرة في تمويل نشر الكتب عن طريق دور النشر بالقاهرة لتوحي بأن هذه الكتب وليدة اختيار حر من جانب مترجميها وناشريها على حين السفارة الأمريكية هي التي تصدرها في حقيقة الأمر وهي التي تتولى الانفاق عليها وتعطي الناشرين الورق بل وأحياناً تطبع الغلاف داخل السفارة ثم تسلمه للناشر العربي، وقد كُشف النقاب عن ذلك وأصبح أمره معروفاًعام ١٩٦٧م.[2]

---

١ ـ عبدالخالق فاروق. المرجع المذكور. ص: ١١٦

٢ ـ لمزيد من التفصيل راجع كتاب حركة نشر الكتب في مصر ـ دراسة تطبيقية. شعبان عبدالعزيز خليفة. دارالثقافة للطباعة والنشر القاهرة: ١٩٧٤م. ص: ٣٣٤ ـ ٣٣٨.

وكان تركيز الغزو الأمريكي على قطاع النشر العربي كبيراً حتى أنه لجأ الى فرض مؤسسة تتبعه مباشرة وتعمل جاهدةعلى تحويل أكبر قدر من قطاع النشر نحو جيوبها الفكرية، هذه المؤسسة التي تعتبر نموذجاً صارخاً للتدخل الاستعماري في قطاع النشر هي (فرانكلين) التي بدأت عملها من أكتوبر عام ١٩٥٣م وقد عملت منذ البداية وخلال عقدي الخمسينات والستينات على السيطرة على قطاع النشر في مصر، ويرى أحد الباحثين أنها كانت أحد الأسباب الرئيسة وراء تردي الوضع السياسي في مصر بعد عشر سنوات فقط من تنبه المثقفين الوطنيين في مصر الى ما تمثله من خطر، ولم يجد كثيراً ايقاف نشاط هذه المؤسسة بعد حرب ١٩٦٧م، وفي ذلك درس ينبغي أن نعيه بخطورة التأثير الثقافي الموجه لقطاع النشر والذي يركز بوجه خاص على صناعة النشر

وقد لجأت هذه الدار الى استخدام كبار موظفي الدولة وأجزلت لهم العطاء وأشركتهم في عملها كمراجعين ومشرفين بدليل أن مستشاراً فنياً سابقاً بوزارة التربية ينال من هذه الكتب مابين اشراف وتقديم ومراجعة ٦٢كتاباً، وأستاذاً بكلية التربية متخصصاً في العلوم ويشرف على برنامج علمي بالتلفزيون العربي ينال ٣٦ كتاباً، ونائباً لوزير التربية والتعليم ٢٥ كتاباً ووكيلاً لوزارة التعليم العالي ٢٤ كتاباً ومديراً عاماً بالتربية ١٦ كتاباً، ووكيلاً آخر لوزارة التربية ينال ٢١ كتاباً وأستاذاً بالجامعة ينال ٢٤ كتاباً. ولواء ينال ١٨ كتاباً.

وكانت هذه الدار تركز فيما تصدره من كتب على فن صناعة

البشر أي علم التربية وكتب الأطفال وعلم النفس وكانت عند نقل الكتب الأمريكية تلجأ الى الخداع فيما يسمى بالتعريب، وذلك عن طريق استعمال الأسماء والأمثلة الأمريكية بأخرى عربية وخاصة في كتب الأطفال.

وكانت تنتهز الظروف لتقدم زاداً ثقافياً أمريكياً يعالج القضايا التي تواجه المجتمع العربي في مصر حتى لا يجد المجتمع أمامه الاّ هذا الزاد الثقافي. فإذا أثيرت قضية تطوير الادارة أغرقت السوق بكتب عن الادارة الأمريكية، واذا كانت قضية الدستور مثارة بادرت المؤسسة بنشر كتب علمية عن النظام الدستوري في الولايات المتحدة الأمريكية.[1]

وقد أسهمت فرانكلين في الأعمال الموسوعية العربية، ولم يكن في مقدور دور النشر العربية السائدة في نطاقها الفردي امكانية المزاحمة أو التصدي بعمل موسوعي مقابل، وانما كانت هذه الفردية ثغرة استطاعت هذه المؤسسة الأجنبية النفاذ منها واحتواء عدد من دور النشر العربية واغراقها بطبع ونشر انتاجها الخاص بأهدافه ودلالاته الخاصة، وتمكنت هذه المؤسسة الأجنبية (كهيئة غير قابلة للربح)، كما تقول كتبها المطبوعة، من أن تسيطرعلى سوق النشر العربي وعلى اجتذاب أسماء لامعة من الأدباء والكتاب وأساتذة الجامعات وتشغيل المطابع بأكبر كمية من النوعيات المتفرقة التي لا تحتاج الى مزيد، ولم

---

١ ـ أبوبكر محمد الهوش. الاستعمار الجديد وقضية النشر الناشر العربي. العدد الأول. ص: ١٠٥، ١٠٦

يكن هذا العمل اعتباطياً وانما هو نتاج دراسة وتخطيط وضعته المؤسسة موضع التطبيق، وبرمجة خاصة بالنشر العربي لم يكن هدفه الربح بالفعل، وانما هدفه الاحتواء وضبط مؤشر الاتجاه النشري والدخول مع دور النشر العربية في عمليات (نشر مشترك) يساعدها عند الضرورة على تغطية هويتها والتمويه على أهدافها الحقيقية.

واذا كانت بعض دور النشر العربي وبحسها القومي الأصيل قد انتبهت الى مثل هذا التعامل المشبوه مع مؤسسة فرانكلين ووقفت ضده فإن بعضها الآخر قد استمرأ هذا التعامل بخصوصيته المتفردة التجارية التي يحدد بها قنوات عمله [1]

التسلل الثقافي اليهودي في الوطن العربي

يعمل اليهود بجد على تسخير أدوات التوجيه الفكري والثقافي لدى شعوب العالم المختلفة لتحقيق أغراضهم، فهم يحاولون امتلاك الصحافة في العالم والمطبوعات المختلفة وهم بالفعل يملكون جزءاً كبيراً ومهماً منها، كما يسيطرون على السينما والاذاعة في كثير من دول العالم، وقد تحدث أحد مفكري الغرب النصراني في احتفال عام أقيم في نيويورك بتاريخ ١٩٣٧/١١/٣١م قائلاً: بواسطة وكالات الأنباء العالمية يغسل اليهود أدمغتكم ويفرضون عليكم رؤية العالم وأحداثه كما يريدون هم لا كما هي الحقيقة. وبواسطة الأفلام السينمائية يغذي اليهود عقول شبابنا وأبنائنا ويملأونها بما يشاءون فيشب هؤلاء

---

١ - بشير الهاشمي. محاولة طرح لقضية الكتاب العربي. الناشر العربي. العدد الثاني. فبراير ١٩٨٤م. ص: ٢٦

ليكونوا أزلاماً لهم وعبيداً لهم خلال ساعتين من الزمن هي مدة عرض فيلم سينمائي، يمحو اليهود عقول شبابنا وأجيالنا الطالعة ما قضى المعلم والمدرسة والبيت والمربي عدة أشهر في تعليمهم وتثقيفهم وتربيتهم.[1]

ان وكالات الأنباء العالمية خاضعة للنفوذ الصهيوني مثل رويتر التي أنشأها يهودي، ومثل وكالة أسيوشيتد برس ويونايتد برس انترناشيونال في أمريكا، ووكالة أنباء هافاس التي أسسها يهودي عام ١٨٣٥

وتعتمد صحفنا ووسائل اعلامنا العربية على وكالات الأنباء الأجنبية بشكل أساسي مما يشكل خطورة كبيرة في صياغة الأخبار وتلقي المعلومات وتوجيه ذلك واذاعته بشكل خاص يخدم المصالح الغربية، وفي سرعة الترجمة عن هذه الوكالات والأخذ عنها بدون تبصر تقع وسائل الاعلام العربية في كثير من الأخطاء والمآزق، وتروج لمصطلحات ومفاهيم غربية مثل مصطلح الشرق الأوسط الذي بينا خطورته من قبل.

وصناعة السينما في أمريكا يهودية بأكملها. اذ يمثل اليهود فيها أكثر من ٩٠٪ من مجموع العاملين في الحقل السينمائي أو تمتد السيطرة اليهودية لامتلاك شركات الانتاج السينمائي مثل: فوكس وجولدين ومترو واخوان وارنر وبراونت وكانون ذات الفروع العديدة

---

١ ـ أدريان أركاند. نيويورك. عبدالله الحلاق. اليهودية العالمية. ص: ٧٣، عن فؤاد بن سيدعبدالرحمن الرفاعي. النفوذ اليهودي في الأجهزة الاعلامية والمؤسسات الدولية. ص: ٤٣.

في العالم العربي، وانتاج هذه الشركات يعرض كل يوم في عالمنا العربي دون وعي بخطورة ما تحمله أفلامها من سموم تبثها في مكر ودهاء ضد العرب وما تمثله من ترشيح ودعوة لثقافة وقيم اجتماعية غريبة وخارجة من أبسط الأعراف والتقاليد والقيم العربية الى جانب فنون الجريمة والعنف والترويج للعنصرية اليهودية.

ومن الخطير أن تخصصت دور عرض سينمائي في الوطن العربي في عرض الأفلام التي تصنعها هذه الشركات وتنعتها بأنها أفلام أمريكية، وهي في الحقيقة يهودية صهيونية والأخطر من ذلك أن المخرجين العرب مازالوا يقتبسون من أساليب هذه الأفلام ويسيرون على أثرها مما قطعهم كثيراً عن الواقع الاجتماعي والثقافي العربي.

ان سيطرة اليهود على صناعة السينما دعا صحيفة أمريكية[1] الى أن تقول: لقد أصبحت هوليود بسببهم - أي اليهود - سموم العصر الحديث حيث تنحر الفضيلة وتنشر الرذيلة وتسترخص الأعراض وتنهب الأموال دون رادع أو وازع. وهم يرغمون كل من يعمل لديهم على تعميم ونشر مخططهم الاجرامي تحت ستائر خاعة كاذبة. وبهذه الأساليب القذرة أفسدوا الأخلاق في البلاد، وقضوا على مشاعر الرجولة والاحساس وعلى المثل للأجيال الأمريكية.

واختتمت الصحيفة كلامها بالقول:

«أوقفوا هذه الصناعة المجرمة لأنها أضحت أعظم سلاح يملكه اليهود لنشر دعايتهم المضللة الفاسدة[2] فهل اذا دعونا السينما العربية

١ - صحيفة الأخبار المسيحية الحرة. عام ١٩٣٨م.

٢ - فؤاد بن سيد عبدالرحمن الرفاعي. المرجع المذكور. ص: ٣٨.

الى مقاطعة هذه الشركات اليهودية لا نتجاوز دعوة هذه الجريدة الأمريكية!؟ وهل نصبح في موضع اتهام اذا دعونا الى ضرورة الوعي بخطورة الاعتماد على وكالات الأنباء اليهودية؟ وهل نعد بعد ذلك أعداءً للسامية اذا دعونا الى مقاطعة النتاجات اليهودية الثقافية والاعلامية التي تمثل خطراً على الأمن الثقافي والاجتماعي العربي!؟

ولا يقتصر الأمر على الأفلام التي تعرضها السينما ولكنها تمتد الى التلفزيون العربي وتشترك معها المسلسلات التي ينتجها اليهود أو صنائعهم وأشهر المسلسلات التي عرضها التلفزيون العربي في مصر «دلاس» الذي قام أبطاله بزيارة جماعية للكيان الصهيوني حيث استقبلهم (بيجين) والتقط معهم العديد من الصور التذكارية !!

ومن المسلسلات التي عرضت في كثير من تلفزيونات العرب، وتفوح منها رائحة الخبث الصهيوني مسلسل «تعلم اللغة الانجليزية» وفي احدى حلقات المسلسل الذي يحوي شخصية باكستانية مسلمة وأخرى هندية، يطلب الأستاذ الانجليزي من الهندي اختيار كلمة مرادفة لكلمة (غبي) فيسارع الهندي ليعطيه كلمة (مسلم) وهكذا يستمر الهندي في توجيه اساءاته للاسلام في صورة الباكستاني.

وكما تركز الدعاية الصهيونيةعلى الفن في مخاطبة العالم فإنها تركز أيضاً على التاريخ، وقد شهدت السنوات الأخيرة جهداً مضنياً في هذين المجالين لتحسين صورة اليهود التاريخية لأن التاريخ يحمل مصداقية ذاتية عند الناس بحيث يميل عامة المثقفين الى تصديق الصور التي ترسمها كتب التاريخ، على حين يتسرب الفن في أشكاله

وأنماطه المختلفة الى الوجدان ومن هذين الرافدين تتشكل القناعات بدرجة القوة التي نجدها لدى الأوروبيين والأمريكيين في مساندتهم للكيان الاسرائيلي.

وتحاول اسرائيل ذلك بكل قوتها على مستوى الوطن العربي وقد شهدت مرحلة ما بعد اتفاقيات كامب ديفد اهتماماً اسرائيلياً محموماً بضرورة اقامة علاقات ثقافية مع مصر وعيونهم على الكتاب والمعرض الفني والفيلم السينمائي والزيارات المتبادلة والمؤتمرات المشتركة وبحوث الجامعات، وقد دعا الرئيس الاسرائيلي السابق اسحق نافون في لقاء مع نظيره المصري في حيفا في وقت مبكر عقب توقيع معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية: «ان شعبينا قد أعربا عن رغبتهما الأكيدة في السلام بمظاهر عدة. إن هذه الرغبة ليست وقفاً على الوزراء والعسكريين. اننا نرى أن تبادل الثقافة والمعرفة لا يقل أهمية عن الترتيبات العسكرية والسياسية، ومن المرغوب فيه أن نمهد لذلك. لقد عشنا مدة طويلة يرافقنا الشعور المبتور المرسوم عنا في وسائل اعلامكم والذي لم يكن له أساس من الواقع».!!

ومن هنا فقد بدأت اسرائيل ومن تابعها العمل على تغيير أحد المكونات الثقافية الأساسية للعقل المصري العربي ويتمثل ذلك في محاولة تغيير المنظور الفكري تجاه اسرائيل لدى المصريين عموماً. وقد لاقت في ذلك مساعدات رسمية داخل البلاد، ، وكان ذلك هدفاً سعت اليه بجد حيث ساد تعبير أن ما بيننا وبين اسرائيل ماهو الاّ حاجز نفسي وأن المشكلة مجرد قيود نفسية يجب أن تزول.!!

والهدف من التبادل الثقافي المقترح بطبيعة الحال هو امتصاص

أفكار العداء الصريح لإسرائيل من العقل المصري وتخفيف مشاعر البغض لها من الوجدان المصري بحيث تُقبل اسرائيل في نهاية الأمر كحقيقة واقعة في العقلية العربية ان لم تتحول الى صديق!! وقد طالب نافون في خطابه المذكور من المصريين ما يحقق ذلك مثل: استبعاد الدين من الفكر العربي، والاعلان عن قيام قيادة مشتركة للمفكرين والكتاب والعلماء في الجانبين الاسرائيلي والمصري، كما أنه يعد مساساً بالسلام الاسرائيلي المصري ألاّ يحدث تغيير. !!

ومن المؤسف أن نجد صدى ذلك عند بعض المثقفين المصريين المسئولين، مثل الدكتور مرسي سعد الدين ـ الرئيس الأسبق للهيئة العامة للاستعلامات المصرية، يقول: لقد بدأنا مرحلة جديدة بلا عقد أو حساسيات، مرحلة يجيزها التفكير العلمي غير المتحيز، تفكير غير منقاد ولا يعيش على أوهام وتخيلات موروثة، وأرجو أن يستمر هذا الخط الفكري حتى نتخلص الى الأبد من القيود النفسية التي جعلتنا مدة طويلة نعيش ظلاماً حجب عنا الرؤية الصحيحة [1]

ولقد كانت اسرائيل تعد العدة منذ وقت مبكر للسلام المرتقب، ويقول الكاتب محسن عوض في كتابه (مصر واسرائيل ـ خمس سنوات من التطبيع) وقد جرى التخطيط الاسرائيلي للتطبيع الثقافي للسلام مبكراً عن التطورات السياسية الأخيرة التي بدأت بزيارة الرئيس السادات لإسرائيل. وقد كشفت بعض المصادر أن وقف حملات الدعاية المعادية لإسرائيل التي تشنها وسائل الاعلام

١ ـ عن حازم هاشم. المرجع المذكور. ص: ٢٩

المصرية كان واحداً من موضوعات مفاوضة فض الاشتباك بين مصر واسرائيل بل وواحد من التعهدات التي التزم بها الرئيس السابق قبل أن يضع يده على الاتفاق. كما جرت لقاءات بين ممثلين تربويين مصريين واسرائيليين بترتيب من الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٧٦م.

ويضيف محسن عوض: واتساقاً مع هذا الاهتمام أيضاً انشغلت المراكز العلمية الاسرائيلية ببحث هذا الجانب وتعميقه والتهيئة له، ومن مظاهر ذلك أن أقامت جامعة تل أبيب مشروعاً للسلام أنشيء من قبل الوصول الى اتفاقية السلام وتوقيعها، اداره في بادىء الأمر افيفي افين ثم تولاه ديفد هورن، وقد نشط هذا المركز في اجراء الاتصالات الشخصية بين أساتذة جامعة تل أبيب والمثقفين المصريين، كما أنشيء كرسي أستاذية لتاريخ مصر واسرائيل في جامعة تل أبيب. خصص لتاريخ مصر وعلاقاتها بإسرائيل كما تبارى المفكرون والباحثون الاسرائيليون في اجراء الدراسات والحوار وعقد الندوات حول مجالات التعاون الثقافي بين مصر واسرائيل.

ثم يضيف حازم هاشم: لكننا برصد كثير من الوقائع نكتشف أن قفزة السادات الى القدس قد شجعت بعض المثقفين والفنانين المصريين على المسارعة الى تطبيع العلاقات الثقافية، بل كان هؤلاء أسرع من الحكومة المصرية في خطوات التطبيع الثقافي بلهفة شديدة!! فمن الواضح أن الحكومة المصرية في ذلك الوقت كانت تخشى ألاّ يلتزم الاسرائيليون بالمراوغة المعروفة عنهم، بالانسحاب من الأرض المصرية طبقاً لنصوص اتفاق السلام، وفي المراحل والمواعيد

التي تقررت، ويبدو أن الحكومة المصرية كانت تدرك أهمية التطبيع الثقافي بالنسبة لإسرائيل فجعلته رهناً بالانسحاب وحتى توقيع اتفاقية ثقافية رسمية طبقاً للمعاهدة.[1]

وقد تم بعد ذلك توقيع اتفاقية السلام بين مصر واسرائيل في ٢٦ مارس عام ١٩٧٩م، وفي الملحق رقم ٣ من بروتوكول العلاقات بين الطرفين نصت المادة الثالثة على:

أولاً: يتفق الطرفان على اقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المرحلي.

ثانياً: يتفق الطرفان على أن التبادل الثقافي في كافة الميادين أمر مرغوب فيه، على أن يدخلا في مفاوضات في أقرب وقت ممكن، وفي موعد لا يتجاوز ستة أشهر بعد اتمام الانسحاب المرحلي بغية عقد اتفاق ثقافي.

تم توصل الطرفان في ٨ مايو ١٩٨٠م الى توقيع اتفاق ثقافي نص على الآتي:

«رغبة من حكومة مصر العربية وحكومة دولة اسرائيل في تطبيع وتطبيق وتقوية العلاقات بين البلدين وانسجاماً مع معاهدة السلام التي وقعت في واشنطن في السادس والعشرين من مارس عام ١٩٧٩م وتطبيقاً للمادة ٣ من الملحق الثالث، ومشاركة في الجهود التي تهدف الى دعم السلام العادل والدائم في المنطقة، ورغبة في

---

١ ـ المرجع السابق. ص: ٣١.

اقامة علاقات ثقافية بين البلدين، وتدعيم التعاون في المجالات الثقافية والعلمية، اتفق الطرفان على التالي:

المادة (١): يتعهد كلا الطرفين بتشجع التعاون في الميادين الثقافية والفنيةوالعلمية بما يتفق مع قوانين ولوائح كل دولة

المادة (٢): يتعهد كلا الطرفين بتشجيع الاتصالات وتبادل زيارات الخبراء في الميادين الثقافية والفنية والتقنية والعلمية والطبية طبقاً للشروط التي تم الاتفاق عليها، وبما يتفق مع القوانين واللوائح المعمول بها في كل دولة.

المادة (٣): يتعهد كلا الطرفين بتشجيع التفاهم البناء لحضارة وثقافة البلد الآخر بما يتفق مع القوانين واللوائح المعمول بها في كل دولة، وطبقاً للشروط التي تم الاتفاق عليها، وذلك من خلال الوسائل التالية:

١ ـ تبادل المطبوعات الثقافية والعلمية والتعليمية.
٢ ـ تبادل الانتاج الفني وما له علاقة بالآثار.
٣ ـ تبادل البرامج الاذاعية والتلفزيونية والتسجيلات والأشرطة بالاضافة الى الأفلام العلمية والثقافية.

المادة (٤): يتعهد كل طرف بتسهيل زيارة العلماء والباحثين والدارسين من أي بلد الى المتاحف والمكتبات، بالاضافة الى المعاهد التعليمية والعلمية والثقافية والتقنية الموجودة في البلد الآخر.

المادة (٥): وافق الطرفان على التوصل الى بروتوكول خاص يتناول

المتطلبات الضرورية لتبادل المعلومات والشهادات ومعادلتها بالدرجات الأكاديمية التي تمنحها المؤسسات التعليمية في كلا البلدين.

المادة (٦): يتعهد الطرفان بتشجيع وتهيئة السبل لأنشطة الرياضة والشباب بين مؤسسة الرياضة والشباب في كلا البلدين.

المادة (٧): وبغرض تطبيق هذه الاتفاقية يقوم الطرفان بتعيين ممثلين يقومون بتعيين البرامج التنفيذية الزمنية وتتم الاجتماعات بصورة تبادلية في كل بلد.

المادة (٨): يبدأ سريان العمل بهذه الاتفاقية بعد أن يخطر كل طرف الآخر بأن كل متطلباته الدستورية قد تم الوفاء بها.

ثانياً: يستمر سريان العمل بهذه الاتفاقية لمدة خمس سنوات وتجدد تلقائياً، الا اذا أنهاها أحد الطرفين بمذكرة مكتوبة قبل ٦ أشهر من تاريخ انتهائها.

ثالثاً: الشاهد الموقع أدناه والذي تم توثيق توقيعه من خلال حكومتي الدولتين قد وقع هذه ووضع ختمه عليها من نسختين أصليتين، احداهما بالعربية والأخرى بالعبرية بالاضافة الى اللغة الإنجليزية. والنسخ الثلاث كلها تم توثيقها وفي حالات الاختلاف في التفسير يرجع الى النسخة الانجليزية

وقد تم بعد هذا الاتفاق تصدير الصحف والمجلات والكتب الاسرائيلية لمصر، واتخذت دور النشر الاسرائيلية شركة (ادكو انترناشيونال) وكيلاً لها في القاهرة ـ جورج راغب فيما بعد، وحرص

الكتاب الاسرائيليون على الكتابة في المجلات والصحف المصرية بين وقت وآخر مثل كتابات شيمون شامير وحاموس عوز وألوف هما يفني وعمانويل ستيفان أستاذ التاريخ الاسلامي بالجامعة العبرية بالقدس وغيرهم.[1]

كما كان لبعض لقاءات المثقفين الاسرائيليين بالكتاب المصريين ثمرة غريبة فقد أبدى توفيق الحكيم استعداده لانشاء جمعية ثقافية مصرية ـ اسرائيلية، واكتشف الدكتور يوسف ادريس أنه لم يجد ناقداً يفهمه ويفهم أدبه مثل الناقد الصهيوني (ساسون صوميخ) وعكف أنيس منصور على تجنيد مجلة «أكتوبر» لتهتم بكل خبر وشاردة وواردة في النشاط الثقافي الاسرائيلي بمصر، كما حرصت صحيفة «الأخبار» على تقديم دراسات نقدية للآداب والشعر العبري، وقدمت قصائد لشعراء صهاينة.[2]

إن ارتماء بعض من كتابنا ـ وخاصة في الاسكندرية ـ في أحضان دور النشر الاسرائيلية هو مشاركة مصرية في مخططات اسرائيل للغزو الثقافي لمصر والعالم العربي وتخريب ثقافتنا الوطنية والوصول في هذا المخطط الى حد تهديد المثقفين المصريين الرافضين لإسرائيل بالقتل، كما رأينا في تهديدات منظمة (كاخ) مؤخراً الى بعض من مثقفينا الذين رفضوا تطبيع العلاقات الثقافية مع اسرائيل.[3]

(١، ٢) ـ العدد الأول من مجلة المواجهة. عن حازم هاشم. المرجع المذكور. ص: ١٩٤

٣ ـ حازم هاشم. المرجع المذكور. ص: ٢٠٤

ويأتي انشاء المركز الأكاديمي الاسرائيلي في قلب القاهرة تطبيقاً لنصوص معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية وكذا الاتفاق الثقافي الموقع بين البلدين. والرغبة الاسرائيلية في اقامته تعكس هدف اسرائيل في أن يكون جهدها في السطو على العقل المصري جهداً منظماً ترعاه وتوجهه منشأة ذات امكانات، وتصبح صيغة وجوده جواز مرور الى كافة مجالات البحث العلمي المصري بوجه عام، حتى يمكن في النهاية تزييف التاريخ المصري أولاً، واثبات أن تاريخ اليهود في مصر يمكن أن يكون مرجعاً لتاريخ المصريين، ثم تضخيم دور اليهود المصريين في صنع حضارة مصر.[1]

ويرى حازم هاشم الكاتب الصحفي أن إغلاق هذا المركز ووقف نشاطه ضرورة لأننا نعرف الى أين يذهب ما يجمع من معلومات، ومهما كانت الأقنعة التي يدعي أنها تمول نشاطه فإن المركز ومن وراءه هي في النهاية فروع لجهات المخابرات الاسرائيلية الذي يتبادل معلوماته بانتظام ويعمل بالتنسيق مع مخابرات أمريكا المركزية.[2]

وقد استطاع المركز الأكاديمي الاسرائيلي المشاركة في معرض داخلي صغير للكتاب في قسم اللغة العبرية بآداب جامعة عين شمس العام الدراسي ١٩٨٣ ـ ١٩٨٤م كمانظمت زيارات مستمرة بمعرفة بعض أساتذة القسم العبري في جامعة عين شمس لطلاب القسم الى المركز، وحضور ندوات المركز يصبحه هؤلاء الأساتذة في الوقت

(١،٢) ـ المرجع السابق. ص: ١٥٩.

الذي ثار بعض الأساتذة على هذا التصرف، ولما تعلل بعض الطلاب بأنهم في حاجة الى الاطلاع على بعض الكتب التي لا يستطيعون شراءها في المركز تعهد الأساتذة بتوفير هذه الكتب لهم.[1]

وفي يوم الأربعاء ١٦ يناير ١٩٨٥م قدم اتحاد طلاب كلية الآداب بجامعة عين شمس احتجاجاً شديداً للدكتور أحمد سلامة نائب رئيس الجامعة لشئون الطلاب، في الاجتماع الذي عقده مع الاتحادات الطلابية، وقد أعلن الطلاب في احتجاجهم أن ادارة الجامعة وعمداء الكليات قد غرروا بهم وأوهموهم بمقابلة وفد أمريكي صباح يوم الجمعة ١٦ يناير ثم تبين أن الوفد اسرائيلي ولما استجاب الطلاب للدعوة وجلسوا للحوار مع الوفد على أنه أمريكي، وبدأ أعضاؤه في طرح أسئلة ـ بدت غريبة ـ بإشراف موظفي العلاقات العامة بجامعة عين شمس، سأل أعضاء الوفد الاسرائيلي الطلاب المصريين عن آرائهم في الوحدة العربية والعلاقات المصرية الليبية، وتصرفات الزعيم القذافي، وبعض أسئلة عن نظام التعليم في مصر وسياسة القبول في الجامعات المصرية.

وكذلك الرأي في مذبحتي (صبرا وشاتيلا) والقضية الفلسطينية والسلام المصري الاسرائيلي، وقالت احدى أعضاء الوفد الإسرائيلي بصدد القضية الفلسطينية انه مثلما وجدت اسرائيل وطناً لها في يوم من الأيام فسوف يجد الفلسطينيون وطناً لهم أيضاً.

وقد رد الدكتور أحمد سلامة على احتجاج الطلاب بأنه لم يكن

١ ـ المرجع السابق نفسه. ص: ٢١٧

يعلم أن الوفد اسرائيلي!!. وهكذا. كان من الواضح أن اسرائيل قد ركزت على اختراق جامعة عين شمس وهو ما أشار اليه الدكتور ابراهيم البحراوي.[1]

ويقول سعيد النشائي:

ان الاسرائيليين يتبعون أسلوباً ملتوياً للالتفاف حول المقاطعة الشعبية شبه الشاملة وذلك باستخدام المظلة الأمريكية في هذه القضية مثلما استخدموها من قبل عسكرياً وسياسياً واقتصادياً، ومازالوا يستخدمونها حتى الآن، ويتمثل هذا الأسلوب في ممارسة ومحاولة الاتصال بالأساتذة والباحثين المصريين تحت غطاء الجنسية الأمريكية، فقد وصله خطاب من الأستاذ الاسرائيلي الأمريكي صاحب الجنسية المزدوجة دان لادوس، رئيس قسم الهندسة الكيميائية بجامعة هيوستن الأمريكية يطلب زيارة كلية الهندسة بجامعة القاهرة، والتعرف على أساتذتها ورفض الدكتور سعيد هذه الزيارة.

وفي يناير ١٩٨٣م زار البروفيسور ليونارد بانيدر أستاذ العلوم السياسية بجامعة شيكاغو والأستاذ الزائر بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ويحمل الجنسية الإسرائيلية، وقد حارب ليونارد بانيدر في صفوف العصابات الصهيونية ضد العرب عام ١٩٤٨م وعمل مستشاراً سياسياً لرئيسة الوزراء الاسرائيلية «جولدا مائير» وهو متخصص في

---

١ ـ المرجع السابق نفسه. ص: ٢١٩

دراسة الجماعات الدينية والاسلام والجوانب العقائدية في المجتمعات العربية، وكانت له زيارة سابقة عام ١٩٨٢م لمصر، اتصل خلالها بعدد من المثقفين المصريين. وتعاون معهم في بحوث علمية مشتركة.[١]

ولايزال الصهاينة يمارسون عدواناً ثقافياً مستمراًعلى الشعب الفلسطيني وذلك بعرض البرامج التعليمية الاسرائيلية على الطلبة الفلسطينيين وبتشويه التاريخ والجغرافية العربية، وبتغيير أسماء المواقع والمعالم الثقافية في الأماكن المقدسة وبانتحال الفلكلور الفلسطيني والعربي في محاولة لكي يخترعوا للسكان الصهاينة الذين توافدوا من أرجاء مختلفة من العالم وبخلفيات ثقافية متباينة (ثقافة عريقة موحدة).[٢]

وكانت أحداث بيروت في صيف ١٩٨٢م من أقسى المراحل التي مرت بها الثقافة الفلسطينية العربية يوم اهتدت اسرائيل الى مركز الأبحاث الفلسطيني وسرق كل وثائقه ومعالمه الفكرية والجغرافية والسياسية، مثبتة أنها ـ أي اسرائيل ـ لا تختلف عن كبار المجرمين الذين دمروا مكتبات الثقافة الانسانية في عز ازدهار الحضارة العربية وثقافتها.

وبكل حزن ومرارة ـ فإن الإعلام العربي الغارق في وحل الملذات والترّهات قد مر بتلك العملية مرور الكرام ولم يكشف وجه

---

١ ـ المرجع السابق نفسه. ص: ٢١٤، ٢١٥

٢ ـ ماهر الكيالي. المرجع المذكور. ص: ١٣٣

اسرائيل في عدوانها الغادر على أكبر معقل يؤرخ لفلسطين الفكر والحضارة والآداب والفنون.[1]

سمات الواقع الثقافي العربي

اذا كانت الثقافة ذات خصوصية ما في كل أمة، فإن الثقافة السائدة الآن في العالم العربي مزق من ثقافات مختلفة يغلب عليها الطابع الغربي في كثير من جوانبها، وهذا في واقع الأمر انعكاس لتأثرنا الشديد بالحضارة الغربية وثقافتها، فإن الواقع يثبت أننا قد فشلنا في النقل العلمي عن الغرب في الوقت الذي خضعنا فيه تماماً للمؤثرات الثقافية الغربية، ان الطفح الحيواني والمذاهب الهدامة والفنون المنحلة والأدب الوضيع وجدت طريقها الى حياتنا في الوقت الذي نظل فيه من الناحية العلمية والتكنولوجية في مواقعنا لا نعدوها بل ان الغرب يحرص ألاّ يصلنا من علومه الاّ النذر اليسير.

ومن جانب آخر فإن بنية الثقافة العربية ومؤسساتها ووسائلها تعاني ضعفاً وقصوراً ملحوظاً نشأ عن أسباب متعددة ومتداخلة انعكست بظلالها على الوضع الثقافي، ويمكن تحديد أبرز هذا الوضع في الآتي:

١ ـ صراع ناشيء عن التعارض بين القيم الثقافية العربية والقيم الثقافية الغربية الجديدة.

---

١ ـ عبدالرؤوف الخنيسي. في منزلة الكاتب والكتاب والمكتبات. الناشر العربي. العدد الأول. ص: ١١١

٢ ـ النظرة مازالت تقليدية للثقافة وأهميتها في خلق المواطن الصالح.
٣ ـ أصبحت الأمور المادية والاقتصادية طاغية على الأمور الثقافية.
٤ ـ عدم وجود مخططات على المستوى المحلي والقومي لخلق نهضة ثقافية في الأقطار العربية.
٥ ـ قلة الاعتمادات المرصودة لتنفيذ مختلف الخطط والبرامج الثقافية على المستوى المحلي والقومي.[1]

ويضيف عبدالرؤوف الخنيسي بعض السمات التي يطلق عليها (معطيات المأساة الكبرى) وهي:

٦ ـ اصابة القارىء العربي بخيبة أمل نفسية، واحباط كل آماله وتطلعاته بحكم ما يسود الإعلام الثقافي من مبالغات ومغالطات وعدم تركيز على الجوهر مما يجعله يهرب الى الاعلام الأجنبي.
٧ ـ سقوط الكاتب العربي في ظل السلطة والسلطان، واتخاذ الكتابة عملية سهلة قريبة (للفبركة) و (المونتاج) و (الاسهال)على حساب الإبداع والاتيان بما لم تستطعه الأوائل.
٨ ـ سيادة الأمية الثقافية والمقاييس الذاتية والتجارية، داخل دور النشر، وقبول موضوعات لا علاقة لها بهموم الظرف المعاصر
٩ ـ عدم قيام وزارات الثقافة العربية بحماية الكتاب العربي أدبياً وأخلاقياً ومادياً ودعم المؤسسات الثقافية.
١٠ ـ انعدام الناقد الموسوعي الذي وهبه الله عمق الاطلاع وسعة الأفق وشجاعة الرأي وسلامة اللغة، مما جعل المؤلفات

---

١ ـ الدكتور عبدالله محمد الشريف. معوقات حركة نشر الكتاب. الناشر العربي. العدد الأول ١٩٨٣م. ص: ٨٩.

التجارية والعناوين الأدبية والشعرية في واجهات المكتبات أكثر من حبوب منع الحمل في الصيدليات. !![1]

ويمكن النظر الى السمات المذكورة كأسباب لاستمرار الضعف والقصور الثقافي ونضيف اليها السمات التالية:

١١ ـ الاعتماد على استيراد المواد الثقافية بدل انتاجها.

١٢ ـ خضوع الواقع الثقافي العربي للتباين الإيديولوجي والاختلاف السياسي والصراع الطائفي.

١٣ ـ القصور في مواجهة المؤسسات الثقافية الأجنبية المشبوهة داخل البلدان العربية.

١٤ ـ خضوع الحكومات العربية لضغوط الدول الكبرى في محاولتها نشر ثقافتها داخل الوطن العربي.

الثقافة والسلطة:

ان السياسة لا تنفصل عن الثقافة، فالقيادة السياسية المتسلطة والزعامة المستبدة تسعى الى عدم تحقيق النمو الثقافي لشعوبها وذلك حتى يبقى لها النفوذ والسيطرة الكاملة وحتى تظل الشعوب متعلقة بهذه الزعامات دون وعي أو تبصر مدفوعة بالشعور بالحاجة الى هذه الزعامات في مواجهة مشاكل وجودها، وهكذا تهمل مشروعات التنمية الثقافية كما تنغلق المجتمعات على نفسها ثقافياً أو تتفتح على العناصر الثقافية الضارة تحسباً من عملية تنوير عقلي ورقي انساني يطلب حقوقاً ضائعة

---

١ ـ عبدالرؤوف الخنيسي. المرجع المذكور ص: ١٠٨

ان سلطة الحكومة تظهر في بلاد العالم الثالث بوضوح لأن معظم الأنظمة في هذه البلاد تسلطية تتدخل فيها الدولة لفرض رأيها على مختلف أشكال التعبير الثقافي. وتضع العراقيل أمام الأعمال الثقافية التي تتعارض واتجاهات الدولة.. وفي الحالات التي تخضع فيها الثقافة لسلطة الحكومة مباشرة، عن طريق وجود مجالس أو هيئات مسيطرةعليها، أو تأميم مرافق انتاج الثقافة ونشرها وأدائها تثار مشكلة الثقافة والسلطة بأكثر صورها حدة.[1]

وتشهد الثقافة العربية انتعاشة كبيرة في ظل الأنظمة التي تبيح جواً من الحرية في الابداع والفكر والتعبير على حين تجف منابع الابداع والعطاء الفكري في ظل الأنظمة التي تحجر على الفكر وتعاقب على الجهر بالرأي المخالف، ولا تسأل بعد ذلك لما تجف ينابيع الابداع في بلادنا!! إن كثيراً من الأقطار العربية مازالت تفتقد الحرية التي تطلق القرائح المبدعة من عقالها وتنتشل الآداب من تحت الأرض، وتهتك ستر التعتيم على أدباء ومفكرين لأسباب سياسية.

ان النظم الاستبدادية أول ما تقتل في الانسان انسانيته وتمسخ روحه وتشوه عقله وقلبه . وتجعل منه صورة لحيوانات بشرية تسعى وراء الخبز والبضاع. . وتنصرف عن غذاء الروح لأن الروح موؤوده والعقل يدور في اطار محدود. من الهموم اليومية والخوف المرير.

---

١ - الدكتور فؤاد زكريا. المرجع المذكور. ص: ٢٠

ان عشرين إيديولوجية سياسية مدججة بالسلاح حتى النخاع هي سبب مباشر وأساسي في الفرقة والشتات داخل الثقافة العربية، وهي أبدى مظاهر التغريب الفكري عندنا، والظن أنها يمكن أن تحول الثقافة العربية الى ثقافات متعددة منفصلة مختلفة بل يمكن أن تصل الى درجة الصراع والتدافع وهذا في حقيقة الأمر ما أراده الذين صدروا هذه المذاهب والإيديولوجيات السياسية وما أراده الذين استوردوها في آن. !!

ان السياسة لا تنفصل عن الثقافة ـ كما قلنا ـ وواهم من يظن غير ذلك فكل إيديولوجيا سياسية تصطنع لمعتنقيها صبغة ثقافية تستمد منها وتلتقي معها، ومهما تكلم معتنقو الإيديولوجيات الوافدة عن وحدة ثقافية عربية فلن يتحقق لهم ذلك، لأنهم استبدلوا بالإيديولوجيات التي وحدت العرب ثقافياً قروناً طويلة وهي الاسلام إيديولوجيات أخرى متخاصمة شكلاً وموضوعاً.

ولقد أثبتت الوقائع أن المحاولات الحكومية لفرض لون من ألوان الثقافة الغربية على شعبها عن طريق مصادرة أدوات الثقافة وتأميمها والتحكم فيها، ومحاربة كل صوت معارض ومحاولة خنقه، أثبتت الوقائع أن هذه المحاولات مآلها الفشل في الغالب، ذلك لأنها تفتقد التفاعل مع الجماهير وتصطدم مع قيمها الثقافية الأصيلة، الاّ أن الخطورة تتمثل في تسخير السلطة لأدوات الثقافة المختلفة الى جانب القوة القهرية في تحويل الشعوب عن معتقداتها وثقافتها.

إن الموضوعية تقتضينا القول أن الثقافة العربية اليوم لا يقوم

بدعمها وتعزيزها الحكومات العربية، فالحكومات مشغولة عن الثقافة بالسياسة، وهي تنظر الى الثقافة نظرة تقليدية قاصرة لا توفيها قدرها. وانما الذين يسعون لحماية الثقافة العربية اليوم هم المثقفون العرب الواعون بدورهم ومسئولياتهم الثقافية والحضارية تجاه أمتهم أنهم الأكاديميون ومن في رتبتهم ممن يقفون على أرض صلبة من الثقافة العربية الأصيلة، ويتصدون للطوفان الثقافي التغريبي لأن ذلك يعني المحافظة على وجودهم ذاته ووجود أمتهم.

ان مشكلة الرقابة يبرز وضوحها في كل الدول العربية، والرقابة تشمل الكتاب والكاتب والناشر، وان السبب الرئيسي في وجود قوانين الرقابة يرجع الى الخلافات السياسية في الوطن العربي، لقد أصبح الكتاب العربي في هذه الفترة يعاني من مشكلة التداول داخل الوطن العربي وفي الوقت نفسه يتم تداول وتنقُّل الكتاب المستورد من خارج الوطن العربي بحرية، اذ تسمح أجهزة الرقابة للكثير من الكتب الرخيصة والروايات البوليسية والقصص التافهة والمجلات والمطبوعات البعيدة عن أي فكر أو ثقافة، كما أن الكثير من الأفلام السينمائية والأشرطة الغنائية وكثيراً من الملصقات المستوردة من خارج الوطن العربي يتم تداولها بحرية

ونتيجة للخلافات السياسية في الوطن العربي فإن قيود الرقابة في الغالب تشمل جميع المطبوعات سواء منها السياسية أو العلمية حتى كتب الأطفال، ومثل هذه القيود أثرت تأثيراً مباشراً في نشر وتداول الكتاب العربي، ان القارىء العربي نتيجة للظروف السياسية التي يمر بها الوطن العربي يتجه نحو قراءة الكتاب السياسي، ويتجه الى معرفة

كل ما يتعلق بحقيقة الواقع العربي ولكنه لا يجد هذا النوع من الكتب وذلك بسبب قيود الرقابة، كما أن قيود الرقابة أثرت تأثيراً مباشراً في انتاج ونشر الكتاب العربي لأن كثيراً من الناشرين أصبحوا يعانون من مشكلة مصادرة الكتب السياسية والفكرية والكتب المتعلقة بواقع الوطن العربي. مما جعل الكثير منهم يمتنع عن نشر هذا النوع من الكتب.[1]

ان هذا الواقع دفع بعض الكتاب الى الحديث عن الكتاب المدجن الذي يستطيع أن يجتاز حدود عشرين دولة وعشرين إيديولوجية، ولا يثير حساسيات اقليمية، ولا نعرات طائفية، ولا يجرح كبرياء أي قطر من الأقطار، غير أن مثل هذا الكتاب لا وجود له، فقد طبعت احدى المؤسسات بعض الأبحاث العلمية عن مكافحة الأمية، وهو موضوع لا يمس حكماً ولا حزباً ولا معتقداً، وقد استقى مؤلفه معلوماته من نشرات الأمم المتحدة ومن النشرات الرسمية ومن استقصاءات خاصة أخرى، لكننا فوجئنا بأن الكتاب منع في أهم البلاد العربية المستهلكة للكتب، فقد منعته احدى الدول العربية لأنه كان يذكر أن نسبة الأمية فيها تبلغ ٩٢٪ بين الرجال و ٩٨٪ بين النساء مع توافر المواد المالية لنشر التعليم والتوسع به ـ مما يدل على وجود سياسة رسمية لعدم نشر التعليم، ومنعته احدى الدول التقدمية لأنه أظهر أنه على الرغم من تزايد أعداد المتعلمين فيها الآن. فإن نسبة توسع التعليم تقلصت الى ٤٠٪ في السبعينيات

---

١ ـ الدكتور عبدالله محمد الشريف. المرجع المذكور. ص: ٩٨.

بعد أن كانت ٦٥٪ في الخمسينيات، مما يعني أن مستقبل الأمية في ازدهار وأن الحكومة التي تقول أنها منحت شهادة التعليم الابتدائي لنصف مليون تلميذ هذا العام، فإنها من الناحية العملية تقول أنها حرمت سبعمائة ألف طفل آخرين من التعليم، كما منع الكتاب من قطر هجين مرة تقدم ومرة لا، لأن المؤلف حين تعرض لمستوى التعليم ذكر أن منظمة اليونسكو الدولية لفتت نظر الحكومة أكثر من مرة الى تدني مستويات التعليم فيها الى حد أن المنظمة الدولية هددت بسحب اعترافها بقيمة الشهادات التي تمنحها تلك الدولة لطلابها، وأخيراً فقد منع من دولة عربية رابعة لأن فيه معلومات مضادة لإسرائيل.[1]

ان تتبعنا ذكياً لحركة توزيع الكتب يظهر ما على الساحة العربية من تناقضات ومفارقات.. فما هو حرام توزيعه من الكتب في هذا البلد حلال في البلد الآخر، وهكذا كان انتشار الكتاب العربي في مكان واختفاؤه في مكان آخر صورة عن تفرق العرب وتناقضهم.[2]

ولعل الظاهرة الأكثر مرارة في علاقة السلطة بالثقافة والتي لا يمكن أن نجد لها نظيراً في دولة متقدمة، هي قيام السلطة بمصادرة المكتبات الخاصة التي يمتلكها بعض المغضوب عليهم، وهكذا يستمر تتار الكتب في تهديد الأمن الثقافي والاجتماعي في آن.

---

١ - محيي الدين صبحي. انقاذ العقل العربي من الواقع العربي. الناشر العربي. العدد الأول. ص: ١٣٤ ، ١٣٥

٢ - بهيج عثمان. الكتاب العربي بين التخلف والتقدم. الناشر العربي. العدد الأول. ١٩٨٣م. ص: ١٢٨

ظاهرة اقليمية الثقافة:

وقد نشأت عن هذا الواقع ظاهرة الاقليمية التي تعاني منها الثقافة العربية وكانت لها أبعادها السلبية الآتية:

- اقليمية الكتاب العربي تأليفاً وتحقيقاً ونشراً.
- اقليمية وسائل الاعلام العربية.
- اقليمية الصحافة والدوريات العربية.
- اقليمية الفن والأدب العربيين.
- اقليمية التعليم العربي.
- اقليمية السياسات الثقافية والاعلامية العربية.

وهكذا تعتبر ظاهرة الاقليمية الثقافية وجهاً من أوجه العزلة الثقافية التي تفرضها بعض السياسات الحاكمة على بلادها، ولوناً من ألوان الرقابة السياسية أو الحظر. وربما يكون ضعف الاتصال بين أجزاء الوطن العربي سبباً جوهرياً في ذلك. اضافة الى عزوف الناشرين عن اتخاذ الاجراءات الكفيلة بتسويق الكتاب على مستوى قومي تقصيراً منهم أو عجزاً أمام العوائق المادية وغير المادية التي تواجههم في ذلك. ولا عجب أن نسمع بعد ذلك عن الكتاب المصري والكتاب العراقي واللبناني والسوري. وغيرها.

ان عملية النشر تتطلب اعلاناً واسعاً لترويج الكتاب في الوطن العربي كله، وهذا مطلوب لأنه يؤدي الى التواصل والتكامل الثقافي. ولكن الواقع يقول ان الاعلان عن الكتاب وتعريف المهتمين به تتم بصورة محدودة وذلك لأن الاعلان يكلف الناشر مبالغ

باهظة على حين يرمي الناشرون الى تحقيق أكبر قدر من الربح المادي مع أقل التكاليف.

وتعمل مؤسسات الثقافة العربية بصورة انعزالية وتقل أو تنعدم صور التعاون الذي يمكن أن يحقق الوحدة الثقافية العربية المنشودة، وبالنسبة للمجامع اللغوية مثلاً فلعل ضرب الأمثال يغني عن طول المقال، فهناك كلمات تستخدم في أقطار عربية على أنها فصيحة لأن المجمع اللغوي في هذه الأقطار قد أجازها على حين تعد في أقطار عربية أخرى غير فصيحة، لأن المجامع اللغوية فيها لم تجزها، وهذا المثال على بساطته يعكس الاقليمية التي تهدد الثقافة العربية.

إن غياب حد أدنى من التعاون السياسي العربي يشكل أكبر تشويه للشخصية العربية على كل المستويات الاقتصادية والعسكرية والاعلامية والثقافية. وهذا وحده كاف لتسويغ كل الدعاوى المسمومة ضد الوجود العربي من أساسه فمن قائل أن الشعوب التي تسكن في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا هي شعوب ناطقة بالعربية لكنها لا تشكل أمة عربية، ومن قائل أن العرب مواطنهم الصحراء العربية. وأما بقية الشعوب العربية فتشكل أمما منفصلة، فهناك أمة عراقية وأخرى سورية وثالثة مصرية. وهكذا. ومن قائل أن الوجود العربي في التاريخ قد انتهى منذ عصر السيطرة التركية في القرن العاشر الميلادي، ومن قائل أن تحديث العرب لا يتم الّا اذا تخلوا عن تراثهم وانفصلوا عن ماضيهم، ومن قائل أن علة العلل هي اللغة العربية المتخلفة، فهي لغة صحراوية ميتة، أما اللغة الحديثة فهي هذه اللجهات العامية المتشعبة في كل قرية ومدينة،

فإصلاح اللغة لا يكون الاّ بالتخلي عنها والكتابة العامية، ومن قائل أن ضعف العرب في دينهم الذي يعلمهم التواكل والخضوع لإرادة الله. ومن قائل بأن تطورنا لا يتم الاّ بالاندماج التام بالغرب، الى قائل بأن تطويرنا لا يكون الاّ بالاندماج التام بالشرق. وهكذا فكل شيء عند العدو مقبول الاّ تطوير قوة عربية ذاتية أو شخصية عربية مستقلة فهذا مرفوض.!![1]

وأمام هذا الواقع المتفكك يقول أحد الكتاب: نحن عرب بالنظر الى ماضينا الثقافي المشترك أما حين تجزأت الثقافة بفعل التمزق السياسي فإن صميم التكوين القومي للشخصية العربية تشوه واختل، وتغلب الجانب القطري أمر واقع في حين أن الوجود القومي مسألة افتراضية من المؤسف أنها تتلاشى يوماً بعد يوم بفعل الممارسات السياسية لبعض الزعماء العرب الذين يدافعون عن وجودهم ثم عن قطرهم، وغالباً ما يكون ذلك على حساب المصلحة القومية. لأن انعزالهم عن أمتهم يدفعهم الى انشاء تحالفات خارجية تشد مصالح القطر كله الى خارج الدائرة العربية، وبما أن أجهزة الاعلام ملك للحكام يوجهونها كيفما يشاءون. فإنهم يستخدمونها لتبرير تصرفاتهم ومهاجمة خصومهم في الداخل والخارج.[2]

ان السلطة التي تقف في وجه الكتاب الجاد وأداة التعبير الثقافي الجيدة وتحاول أن تفرض إيديولوجيات معينة وخطاً فكرياً محدداً على الجميع تمثل في النهاية تهديداً للثقافة العربية الأصيلة وخروجاً عن

(١،٢) - محيي الدين صبحي. المرجع المذكور. ص: ١٣٦

المألوف والمعروف من جذور وسمات لهذه الثقافة، وهذا ما يجعلها تسير في صف الثقافة الغازية التي تمثل تهديداً للعروبة والاسلام.

المؤسسات الثقافية بين الانعزال والانهيار:

هل تعبر أدوات الثقافة عن الواقع العربي وتقدم الحلول لمشكلاته والمعالجة لقضاياه؟ سنحاول الاجابة لمن هذا السؤال من خلال استعراض واقع بعض المؤسسات الثقافية وما تقدمه من نتاج فكري.

إن الوطن العربي مازال يفتقد الاعلام الشعبي بصورة حقيقية، فمازالت معظم الصحف وكذلك الاذاعة والتلفزيون أدوات لقوى السيطرة تتحكم بها في الوعي الثقافي والاجتماعي والسياسي رغبة في المحافظة على الأوضاع القائمة.

ويعتبر احتكار وسائل الاعلام بهذه الصورة خطراً كبيراً على الثقافة العربية. يهدد صورتها الحقيقية ويشكل حرماناً للقطاعات الشعبية المختلفة من حقوقها الاعلامية، كما أن وسائل الاعلام تتحول الى أدوات للدعاية والاعلان لصالح هذه القوى بعيداً عن تطلعات الشعوب ومصالحها الحقيقية.

ومازالت القوى الشعبية في العالم العربي غير قادرة على انشاء اعلام خاص بها يعبر عن آمالها وطموحاتها في جو من الحرية والأمن.

هذا وقد تنبهت كثير من الدول المتقدمة بل الهيئات الدولية الى أخطار وسائل الاعلام الجماهيرية التي تنقل أعمالاً فنية جذابة

مشوقة، كالأفلام والمسلسلات التلفازية، ولكن حصيلتها النهائية هي تكوين اتجاهات تميل الى العنف الدموي أو فقدان الاحساس بالتعاطف الانساني، أو الاعجاب بأنواع زائفة من البطولات، أو التفنن في أساليب ارتكاب الجرائم، أو الميل المفرط الى الاستهلاك المقصود لذاته والذي لا يخدم أي هدف معقول.

هذه الأعمال الاعلامية الهشة ذات القشرة الفنية الهشة التي تتغلغل في كل بيت وتثبت قيماً غريبة غير مقبولة. ومن عجائب المفارقات في بلادنا العربية أن الدول التي تحارب الفكر المستورد بضراوة هي عينها التي تفتح أبوابها على مصراعيها لهذا النوع من الإعلام المفترض، ولا تبذل أي جهد لحماية مجتمعها من التأثير الهدام لهذه الأعمال الفنية ذات الجاذبية السطحية الرخيصة، وهكذا ففي كثير من المجتمعات التي كانت تقوم على التكافل والتساند بدأت تظهر قيم الانانية والتزاحم وحب الظهور والرغبة في التسلق على أكتاف الآخرين، وأخذت الأجيال القديمة في هذه المجتمعات تتساءل يومياً عما حدث لتراثها المعنوي الذي يزداد اختفاء يوماً بعد يوم، وتترحم على أخلاق الأجداد وقيمهم الانسانية دون أن تبذل أي جهد في محاربة هذا النوع البالغ الضرر من الفكر المستورد.[1]

وعن اقتصار الاعلام على تقديم النموذج الغربي يقول الدكتور عبدالعزيز كامل: لو كان للاعلام عندنا أن يبرز النماذج المتعددة دون

---

١ ـ الدكتور فؤاد زكريا. المرجع المذكور ص: ٩٠

الاقتصار أو التركيز على النموذج الغربي وما يختاره منه ـ وأكثره أفلام عنف واغراق في المادة وصراع عنيف حولها ـ ولو كان للاعلام أن يعطي صورة متوازنة للعالم حولنا مع توضيح مناهج الحياة المتعددة كالنموذج الياباني وغيره، لاستطاع أن يسهم بمساهمة أكبر في ترسيخ قيم هي دين وفطرة في الوقت نفسه.[1]

وفي أكثر من مسلسلة من مسلسلات التلفزيون الأجنبية كنت ألاحظ ابرازاً لأساليب الحياة المسيحية، وكأنها تأتي عرضاً في الفيلم، أو مرتبطة بحياة بطل من أبطالها، وأحياناً ينتهي الموقف بعبارة من الانجيل كأنها تلخيص له أو كأن الموقف كان تفسيراً لها، يأتي الموقف ـ أو الرواية ـ وفي ختامها هذه العبارة فتكون آخر ما يرسب في ذهن المستمع أو المشاهد.

ويعرض الدكتور عبدالعزيز كامل صورتين متقابلتين لرجلي الدين المسلم والمسيحي في الأفلام، حيث تصور الأفلام الأجنبية رجل الدين على أنه صاحب دور ايجابي فعال في مسيرة المجتمع، على حين تصور بعض أفلامنا رجل الدين وكأنه يعيش في غيبوبة عن الوجود وعليه وقار مصطنع في اللبس والحديث والتصرف.

ويرصد الدكتور عبدالعزيز كامل بعداً آخر للانعزال في أفلامنا حيث يلجأ المخرج الى التشبه بأفلام الغرب، فيأتي الاغراق في

---

١ ـ الدكتور عبدالعزيز كامل. المستشار بالديوان الأميري بالكويت. والنائب السابق لرئيس الوزراء لشئون الأزهر، ووزير الأوقاف المصرية. الاعلام الديني والتربوي. المسلم المعاصر العدد ٣٢ ١٤٠٢هـ. ص: ٧٩، ٧٥، ٧٦.

الملذات واللجوء الى شرب الخمر أو السجائر دفعاً للقلق أو تعبيراً عن الرفض، وفي هذا توجيه سيىء للشباب، حبذا لو حلّ محله تماسك أمام أحداث الحياة.. وصعود بالألم الى التغلب عليه بالصبر والفكر الواضح.[1]

كما أن الأفلام والمسلسلات التي تتناول تاريخنا تركز على الصور المنحرفة فيه مثل صور القيان والجواري والخلفاء والسعي وراء المادة والشهوات، وأكثر من ذلك يصورون الحكام صوراً مشوهة تعكس النظرة الغربية اليهم وتحط من قدرهم، وكل هذا التشويه أو الانحراف في عرض التاريخ من خلال الأفلام لا يقابله عرض للصور المضيئة والمشرقة فيه بطريقة طيبة تغري بالانتماء والاقتداء.

ان اقتصار الأفلام والمسلسلات على عرض النماذج السيئة والمنحرفة من تاريخنا أمر يدعو للأسى لأن هذه النماذج لم تكن في الحقيقة الاّ خروجاً عن روح الأمة، وديانتها، كما أن تشويه التاريخ من خلال الأفلام أخطر من ذلك، لأن النتيجة الطبيعة هي الرفض والتمرد على قيم هذا التاريخ أو على الأقل لبعض قيم الأصالة فيه.

ويهتم التلفزيون والاذاعة اهتماماً مبالغاً فيه بالفن والفنانين والفنانات كأنما هما وعاء للفن وحده، على أي صورة كان هذا الفن!! وكأن ليس فوق الأرض الاّ الفنانون والفنانات لا نتركهم حتى وهم في أجداثهم على حين ننسى العلماء والمصلحين والأدباء المخلصين الذين يعبرون عن نبض الأمة وحسها، ان العناصر الثقافية التي

---

١ ـ المرجع السابق.

يقدمها التلفزيون تؤذن باختلال ثقافي لا حد له.

وهذه شهادة على الواقع الفني لأحد النقاد المتخصصين، وهو نعمان عاشور يقول: ان موجات الجنس والجريمة والعنف تطغى على أفلامنا السينمائية والمساخر الفكاهية الهزيلة التي تسيطر على النشاط المسرحي، والمسلسلات العقيمة المتفشية في التلفزيون، وهذا الهزو السخيف الذي تفيض به فقرات البرامج الثقافية ناهيكم بالكتابات الفارغة الفجة التي تملأ صفحات الكتب والمجلات، انما يخلقها دائماً الانهيار الفني والتردي الأدبي وهبوط المستوى الثقافي، وكل ذلك منبعث عن مصدر واحد هو اعتبار الفن مجرد أداة من أدوات التسلية والترفيه التي يصلح بيعها كسلعة تدر الربح.[1]

ويرى أنور الجندي أن صورة المسرح لدينا صورة مسفهة ومفزعة سواء في مجالها الضاحك أو القائم على تصوير المآسي، أما المسرح الهزلي (الكوميدي) فإنه يقوم على اهدار القيم الاجتماعية والاستخفاف بالثقافة وبالتالي تلهية الناس عن واقع حياتهم عن طريق الفكاهة المفتعلة وهي في مجموعها محاولات لخداع الناس سواء عن واقعهم أو خداعهم عن المفاهيم الأصيلة، تدور في قصص لا تنقصها سذاجة الفكر ولا سطحية المشاعر والاحاسيس، وبذلك يصبح المجتمع صدى لمجتمعات الخنافس والعبث واللامعقول وغيرها من فنون الانهيار الفكري والتصدع الاجتماعي وأبرز معالم هذه الفنون النزول بأذواق المشاهدين الى حد الاسفاف.

---

١ - عن أنور الجندي. الصحافة والأقلام المسمومة. ص: ١٢.

أما مسرح المأساة فإنه يقوم على قصص ذات وقائع مفتعلة، ليست من طبيعة الحياة، تستهدف خلق روح القلق والتمزق في النفس الانسانية، وهي منقولة نقلاً أو مترجمة ترجمة فعلية من المسرح الغربي بأحداثه وظروف مجتمعه ولا تمثل مجتمعنا بوجه من الوجوه.[1]

ان الباحث يرى أن القصة والرواية العربية بوضعها الراهن لا تعبران عن الوجه الحقيقي المشرق الذي ينبغي أن يكون للثقافة العربية، بل لا نبالغ اذا قلنا أنهما أقرب الى القصة والرواية في الغرب، وذلك أننا قد اقتبسناهما عن الغرب شكلاً ولم نستطع أن نتجاوزهما موضوعاً، فأتى مضمون قصصنا ورواياتنا شبيه الى حد كبير بمثيله الغربي. حيث آثرت هذه الأشكال الفنية أن تحصر نفسها في اطار العلاقات المشينة بين الرجل والمرأة وابراز جوانب الشهوات والفساد والاباحية الجنسية، وأولت اهتماماً كبيراً للمسائل الجنسية وأولعت في الإتيان على دقائقها ونشر قصص الخيانة والاغتصاب والاستهتار والجنون وانتهاك الأعراض المصونة.

فهذه القصص والروايات والمسرحيات لا تعبر في مجملها عن واقعنا الاجتماعي وقيمنا الثقافية بل هي تسوق النموذج الغربي في الفكر والسلوك والحياة وتبشر به في اطار من التشجيع والتزيين، وتأتي بعد ذلك قصص العنف والجريمة والتي فاقت في تأثيرها على النشء كل تأثير ضار حتى ظهرت بوادر اجتماعية لم يخطر ببالنا يوماً أن تكون كقتل الأزواج والزوجات والآباء والأمهات والأقارب والاغتصاب ثم

---

١ ـ المرجع السابع ص: ١١٤

القتل، وزنا المحارم والاختلاس والتزوير والسرقة المنظمة. وغير ذلك.

ان القصة أو المسرحية حين تحصر نفسها في اطار الجريمة والجنس تبعد كثيراً عن أن تكون معبرة عن ثقافتنا ولا نملك ازاء ذلك الاّ الدعوة للكتاب كي يتلمسوا قصصهم من واقعنا الذي نعيشه وأن يعالجوا مشاكله من منظور قيمنا الشرقية العربية الاسلامية.

ولم تعبر الصحافة هي الأخرى عن واقع الأمة بقدر ما عبر عن ارتباطها بعجلة الثقافة الغربية وترى الدكتورة عواطف عبدالرحمن أنه على الرغم من اختفاء الصحف الموالية للسلطات الاستعمارية عقب حصول الدول العربية على الاستقلال منذ بداية الخمسينيات الاّ أن ذلك لم يمنع من استمرار التبعية الفكرية والسياسية للفكر الاستعماري الغربي في بعض الصحف العربية سواء في المشرق أو في المغرب كما تقرر أن هذه الظاهرة لا تزال تتخذ أشكالاً متنوعة حتى اليوم.[1]

كما تحدد الدكتورة عواطف عبدالرحمن عند تحليلها للتبعية الاعلامية في العالم العربي - محورين أولهما: يتعلق بالبعد المحلي والآخر بالبعد الدولي، وتلاحظ عند تعرضها للبعد الأول أن الحكومات العربية حرصت على فرض سيطرتها الكاملة على وسائل الاعلام، وخصوصاً الصحف بعد الحصول على الاستقلال مباشرة وذلك كجزء من استعادة السيادة الوطنية على مصادر التعبير الثقافي

١ - قضايا التبعية الاعلامية والثقافية. ص: ١٢٠.

والاعلامي، ومع توالي الأحداث والتغيرات السياسية والاقتصادية التي شهدها العالم العربي بعد الاستقلال ضاعفت الحكومات العربية من سيطرتها على وسائل الاعلام. وكان الاستخدام الأكبر لها هو تسخيرها لدعم النفوذ السياسي والإيديولوجي لهذه الحكومات من خلال الترويج المتواصل لأفكارها ومواقفها والتأييد المطلق لقراراتها وأساليبها في الحكم وأكثر من ذلك فالآراء المخالفة لرأي الحكومات تتعرض للمصادرة وفي الحالات القليلة التي تنشر تتعرض للعديد من التعديلات على أيدي حراس البوابات الاعلامية من رؤساء التحرير وأمثالهم كما تمر المواد الاعلامية عموماً بعدة مراحل من الحذف والتعديل والتنقيح والتحوير والاضافة والتلفيق والاقتصار على مصادر اخبارية معينة دون سواها وذلك بهدف وصولها في النهاية الى القارىء في صورة ترضي الحكومات العربية وتدعم سلطتها الفكرية ونفوذها السياسي.

وترى الدكتورة عواطف أن وسائل الاعلام العربية تقع تحت رقابةمشددة من قبل الحكومات وتتخذ هذه الرقابة أشكالاً متنوعة وغالباً ما تستند الى قوانين مدونة وقد تكون غير مدونة، ثم يأتي أخطر أنواع الرقابة الشائعة في الصحافة العربية اليوم وهي الرقابة الذاتية التي يمارسها رؤساء التحرير والصحفيون من تلقاء أنفسهم دون الحاجة الى وجود رقيب رسمي.

ويتفق صلاح الدين حافظ ـ في مقال له بعنوان: حرية الصحافة ـ المأزق والمخرج ـ مع الرأي السابق ـ بقوله: اذا كان في السلطة التنفيذية من لا يزال يرى أن الصحفيين أبواق توابع له، فإن

في الصحافة نفسها بعض من يرى نفس الرأي ويمارس المهمة بدأب، واهباً نفسه وقلمه وضميره وشرفه المهني لمن يعتقد أنه صاحب سلطة أو سطوة.[1]

ثم تتعرض الدكتورة عواطف عبدالرحمن لسيطرة الحكومات العربية على وكالات الأنباء المحلية وترى أن ذلك قد أصاب هذه الوكالات بعديد من السلبيات أخطرها استخدامها كأداة في تغذية الخلافات السياسية بين الحكومات العربية، ووقوع تحول معظم هذه الوكالات العربية للتبعية بصورة مغلقة لسيطرة وكالات الأنباء الغربية

وتدعو الكاتبة الى توحيد الجهود لانشاء وكالة أنباء عربية تكون هذه الوكالات القطرية فروعاً لها وتتولى هذه الوكالة التعامل مباشرة مع وكالات الأنباء العالمية، وتقوم بدورها القومي في حماية الاستقلال الاعلامي والثقافي للوطن العربي.

أما المحور الآخر للتبعية الاعلامية وهو البعد الدولي، فيتعلق كما توضح الدكتورة عواطف عبدالرحمن بتلك التبعية التكنولوجية التي تدين بها أغلبية الصحف ووسائل الاعلام العربية تجاه المؤسسات الغربية، وتقوم الشركات عبر القومية بدور كبير في هذا المجال، بل انها تسوّق أيضاً سلعاً استهلاكية ثقافية اجتماعية لا حصر لها تهدف في الغالب الى نشر أفكار ومعتقدات تؤدي الى تعميق الاغتراب الثقافي والاجتماعي لدى شعوب العالم الثالث. وتتعدد الأمثلة في الوطن العربي حيث انتشرت في السنوات الأخيرة فروع وتوكيلات

---

١ ـ الأهرام. ١٩٨٧/١٢/٢م.

العديد من الشركات المتعددة الجنسية.

ومما يجدر ذكره هنا أن نسبة عالية من البرامج التلفزيونية تستوردها الدول العربية من الولايات المتحدة وفرنسا وانجلترا عن طريق هذه الشركات، كما أن هناك ٢١ وكالة أمريكية من مجموع ٢٥ وكالة عالمية تحتكر الاعلان الدولي وتوجد لها فروعاً رئيسية في كل من تونس ولبنان ومصر

ان الشركات المتعددة الجنسية تمارس تأثيرها الرئيسي في تكريس التبعية الثقافية من خلال المضامين الاعلامية والثقافية التي تبثها في الصحف ووسائل الاعلام المسموعة والمرئية ومن خلال الترويج لقيم اجتماعية وثقافية مستوردة مما يعني في النهاية مسخ الخصائص القومية المميزة للثقافة العربية وتشويه مقومات الشخصية العربية

ويبدو هذا بشكل ملموس في ازدياد حجم المواد التلفزيونية المستوردة في الوطن العربي وهي تتضمن البرامج الروائية القصيرة والمسلسلات الطويلة والبرامج الاخبارية وبرامج الترفيه، وتعتمد جميع مؤسسات التلفزيون العربية اعتماداً كبيراً على هذه المواد المستوردة.

وأخيراً. يتعرض الاعلام العربي للتبعية التامة لوكالات الأنباء العالمية والتبعية الأكاديمية لمعاهد وكليات الاعلام الغربية سواء في المحتوى المتداول فيها أو في طرق اعداد الاعلاميين أو ما يصدر منها من دراسات وبحوث ويظهر هذا النفوذ سافراً في كل من لبنان

ومصر ومن خلال أقسام الاعلام بالجامعة الأمريكية في كل من بيروت والقاهرة.[1]

ولعل هذا يعيد الى الأذهان الاعتراف الذي قدمه محمد التابعي (أستاذ الجيل من الصحفيين)عن تبعية الصحف للقوى الأجنبية بقوله: هذه الصحيفة صنيعة أمريكا، وهذه الصحيفة مأجورة للانجليز، وهذه المجلة تصدر بأموال شيوعية، وهذا الصحفي يتلقى أوامره ومرتبه الشهري من موسكو أو وارسو أو براغ، وهكذا أصبحنا جميعاً نحن الصحفيين بين فاسدين ومفسدين، ومنافقين وخونة، مأجورين للكتلة الغربية والكتلة الشرقية، وأصبح الشعب في حيرة من لسانه المسموم، الصحف التي أيدت الطغيان ودافعت عن الفساد، والصحفيون الذين مرغوا جباههم تحت أقدام الطغيان بعد أن أسفر الطغيان.[2]

وتمثل الصحافة المحضن للإيديولوجيات المختلفة التي روج لها الكثيرون كما كانت من قبل ميداناً للدعوة لإحياء الإيديولوجيات البائدة كالفرعونية والفينقية التي وقف الاستعمار وراءها وساندها باعتبارها جزءاً من الثورة المضادة للعروبة، لأنها تحاول أن تثير الشك في سلامة الفكرة العربية الاسلامية، واذا كان الاستعمار قد رعى هذه الدعوة وغذاها الى أبعد مدى فقد كان يحاول من وراء خلق جيل مشبع بوهم روح هذه الحضارات البائدة، وكاره في الوقت نفسه

---

١ ـ قضايا التبعية الاعلامية والثقافية. ص: ١٢٩ ـ ١٤٥

٢ ـ عن أنور الجندي. الصحافة والأقلام المسمومة ص: ٦٨ ـ ٦٩.

للوحدة العربية ويقول رجاء النقاش: لقد أصبح واضحاً بعد مرور أكثر من ربع قرن أن قيادات حزب القوميين السوريين كانت متصلة من ناحية التمويل والتوجيه بالسلطات الاستعمارية الأجنبية وكان الهدف من قيام الحزب أن يكون عنصراً من العناصر المساعدة على تمزيق الأمة العربية واعاقة أي تطوير مادي أو فكري لها.[1]

ومازالت الأهداف الاستعمارية القديمة قائمة وان تغيرت الأساليب لتصبح أكثر نعومة وخبثاً، وهذا ما يمكن ملاحظته في كثير من الصحف والمجلات التي تروج اليوم لإيديولوجيات سياسية لم تنبع عن أرضنا ولكنها غريبة اللحمة والسداة، ومع الاغراء بها تستقطب كثيراً من الشباب الغض الفكر متسببة بذلك في كثير من البلبلة الفكرية للأجيال العربية الناشئة، وهي في حقيقتها ثورة ضد الفكرة العربية الاسلامية وثقافتها الأصيلة.

وتلعب الصحافة دوراً خطيراً في الترويج للأفكار التي طرحتها مؤسسات التبشير والاستشراق والتغريب، وعرضها في أساليب جديدة تغري بها وتدعو الى اعتناقها، كما هاجمت الصحافة التراث العربي ووصفته بالجمود والرجعية والتحجز واعتبرته قيداً على التطور والتقدم، وقال الدكتور يوسف ادريس عنه انه صحائف صفراء ودعا الى احراقه، وشاركه في هذا الهجوم الدكتور لويس عوض والدكتور صفي الدين أبوالعز وزير الشباب الأسبق الذي نعى على الأمة ما تبذل من مال وجهد في سبيله، وقال أن الاهتمام بالتراث يعوق

---

١ ـ عن المصدر السابق. ص: ١٦٥.

حركة الشباب ويحد من انطلاقه، وبالجملة فقد اتخذ أعداء الفكر الاسلامي من الصحافة منطلقاً للهجوم على مقومات هذه الأمة وأهمها التراث.

وتعتبر الصحافة العربية الحديثة مسئولة عن كثير من السوءات الاجتماعية التي حلت بمجتمعاتنا وهي مسئولة أيضاً عن العديد من القيم والمفاهيم والسلوكيات الغربيةالتي ملأت حياتنا، لقد كان مجتمعنا العربي دوماً له صبغته الخاصة التي تحكمه وأعرافه وتقاليده التي يسير عليها، وقيمه ومفاهيمه التي يعتقنها. هذه المقومات والخصوصيات الثقافية أضحت في خطر شديد من جراء الصحافة التي تسلك مسلكاً تغريبياً محضاً.

إن الخصوصيات الثقافية العربية تعرض كثير منها للتبديل وربما الانعكاس تحت معاول الأقلام المسمومة التي زينت لنا الحياة الغربية بكل صورها وأعرافها، لقد انتشرت دعوات كثيرة في الصحافة العربية لتحارب كل ماهو قديم وموروث دون تبصر باعتباره ـ عندهم ـ رجعية وعودة الى الوراء وبتصويره على أنه شيء من مخلفات الماضي يعوق عن الانطلاق والتقدم.. والطريق الى الحضارة والتقدم يفرض علينا طرح هذا الماضي بكل أبعاده واتباع الأسلوب والمنهج الغربي في الاجتماع.

وكثير من الكتابات دعت الى نبذ الدين والأخلاق العربية الأصيلة، وأخذت بيد المرأة الى الانطلاق بلا قيد من حياة الأسرة وحدودها، ودفعتها الى النمط الأوروبي في التفكير والسلوك ورسمت

لها حياة جديدة مشعشعة بالألوان الزاهية الخالية من مسئوليات الأسرة، ودفعتها الى التمرد على قوامة الرجل (المزعومة) وارتياد الأماكن المشبوهة والقيام بالأعمال التي تنافي أنوثتها أو أمومتها.

لقد أهانت صحافتنا المرأة عندما أوحت اليها أن تسلك مسلك المرأة الغربية في زيها ولبسها وعملها وأسلوب حياتها الذي يبدو بلا ضوابط على الاطلاق، وأخطأت هذه الصحافة عندما صورت أخلاقنا وتقاليدنا العريقة بأنها التخلف والجمود، وصورت المسلك الغربي على أنه الحضارة والنور.

لقد عمد كثير من صحفنا ومجلاتنا الى نقل إيقاع حياة المرأة الغربية الى مجتمعاتنا عن طريق عرض الأزياء الأوروبية والزينة والمتارف الجمة التي استهوت المرأة العربية، كما عمدت الى نقل سيل من القصص وترجمتها لتكون دعوة مستوردة الى نمط جديد يسود حياة المرأة وعلاقتها بالرجل داخل النسق الاجتماعي.

ان ما يمكن أن نسميه تحللاً وخروجاً على الدين والخلق في مفهومنا الشرقي قد لا يعتبر عند الغرب كذلك بل ينظر اليه على أنه أمر عادي، لكن يبدو أن الصحافة العربية قد عمدت الى تغيير هذه الأبعاد من خلال الدعوة الى حرية المرأة بلا قيود ومساواتها بالرجل بلا حدود. فللمرأة الحق في أن تخرج على سلطان الأسرة وترفض قيود الزواج وتغشى أماكن اللهو وترتاد الرحلات الى الخارج وتمارس أساليب (الفن الجميل).

لقد فقدت المرأة العربية كثيراً من أصالتها الفكرية والسلوكية

بتأثير تيارات مضللة اتخذت من الصحافة ميداناً لها، ومن بعض الأقلام المسمومة دعاة دهاة لمبادئها ومقولاتها، حتى أصيبت حياتنا بأعاصير لم نعد نر خلالها صورة مجتمعاتنا العربية الأصيلة التي تتميز بالعفة والخلق القويم وتستمسك بالدين.

ويمكن أن نرصد أهم ما أثرت به هذه الصحافة التغريبية في المرأة العربية في الآتي:

- بعد أن كانت تحترم المرأة العربية الأسرة والحياة الزوجية صارت تراها قيوداً على حريتها وعناء وارهاقاً لأنوثتها.
- احاطة المرأة العربية بجو مسموم من موضات الملابس والزينات التي تعتري جسدها وتكشف محاسنها، واغواؤها بحب الظهور وجذب أنظار الرجال اليها، على حين تدعو أخلاقنا الى ألاّ تكون المرأة عامل اغراء أو فساد في المجتمع.
- تصوير الحياة على أنها صراع دائم بين الرجل والمرأة في البيت والعمل والأسرة بل الحياة بأسرها واغراء المرأة بالتمرد على الرجل أو التربص به والتحدي له، بدلاً من أخلاقيات المودة والرحمة والتآزر التي كانت تسود مجتمعاتنا.
- اغراء قطاع كبير من النساء بحياة اللهو والبعث المجنون، وخلق طائفة من سماسرة الأعراض ومحاولة جعل هذا القطاع من النساء مثلاً أعلى للفتاة العربية.
- تخويف المرأة العربية من دينها بتصويره على أنه قيد على حريتها وحقها في الحياة العصرية، وان فيه حطاً من قيمتها أمام الرجل وتهويناً من شأنها، وأن حياتها الجديدة (الكريمة!!) تقتضي منها أن

تنبذ فيما تنبذ دينها بقيود وجموده.

- تغيير أعراف المرأة العربية وتقاليدها بتغيير نظرتها الى علاقتها بالرجل من خلال قصص الحب المترجمة المكشوفة التي تهون من شأن الخيانة الزوجية وتبررها، وتوحي بأن العفة والبكارة تراث من الماضي، وتدعو الى اقامة علاقاته الحب بين الرجل والمرأة بلا ضوابط من دين أو خلق.

وكان لهذه الصحافة تأثيرها السلبي على الشباب فدعته الى نمط الحياةالغربي، ونفرته من الدين بطرق مختلفة، ووضعت بينه وبين الأخلاق الفاضلة حواجز وموانع، وفتحت له أبواب الشر والفتن من خلال منشوراتها عن الجريمة والعنف والجنس والاثارة والشذوذ وأغرته بتقليدها دون مراعاة للقيم والتقاليد العربية الأصيلة، حتى أنها عندما أشارت الى أزمات الشباب العربي لم تبدأ بداية سليمة بردها الى أصولها الصحيحة، ولكنها تحاول أن تربطها بأزمات الشباب في الغرب على الرغم من البون الشاسع بينهما.

وفي المجموع العام للحصيلة التي تقدمها الصحافة تجد ظاهرة التفاهة فالمحاولة كلها تهدف الى خلق مزاج نفسي اجتماعي من مجموعة من المعلومات السخيفة الساذجة التي تجعل من أبناء المجتمع جماعة من التافهين الذين لا يستطيعون الارتفاع الى قدر من الثقافة العالمية أو الفهم الأصيل للحياة أو امتلاك الارادة لمعرفة وبحث ودراسة القضايا العليا.[1]

---

١ ـ أنور الجندي. الصحافة والأقلام. المسمومة. ص: ٧٠

وقد اتضح هذا المسلك كثيراً في المترجمات الأدبية الفاسدة التي قدمتها الصحافة دون أن تهدي الى وجه الحق ازاءها أو تقارن بين ظروف المجتمعي العربي والغربي، بل تقدمها في صورة تبشر بها وتسمها بالروائع وفي ذلك دعوة للسير على الخيط الممدود من هذه القصص والمسرحيات والروايات في الأخلاق والاجتماعات.

وعندما تستعرض كتابات الصحف تدهش فأنت ترى الصحافة مدافعة عن كل نظرية باطلة في علوم النفس أو الاجتماع أو الأخلاق فهي تدافع عن أدب الفراش والجنس، وتدافع عن العامية في اللغة وتدافع عن الشعر الذي يحطم عمود الشعر، وتدافع عن الفرعونية وتدافع عن الفكر الاغريقي والباطني وعن الوجودية وتدافع عن الخمر، وتترك حيزاً قليلاً بعد ذلك لكلمات الدين أو الأخلاق لا تخلو من تهافت أو اضطراب.[1]

والكتاب - هو الآخر - بعيد عن أن يكون مرآة صادقة للمجتمع العربي، والكاتب المعاصر على الغالب متخل عن أداء دوره في التصحيح والتقويم والريادة، وبدلاً من أن نجد رفوف المكتبات حافلة بالكتب التي تحلل هموم الانسان العربي وتجيب على تساؤلاته نفاجأ بكتب لا صلة لها بحياتنا اليومية، ولا تلبي حاجاتنا الملحة ولا تعالج أمراضنا التي نتألم منها ونتوجع ولا تتجاوب مع قلقنا التائه بين اليأس والرجاء.[2]

---

١ - المرجع السابق. ص: ١٤

٢ - بهيج عثمان. المرجع المذكور ص: ١٢٧

وتسهم في وجود هذه الظاهرة ـ البعد عن معالجة الواقع ـ عوامل أخرى غير تقصير المؤلفين، ذلك أن الرقابة لا تزال شديدة في كثير من الدول العربية على المطبوعات ووسائل التعبير ولا تزال النظرية السائدة في وطننا العربي هي تأميم وسائل الاعلام والنشر من جانب الحكومات وعدم السماح بنشر ما يخالف سياساتها أو توجهاته الفكرية، ومصادرة الأعمال التي لا ترضى عنها أو تعتبرها نوعاً من التهديد لها، كل ذلك ينعكس على الناشر الذي يرفض ويخشى نشر الموضوعات التي تعالج الواقع العربي أو تنتقده خوفاً من المصادرة أو الاضطهاد وهذا ينعكس بدوره على المؤلف الذي يتوقف عن الكتابة في مثل هذه الموضوعات أو يتخذ خطاً آخر مسالماً للواقع أو يهرب لينشر أعماله خارج الوطن العربي.

ومجامع اللغة العربية هي الأخرى انعزلت في أبراج عاجية وقصور ضيقة وراء أسوار ومكاتب، ولم تعد حارسة للغة وأمينة عليها لأنها لم تعد متفاعلة مع الحياة المتزايدة، واكتفت بإصدار بعض الفتاوى والدراسات اللغوية، ولم تسهر على تطبيقها حتى في أسلوب موحد، ومن هنا بدأ الانفصام اللغوي بين المناهج اللغوية والتطبيق العملي. وعلى المجامع تقاس بقية المؤسسات المعنية بأمر اللغة.[1]

وأمام هذا الواقع الثقافي تضع وزارات الثقافة في الوطن العربي سياسات تستخدم فيها التعميمات والتبسيط والتهويل في الألفاظ

---

١ ـ محمد عدنان سالم. دور الناشر العربي في التوعية اللغوية الناشر العربي. العدد الرابع ٩١٨٥. ص: ١٦٣ ـ ١٩٦٤م.

وتنظر الى الواقع فلا ترى مابه من أدواء وبالتالي لا تضع له دواء، بل انها تقتصر على رسم عدد من الخطوط لمشروعات ثقافية مقبلة لا يتحقق منها شيء كثير بل تظل حبراً على ورق، وقد تتطوع مؤسسات أجنبية بتنفيذ بعض المشروعات الثقافية الواردة في السياسة الثقافية فيكون ذلك بابا للتسلل داخل الثقافة الوطنية وتشويهها أو تدميرها أو الانحراف بمسارها.

ان أبرز سمات السياسات الثقافيةالوزارية أنها لا تضع المثقفين المبدعين للثقافة في اعتبارها وبالتالي لا تهتم بوصل جسور العمل معهم، ولذلك تظل هذه السياسات بعيدة عن الواقع تفتقد الهدف الكبير والوجهة الصحيحة، وأكثر من ذلك ما يحدث من صراع بين بعض المسئولين عن الثقافة وبعض المبدعين وما يتم من تناوش بين الإدارات الثقافية.

ويمكن أن نضيف الى ذلك أن اتحادات الكتاب والفنانين تعتبر مؤسسات رسمية تخضع لسياسة الحكومة أكثرها مما تخدم الواقع الثقافي، ولعل هذا ما أدى بها الى حالة من الانتكاس والانهيار، ومن المجدي أن تستشهد على ذلك بقول الدكتور لويس عوض: لقد بدأ انهيار مؤسسات وزارة الثقافة بعد ١٩٧٠م حين تحولت الى سنجقيات مملوكة أعلنت استقلالها عن باشا الثقافة أولاً بتحريض من مراكز القوى في الاتحاد الاشتراكي، ثم تحت لواء استقلالية «البيوت الفنية» وتحت شعار فلسفة اللامركزية التي كان يغذيها نظام الرئيس السادات في هيكل الدولة كله، وبعد أن كان التخطيط مركزياً والتنفيذ محلياً انفردت كل هيئة بميزانيتها دون حسيب أو رقيب، وأصبح يمثل سلطة

بغير مسئولية، ثم تضخم رؤساء القطاعات فأصبحوا أقوى من رؤساء الهيئات والمؤسسات.[1]

وبعد كل ذلك ورداً على السؤال الذي طرحناه في البداية نقول أن أدوات الثقافة عندنا هي أدوات تطويع لعقل الفرد وهدهدة لغرائزه ودغدغة لمشاعره على حين ينبغي أن تكون أداة توعية وحفز واصلاح.

واقع حركة النشر العربي

إن أحد المداخل الى استكشاف الواقع الثقافي العربي هو حركة النشر، فالقيام بدراسة تحليلية لانتاجنا الفكري والثقافي من الكتب والمطبوعات يعطي مؤشراً صادقاً عن أهم الجوانب في واقعنا الثقافي يصلح بعد ذلك للحكم على هذا الواقع، ولا ريب في أن قطاع النشر العربي قد مثل بإيجابياته وسلبياته انعكاساً واضحاً لواقع الثقافة بكل ما يطبعه من قلق واضطراب وتخبط وتشتت وتناقض وفقدان الاتجاه، وفي هذا الخضم المضطرب، وجدت دور النشر المشبوهة سبيلها الى اختراق حصون الأمن الثقافي العربي فأخذت تسرب اتجاهاتها المعادية.[2]

ولا يدعي أحد أن محاولة استكشاف واقع الثقافة العربية من خلال دراسة تحليلية للانتاج الثقافي أمر هين، بل هو على العكس من

١ ـ الأهرام: ١٩٨٨/٣/٢٦م.

٢ ـ خليفة محمد التلبسي. نحو استراتيجية للنشر العربي. العدد الرابع. ١٩٨٥م. ص: ٤.

ذلك تماماً، فهذه المحاولة تصطدم بعوائق عديدة يفرضها الواقع الثقافي ذاته، ويزداد الأمر تعقيداً أمام قلة مصادر المعلومات البيولوجية وعجزها عن اعطائنا صورة شاملة، ولم تجر دراسات بيولوجرافية للانتاج الفكري العربي ككل غير الدراسة التي قام بها أحد الباحثين[1] لمحتويات النشرة العربية للمطبوعات لعامي ١٩٧٠م و ١٩٧١م ويتبين منها أن مطبوعات النشر التجاري هي أكبر فئات المطبوعات وتستأثر بنسبة أكثر من ٦٤,٧٢٪ تليها الكتب الدراسية ويبلغ نصيبها ١٦,٢٧٪ على حين تأتي كتب الأطفال والناشئة في المرتبة الرابعة ٣,٠٢٪، أما المرتبة الخامسة والأخيرة فتحتلها الرسائل الجامعية ٢,٩٦٪، كما يتبين من التحليل اللغوي لمحتويات عام ١٩٧١م، ان العربية تحتل الصدارة وتحظى بنسبة ٨٦,٦٣٪ تليها الانجليزية وتحظى بنسبة ٨,٦٪ ثم الفرنسية ٣,٠٧٪ ثم الكردية والفارسية ٠,٠٧١٪ ثم مجموعة اللغات الأخرى.[2]

ويظهر من الجدول التالي الذي يبين الانتاج العالمي من الكتب اختلال التوازن في توزيع الكتب وانتاجها في العالم، فبينما تعاني دول من مجاعة ثقافية تظهر أخرى متخمة ثقافياً، ومن الجدول يتضح

---

١ - مصطفى حسام الدين. النشرة العربية للمطبوعات. دراسة منهجية نقدية مقدمة الى المؤتمر الثاني للإعداد البيولوجي للكتاب العربي. بغداد: ١٩٧٧م. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم.

٢ - حشمت قاسم. مصادر المعلومات. دراسة لمشكلات توفيرها بالمكتبات ومراكز التوثيق. مكتبة غريب. القاهرة: ١٩٨٦م. ص: ٣٦، عن أبوبكر محمد الهوش. المرجع المذكور. ص: ١٠٥

ضعف الانتاج العربي من الكتب بالنظر الى الدول المتقدمة مما يضع الوطن العربي في مواجهة ثقافية خطرة سلاحها الكتاب وهدفها استلاب العقل العربي عن طريق تصدير الثقافة اليه لسد جوعته الثقافية.

المجموعات المنتجة	الانتاج لسنة		نسبة عدد العناوين لكل مليون نسمة	
	١٩٧٥	١٩٧٧	١٩٧٥	١٩٧٧
الانتاج العالمي	٥٦٨,٠٠٠	٦٠٨,٠٠٠	١٨٥	١٨٧
افريقيا	١١,٠٠٠	١١,٠٠٠	٢٧	٢٦
أمريكا	١٢١,٠٠٠	١٢٤,٠٠٠	٢١٦	٢١٣
آسيا	٨٨,٠٠٠	١٠١,٠٠٠	٦٥	٦٨
أوروبا	٣٦٤,٠٠٠	٢٨١,٠٠٠	٥٥٨	٥٥٨
استراليا	٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	٢٣٤	٢٤٥
الاتحاد السوفيتي	٧٩,٠٠٠	٨٥,٠٠٠	٣١٠	٣٢٨
البلاد العربية	٤,٩٠٠	٥,٦٠٠	٣٥	٣٨

(*) عن الكتاب الاحصائي السنوي لليونسكو، لا يدخل ضمن هذا الاحصاء انتاج الكتب لكل من الصين وكوريا الشعبية.

وبالاضافة الى الحقائق السابقة فإن المجاعة الثقافية التي يعانيها العالم الثالث لا يخرج الوطن العربي عن نطاقها، إن نصف القادرين على القراءة يعيشون في مناطق لا تنتج سوى خُمس المادة المقروءة في العالم، وهذا يمثل مصدر الاستعمار الثقافي الذي يسيطر فيه القلة على

الانتاج الفكري في العالم وتوجهه لصالحها، وبينما يقدر عدد سكان الوطن العربي بـ ٣,٣٪ من سكان العالم، فإنه لا ينتج سوى ١,١٪ من الانتاج العالمي من الكتب.

ويرى أحد المراقبين لحركة النشر العربي أنها مازالت تفتقر الى أسس علمية مما أوقعها في التخلف عن تحقيق المطلوب منها، وأبرز المؤثرات على ذلك هي:

١ ـ مؤسسات النشر على مختلف مستوياتها تعاني من النظم الادارية المالية المعقدة.

٢ ـ قصور مؤسسات النشر عن متابعة وملاحقة أحدث ما أنتجته مؤسسات النشر العالمية.

٣ ـ تعاني معظم مؤسسات النشر عن نقص الكوادر الفنية المؤهلة والكوادر العلمية.

٤ ـ تقصير وسائل الاعلام في الاعلام في الداخل والخارج، أثر في تسويق الكتاب والتعريف به

٥ ـ الافتقار الى شبكات لبيع الكتب في الوطن العربي على المستوى المحلي والقومي.

٦ ـ ارتفاع مواد الطباعة والقيود المالية والجمركية كلها أيضاً أثرت تأثيراً سلبياً في تطور مهنة النشر[1]

٧ ـ افتقاد حس الوعي الثقافي وحس المسئولية لدى فئة من الناشرين وتحول الأمر الى تجارة مربحة.

---

١ ـ الدكتور عبدالله محمد الشريف. المرجع السابق. ص: ٨٩، ٩٠.

٨ ـ يضطر بعض الناشرين الى ما تطوله يداه لتظل تدور دون توقف لأن توقفها يعني خسارة مادية ماحقة به

ويقدم بعض الناشرين على اصدار كتب تحمل عمقاً فكرياً أو حساً قومياً أو موضوعاً جدياً مدفوعين بالمجاملة أو المراهنة لشخصيات معينة من المؤهلين الذين يوصف انتاجهم بأنه غث ورخيص وبعيد عن متطلبات المرحلة التي تمر بها الأمة أو يدعو الى نزعات تخالف وحدتها أو عقيدتها.

فبعض المؤلفين تمتلكه الرغبة في أن يصير مؤسسة تؤلف الكتب بلا توقف، ويأخذه الفرح الصبياني كلما وجد اسمه على غلاف جديد غير ناظر آناء ذلك الى المسئولية تجاه ثقافة أمته أو الالتزام بالعمق والاجادة فيما يكتب، بل إن بعض المؤلفين يجمع كلاماً الى كلام كيفما اتفق، ويرص فصولاً الى أبواب يدفع بها الى صديقه الناشر لتستهلك المال والجهد والورق بلا طائل.

إن هؤلاء المؤلفين يمثلون تراجعاً ثقافياً للأمة، لأنهم يشغلونها بموضوعات سطحية وتافهة ويستهلكون قواها في غير نفع، وأكثر من ذلك فهم يدفعون بطريق غير مباشر بالمراهقين من المؤلفين كي يجربوا بدورهم حظوظهم في عالم التأليف، وهكذا يصير العقل العربي تحت رحمة بعض المتلاعبين بالثقافة والكتاب.

إن الأمن الثقافي يتهدد بقوة من جراء بعض الناشرين الذين يوسمون برقة ثقافتهم وقلة قدرتهم على التمييز بين الطيب والخبيث، وما يصلح للنشر وما ينبغي ألّا ينشر على الاطلاق. ان الناشر

العربي غالباً هو الذي يحكم بنفسه على المخطوط المقدم اليه لنشره، ويجهل أو يتجاهل الاستعانة بذوي الاختصاص في ذلك. ولو ألزمت كل دار نشرعربية نفسها بالرجوع الى ذوي الاختصاص في مراجعة ما يقدم اليها لنشره كما هي الحال في دور النشر الأجنبية - لتجنبنا الكثير من النتاجات الفجة والكتابات العقيمة التي تدخل بالعقل العربي في دوائر من التفاهة والسطحية والغموض.

وهكذا يظل الناشر العربي صاحب القرار الأخير فيما ينشر أو لا ينشر من نتاج فكري وثقافي، وتظل رؤيته الخاصة ومنظوره الفكري وتكوينه النفسي والأخلاقي المؤشرات الأساسية التي يدور عليها الكتاب العربي، وهذا يدفع بطائفة من المؤلفين الى مجاراة رغبات الناشرين في تشجيع لون معين من الأدب والفن والفكر والترويج لاتجاه محدد في العقيدة والسلوك. وهذا ما يجعل المؤلف في نهاية الأمر تابعاً في ركاب الناشر، كما عبر أحد الكتاب بقوله: ان كان الكتاب أو الشعراء قد تحرروا الى حد كبير من سلطان الأشراف والأثرياء فإنهم أصبحوا في حاجة الى التماس سلطان جديد هو الناشر [1]

كذلك هناك بعض الناشرين الذين يحملون توجهات فكرية أو عقدية معادية للمكونات الأصيلة للثقافة العربية، ويجعلون من دورهم أدوات لنشر إيديولوجياتهم المعادية للفكرة العربية الاسلامية وهم يمثلون في مجملهم عنصر شقاق خطرعلى الأمن الثقافي العربي.

---

١ - محي الدين صبحي. المرجع المذكور. ص: ١٣٥. بتصرف يسير.

وهكذا. تسير حركة النشر في العالم العربي على غير أسس علمية، مما أثر على واقع الكتاب العربي في عدد من جوانب القصور، فعلى الرغم من التزايد المطّرد في عناوين الكتب التي تنشر سنوياً باللغة العربية، الاّ أن العدد لايزال أقل بكثير من المعدل العالمي لإنتاج الكتب، وهذه الزيادة المطردة تحتاج الى جهود رسمية وغير رسمية منظمة، لرسم سياسة تعمل على تحقيق الازدهار الثقافي، ان الواقع يشهد عدداً من المعوقات في تسويق الكتاب داخل الوطن العربي مثل الجمارك والضرائب وقيود الاستيراد والتصدير، وهذا ما يؤدي الى ارتفاع ثمن تكلفته لقلة ما يوزع منه، وبالتالي وصوله الى القارىء بسعر باهظ.

كما يشهد الواقع بقلة عدد الذين يقبلون على القراءة من المتعلمين الذين يمثلون بدورهم فئة قليلة من السكان، مما يقلل كثيراً من الجدوى للمدارس والجامعات التي تخرج قارئاً جيداً جاداً.

لقد ازداد عدد القراء لكنه اتساع سطحي استفادت منه مجلات التسلية والكراسات السياسية والكروية السريعة، أما الكتاب الجدي فلم ينتفع بشيء من هذه الأعداد الكبيرة التي تتهافت على الورق المطبوع، أو التي تنصرف عن الكتاب والمجلة اجمالاً الى الاذاعة والتلفزيون والسينما، اضافة الى ظاهرة جديدة خطيرة، وهي اصدار سلاسل روائية رومانتيكية تطبع مائة ألف نسخة من الرواية في كل أسبوع، وهذا هو الكتاب العربي الحقيقي الذي أوصلتنا اليه عشرون إيديولوجية حاكمة في الوطن العربي، ومسلحة حتى الأسنان بكل

أجهزة الاعلام والرقابة والتسلط على فكر الفرد وضميره.[1]

ويذكرنا هذا بمقولة الزيات في الرسالة منذ نصف قرن: ليت الذين يطلبون من الأدباء أن ينتجوا ويجيدوا الانتاج، يطلبون من القراء أن يقرأوا ويحسنوا القراءة فلو كنا نقرأ لخلقنا الكاتب والكتاب، ولو كنا نقرأ لأخصبنا حقول المعرفة فازدهرت في كل مكان، وأثمرت في كل نفس ولو كنا نقرأ لما كان بيننا هذا التفاوت الغريب الذي تتذبذب فيه الأفكار بين عقلية بدائية وعقلية نهائية، ولو كان العالم العربي يقرأ لنشر من الكتاب زهاء المائة ألف، ووزع من الصحيفة قرابة المليون.[2]

إن حركة نشر كتب التراث تعاني من القصور بالقياس الى الماضي القريب، فكتب التراث المنشورة حالياً معظمها سبق نشره قبل ربع قرن، وما ينشر منها اليوم ليس الاّ تصويراً عن هذه الطبعات القديمة، وكثير منه ينقصه التحقيق العلمي بل ان بعضها مازال بصورته التي طبع عليها على الحروف الحجرية!!

ويتضح بعد آخر للمشكلة من خلال معارض الكتب، فمعظم الكتب المعروضة كتب تراث عاد نشرها أو تنشر لأول مرة مما يدل على أننا مازلنا نعيش بعقل الماضي ونجتر ثقافة الأجداد، كما أن معظم هذه الكتب في الدين والأدب واللغة، وقليل جداً أن نجد بينها كتاباً في العلوم الأساسية أو البحتة.

---

١ - المرجع السابق. نفسه

٢ - مجلة الرسالة. العدد مايو ١٩٥٧م.

كذلك الكتب المؤلفة حديثاً هي في معظمها نقل من التراث واعتماد عليه، فهي شرح له أو تعليق أو اختصار بما يدلل على أننا لم نتجاوز التراث بعد كما أن هذه الكتب المؤلفة حديثاً لا تخرج أيضاً عن الدين والأدب واللغة، وكأنه محرم عليها ولوج باب العلوم البحتة والتطبيقية أو هو عجز عن ذلك.

ان فقر المكتبة العربية في كتب الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء والجيولوجيا والهندسة والطب والصيدلة والعلوم التقنية واعتمادنا في ذلك على المراجع الأجنبية أو المترجمة يعكس حالة الانهزام والتأخر التي يعيشها العقل العربي وتعانيها الثقافة العربية. ان هذا الواقع لا يحتاج الى جهود فردية لتداركه ووضع حلول له بقدر ما يحتاج الى جهود جماعية ورسمية منظمة وجادة.

ومن جانب آخر يرى عديد من المهتمين بالكتاب العربي ونشره أن تزوير الكتاب العربي بالصورة التي نراها اليوم يعتبر مأساة ثقافية خطيرة وقد ارتفعت أصوات كثيرة في الوطن العربي تنادي بوضع تشريع قومي يحد من هذه الظاهرة، ويرى «رجاء النقاش» أن أولى موجبات (الأمن الثقافي العربي) مسألة تزوير الكتب وقد أصبح لهذا التزوير ـ كما يقول ـ مؤسسات كاملة دون أن يصدر قانون عربي واحد يعاقب مؤسسات التزوير على ما ترتكبه من جرائم في حق العقل العربي والثقافة العربية، اننا نعاقب الذي يزور الأوراق المالية، وتضع الدولة القوانين التي تقع بمثل هذا النوع من التزوير الى القضاء والسجن، وتعاقب أي نوع من التزوير الاّ التزوير الثقافي، فهو حر طليق، وأصحابه أحرار طلقاء بل هم ناعمون فيما يكسبون من

ثروات طائلة من وراء هذه المهنة التي لا يطاردها أي قانون عربي في أي مكان حتى الآن والتي ينظر اليها الجميع في ابتسام وسخرية ويمرون بها مر الكرام ولا يجدونها موضوعاً للبحث والمناقشة ووضع الحدود والقيود عليها حتى تتلاشى وتنتهي من الساحة الثقافية العربية.

ويواصل رجاء النقاش شهادته في هذه القضية الخطيرة فيؤكد أن (مؤسسات تزوير الكتب تصدر كل يوم آلافاً من النسخ المزورة لمختلف الكتب الحديثة والقديمة، ورغم أن هذه المؤسسات قد بدأت وانتشرت في الوطن العربي منذ أكثر من عشرين سنة الاّ أن أحداً لم ينهض حتى الآن ليضع حداً لهذه الجريمة التي يتم ارتكابها كل يوم بأعصاب هادئة باردة، وهي جريمة أصبحت مألوفة ومعروفة، وأصبح الذين يرتكبونها يشعرون بالأمن الكامل ويفتحون لها مكاتب علنية ويضعون عليها اللافتات البراقة بغير خجل أو حياء ويجمعون الثروات الطائلة من وراء عملية تزوير الكتب هذه جهاراً نهاراً دون أن يجدوا من يحاسبهم أو يطالبهم بالتزام الحدود الأخلاقية والقوانين المشروعة لعملية نشر الكتب واصدارها.[1]

وعلى الرغم من المؤتمرات التي عقدها المسئولون عن الثقافة والأمن الثقافي العربي، فلا تجد توصية أو تشريعات في وجه هذه الظاهرة التي تهدد الأمن الثقافي، ولعل الخطورة الكبيرة لحركة تزوير الكتب أنها تعد عدواناً صارخاًعلى حق المؤلف المادي وربما المعنوي أيضاً، كما أنها عدوان على حقوق الناشر واهدار لمجهوداته في نشر

---

١ ـ عن بشير الهاشمي. الناشر العربي. العدد الثاني. ١٩٨٤م. ص: ٣٠.

الكتاب، وقد نشرت مجلة عالم الكتاب[1]، عديداً من الأمثلة والوقائع التي تمثل في النهاية تعويقاً لحركة التأليف والنشر، فالمؤلف يناله الاحباط والاحساس بالقهر والظلم مما يدفعه الى الزهد في التأليف، وكذلك الناشر يخشى نشر الكتب الناجحة التي يسيل لها لعاب المزورين، وهذا كله يعني تراجعاً في مضمار النشر العربي.

وتحقق معارض الكتب ازدهاراً كبيراً للكتاب العربي الاّ أن هذه المعارض مازالت تعاني من الاقليمية نتيجة انعكاس الخلافات السياسية عليها، فبعض الدول التي تقام فيها معارض للكتاب تمنع دور نشر عربية من الاشتراك في المعرض لسبب واحد هو أنها تنتمي الى بلد على غير وفاق سياسياً، وهذا بالطبع يعود بالقصورعلى أهداف تلك المعارض ويجعلها أداة لتعميق الاقليمية الثقافية والتفتيت الثقافي العربي.

أما بالنسبة لواقع حركة الترجمة فإننا نود أن نقارن بداية بين حركتين للترجمة قامتا على أرض الوطن العربي وان فصلت بينهما مساحة زمنية عريضة، الأولى حركة الترجمة في القرن الثالث الهجري، والأخرى حركة الترجمة في مطلع النهضة الحديثة في العالم العربي، لأن هذه المقارنة ستنير لنا الطريق في رؤية واقع الترجمة اليوم.

---

١ ـ وقد تبنت المجلة في عددها السابع عشر الصادر في يناير/فبراير/مارس ١٩٨٨م مشروعاً طوعياً للأخذعلى يد الجناة من المزورين داخل المحاكم الرسمية اضافة الى التشهير بهم وابراز وجههم القبيح أمام الرأي العام، وهذه خطوة كبيرة لإعادة الهيبة الى الكتاب العربي.

لقد كانت الترجمة العربية في العصر العباسي فعلاً حضارياً قائماًعلى الانتقاء والوعي المتمثل، وإن لم يخل الأمر من سلبيات عكرت شيئاً ما صفو نهر الثقافة العربية. لقد ترجم العرب آنذاك عن موقع الاستعلاء والقدرةعلى احتواء وتمثل ثقافة الغير والتفاعل معها بقوة دون خوف أو ارباك أو ذوبان فيها.

لقد كانت أول حركة واسعة ومنظمة للترجمة العلمية الثقافية بين الأمم ولغاتها شملت مختلف المعارف والعلوم مثل الرياضيات والفلك والمنطق والطب والكيمياء والهندسة والسياسة المدنية. ولم يترجموا من الآداب الأخرى الاّ القليل مثل كليلة ودمنة، لأن أدبه بلغ الذروة من القوة والارتقاء، ولم ينقلوا الأدب اليوناني لأنه كان وثنياً يخالف عقائدهم الدينية ويختلط بالأساطير الدينية.

لقد أنشأ المنصور ديوان الترجمة ثم وسعه الرشيد من بعده ثم أتى المأمون فنظم هذا النشاط العلمي وأنشأ بيت الحكمة والذي كان بمثابة هيئة رسمية على مستوى عال أقام فيها طائفة من المترجمين المتخصصين وأجرى عليهم الأرزاق من بيت مال المسلمين.

وخلاصة القول. ان حركة الترجمة هذه كانت وسيلة حضارية للوقوف على ما قدمته الأمم الأخرى من لبنات في البناء الحضاري لتكون مرتكزاً لإكمال عملية البناء الحضاري ومنطلقاً الى الكشف والابداع.

أما الترجمة اليوم فإنها تخضع للنظرات الشخصية والتوجيه المحدود والإرباك والفوضى والعجلة، وتفتقد الدقة والأمانة في كثير

من حالاتها، ان حركة الترجمة وان وصلتنا بالآداب الغربية ومدت بيننا وبينها جسوراً قوية الاّ أن طبيعة المترجمات تهدف الى مد أرضية للأدب الغربي على حساب أدبنا وتقديم نماذج رديئة في مضمونها وأسلوبها، كثير منها يقوم على التحلل من حدود الخلق والدين ويفسد نفوس الشباب ويهز عقائد الجيل الجديد.

ان حقيقة هذه المترجمات كانت تتضح من خلال محاولتها صبغ الفكر والأدب، العربيين بصبغة غربية، واحتواء حركة النهضة في مجالات الكتابة المختلفة في اطار من الطابع الغربي الدخيل.

ان القصص التي ترجمها (طانيوس عبده) وغيره كانت ترشح من جانب خفي ـ أو واضح ـ الى مجتمع يسوده الانحلال بأشد صوره والفساد الخلقي بأقسى معانيه، وتضرب بمعاول قوية الأعراف الاجتماعية العربية الأصيلة المستمدة من جوهر الدين وتشريعاته.

وكانت التراجم لأعلام الغرب تعطي انطباعاً قوياً بتفوق الغرب ودونية الشرق وتعلي من شأن الأدب والفكر الغربيين من خلال تصوير أعلامها رواداً للحضارة وقادة للبشرية، وعزوا التقدم العلمي والتقني جملة وتفصيلاً اليهم، والانبهار بنظرياتهم وفنونهم واتخاذها مصدراً وحيداً للعلم والثقافة.

ان النزعة الى تمجيد الأدب العربي وابطاله بتراجم نابليون وشكسبير وموليير وجيته وغيرهم، ووضع الفكر اليوناني فوق قمة الفكر البشري بتراجم سقراط وأفلاطون وأرسطو، وترجمة الكتب التي تبث الروح الغربية في المجتمع باعتبار ذلك نوعاً من العصرية.

كل ذلك وغيره قد أدى الى تعميق الفجوة في النفس العربية من احساس بالانهزام والتأخر والتبعية بل الشعور بالعجز وعدم القدرة على النهوض ومصارعة الاتجاه الغربي الوافد.

ان حركة الترجمة لم تكن تسير في كل جوانبها سيراً عشوائياً، بل اننا يمكن أن نؤكد أنها كانت بخطة مرسومة تهدف الى احتواء العقل العربي واضافة حلقة من حلقات التآمر عليه ومحاولة لنزع أصالته وتذويب شخصيته وسلب هويته ثم الأخذ به الى أصول غريبة عن جذوره وقيمه

ولعل هذا ما جعل البعض ينظر الى الترجمة بريب وحذر دائمين ويتصورها عداء للأصالة والقيم الثقافية الموروثة بل يراها حرباً على القديم وانسلاخاً منه في وجه الجديد الوافد، وهم في ذلك يجهلون أو يتجاهلون أن المثقف الذي لا يعيش عصره من خلال التفاعل مع معطيات الآخرين يفقد وجوده بينهم، والأمة التي لا تتعاون وتتواصل بفكرها الخلاق وابداعها المتفتح تحكم على نفسها بالتأخر والانعزال.

واذا كانت حركة الترجمة اليوم تنصب في معظمها على العلوم الانسانية والاجتماعية بالاضافة الى الآداب والفنون مع ضعف في الترجمة والتعريب للمراجع العلمية وكتب العلوم البحتة والتطبيقية ومصنفات التقنيات الحديثة، فإنها في ذات الوقت تبلغ نسبة ضئيلة الى المطبوع لا تتجاوز ٧,٠٦٪.[1]

---

١ ـ أخذت هذه النسبة عن شحاده الخوري. الكتاب المترجم. الناشر العربي. فبراير ١٩٨٤م. ص: ١٥٣

وتقييماً لما أنتجته الترجمة في السبعينيات يعطي أحد الباحثين هذه الملاحظات:

أ ـ لم تف هذه الحركة بالحاجات الملحة والمتنوعة للمجتمع العربي. ولم تراع تماماً تطوره الاقتصادي والاجتماعي والثقافي وآفاق هذا التطور في المستقبل.

ب ـ لم تلتزم هذه المؤسسات بمعايير دقيقة من ناحية الأداء اللغوي واستخدام المصطلح، ولذا نجد الى جانب المؤلفات والترجمات المتقنة العديد من الترجمات التي تفتقر الى الدقة العلمية واللغوية، وتعوزها أبسط الشروط الواجب توافرها من حيث المضمون والشكل.

جـ ـ يغلب على هذه المؤسسات الطابع القطري، تخطيطاً وتنفيذاً، تمويلاً وتوزيعاً ومازال التعاون العربي في هذا المجال في حده الأدنى أحياناً ويكاد ينعدم في أحيان أخرى.[1]

فإذا انتقلنا الى واقع ثقافة الطفل العربي نجد أنها لم تحظ بعد بالعناية ولا بالدراسة التقويمية الشاملة، فلاتزال المبادرات فردية في هذا المجال والجهود مشتتة، ومازلنا نفتقر الى التخطيط الموحد المنسق لثقافة الطفل وأدبه، ولايزال الاهتمام بهذه الثقافة اهتماماً هامشياً لدى المؤسسات التربوية بالوطن العربي، على الرغم من دخول هذا القارىء الصغير بقوة في حسابات وبرامج الناشرين.. اذ أصبح أحد

---

١ ـ شحاده الخوري. المرجع السابق. ص: ١٥٣.

المحاور الرئيسية التي يقوم عليها قطاع النشر، بل برزت دور نشر عربية متخصصة في كتاب الطفل.

لقد نشرت كتب كثيرة للأطفال ولكن لابد أن نشير الى أن قسماً من هذه الكتب لايزال يعتمد على الاقتباس والترجمة، وأن مساهمة الابداع العربي في تكوين ثقافة الطفل وأدبه لاتزال محدودة. وان هناك أخطاراً تترصد هذا القطاع تتمثل في التكريس لنماذج وأنماط غريبةعن بيئة الطفل العربي، ومكونات شخصيته الحضارية، وهذا يقتضي جهداً موصولاً للخروج بهذا الكتاب شكلاً ومضموناً الى المستوى الذي يحقق طموحنا المعقود على هذا الجيل الجديد.[1]

ومعظم الكتب التي تقدم للأطفال هي قصص بوليسية ومغامرات أكثرها مترجم الى لغتنا العربية ويكون لهذه المغامرات تأثيراتها السلبية على شخصية الأطفال كما يوضح أحد المهتمين بثقافة الطفل، فهي تغرق أذهان الأطفال بعالم مشحون بالعنف وأعمال القتل وغيرها من أنواع الجريمة التي تثير أسبابها وأساليبها حيرة الأطفال، اضافة الى أنها تظهر المجرمين اللصوص والجواسيس خاصة وهم ينعمون بحياة رغيدة ويرتدون أردية أنيقة ويرتادون الأندية الراقية ويتناولون الأغذية الشهية، فيكون بهذا كله أثر في بعث الدوافع النفسية لدى بعض الأطفال نحو التشبه بأولئك المجرمين، أو تقوي نزعة الأطفال للهرب من الواقع وترسم في أذهانهم صورة

---

١ ـ خليفة محمد التليسي. المرجع المذكور. ص: ٩.

موهومة عن الحياة اضافة الى أنها تظهر الجريمة وكأنها أمر اعتيادي قد يسهل القيام به، ولهذا اتجهت بعض المؤسسات الثقافية الى وضع ضوابط محددة عند انتقاء هذه القصص للأطفال.[1]

وحول الغزو الثقافي من خلال كتب الأطفال التي أنتجتها مؤسسات مثل فرانكلين ولونجمان، ودار التقدم السوفييتية ومؤسسة ليديرد يقول هذا الكتاب: (ان بعض دور النشر "الأجنبية والعربية" قد توسعت الى ترجمة كتب ومجلات للأطفال العرب. ومع أن كثيراً من هذه الآثار ذو قيمة أدبية كبيرة تقدم بصورة فيها كثير من الإثارة جزءاً من عملية الغزو الثقافي، خصوصاً أن هذه المواد تقدم بصورة فيها كثير من الإثارة والجاذبية، مما يؤلف حافزاً على تهافت الأطفال عليها. ومع أن دعوات كثيرة قد انطلقت للوقوف بوجه تيار الغزو الثقافي الى أطفالنا، الّا أن أي منظمة أو دولة لم تقم بأي اجراء فعال بوجه هذا المد. واكتفت بعض الدول بمنع دخول هذه الاصدارات الى أطفالها. ولكن هذا غير كاف. اذ لابد من تقديم بديل مبرمج يغني الأطفال عن التلهف الى تلك الاصدارات. ويشبع في الوقت نفسه بعض حاجاتهم الاتصالية، وهذه المواقف غير غريبة عن مجمل المواقف العربية ازاء الثقافة، حيث تعمل البلدان العربية على معالجة الأمراض المزمنة بالمسكنات.[2]

---

١ ـ الدكتور هادي نعمان الهيتي. ثقافة الأطفال. عالم المعرفة. ١٢٣ الكويت: ص ١٩٣، ١٩٤

٢ ـ المرجع السابق. ص: ٢٣٤

وأمام هذه الجوانب المؤسفة لحركة النشر العربي تبرز تحذيرات المهتمين بهذا القطاع الثقافي الهام يقول خليفة التليسي[1]: «يزداد كل يوم الشعور بالحاجة الى تنظيم النشر العربي، وتتعالى الأصوات في مختلف أرجاء الوطن العربي بالانتقادات المريرة والهجمات المتوالية على هذا القطاع ويمعن البعض فيحمل هذا القطاع كل المسئوليات في ضعف بنية الثقافةالعربية، وتعريضها للتيارات المشبوهة التي تستهدف الشخصية العربية بالهدم والتدمير»[2].

دور التغريب في تشكيل الواقع الثقافي

صار للثقافة الغربية اليوم أبناء مخلصون للأسف من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا، هؤلاء الذين طعموا لقمة ثقافية في جامعة أمريكية أو حصلوا على منحة في معهد أوروبي أو ابتعثوا في دورات علمية في احدى جامعات الشرق. هؤلاء جميعاً وغيرهم، منهم كثير يحيون بين ظهرانينا بفكر تشرّبوه وسلوك مارسوه هناك وثقافة اكتسبوها وانتماء وضعوه هناك، لقد فقدوا صفتهم العربية، وان ظلت أسماؤهم عربية، وأمسوا رسلاً ودعاة للثقافة التي تحملوها، فهم شر على الثقافة العربية من بعض أعدائها من الغربيين.

ويعجب المرء كثيراً حين يدخل بيتاًعربياً في قلب القاهرة، أو الرياض أو الكويت أو بيروت أو دمشق وغيرها من مدن عربية فيجد

---

١ ـ خليفة محمد التليسي. عمل رئيساً لاتحاد الناشرين العرب ورئيساً لتحرير مجلة الناشر العربي. الصادرة عن الاتحاد ذاته.

٢ ـ خليفة محمد التليسي. المرجع المذكور. ص: ٤.

أهله يتحدثون فيما بينهم بالانجليزية أو الفرنسية، ويهملون لغتهم العربية ويزداد عجبه حين يطلع على مكتبة البيت فيجدها انجليزية أو فرنسية من ألفها الى يائها. كتب وشرائط ومعاجم وموسوعات وقصص وأفلام وأغان، وقد يزداد عجبه - أو يزول - حين يجد أطفالهم الصغار لا يعرفون من العربية الّا قليلاًعلى حين يرطنون باللغات الأجنبية.

ونظرة مثل هذه الفئة (المتفرنجة) الى الثقافة العربية نظرة دونية، فهي تراها طابعاً للتخلف وتنظر الى قيمها كوجه للرجعية، وتنعتها بالجمود والقصور ولذلك تحرص أن ترضع أبناءها لبان الثقافة الأجنبية، انجليزية أو فرنسية أو أمريكية باعتبارها ثقافة العصر المتقدمة في منظورهم.

وربما ينظر البعض الى هذه الفئة على أنها ليس لها وزن أو تأثير على ثقافتنا العربية، نظراً لأنها محدودة في عددها، وللحق فهذه الفئة ذات تأثير خطير على مكونات ثقافتنا العربية، والسبب هو طبيعة المواقع التي تحتلها في التوجيه الثقافي والفكري في بلادنا، فأفرادها يحتلون غالباً مراكز مرموقة أكاديمياً، ويعتلون منابر فكرية مسموعة لهم فيها صوت وجلبة، مما يجعلهم في نهاية الأمر موجة ثقافية معاكسة للثقافة العربية تزرع عناصر غريبة تحت ستار من البحث العلمي والدراسات الرصينة، وفي الحقيقة هو تضليل علمي وتعتيم ثقافي.

انهم يقدمون النموذج الأمريكي - أو الأوروبي - باعتباره المثل والقدوة ويضمنون دراساتهم وأبحاثهم وجهات نظر غربية وموحيات أجنبية يفرضونها على الخريطة الثقافية للوطن العربي كإبداع له

خصوصياته وميزاته العالية، وهم بذلك يغرسون وجهة النظر الغربية في اطار يبشر بها كوجه حضاري لا فكاك عن الأخذ به لمن أراد نهضة وتقدماً.

ويساعد هذه الأسماء التي تنتمي للغرب ثقافياً ـ على انجاز هذا الدور ما يعانيه الواقع الثقافي العربي ذاته من جمود فكري وما يفرزه من تناقض يعبر عن أزمة العقل العربي في الاختيار بين البدائل الكثيرة المطروحة أمامه وعجزه عن التمييز بينها في جو من الحرية الموضوعية التي يفتقدها وما يحس به من احباط نتيجة لما تواتر عليه من مؤثرات وضربات دحرته الى فجوات مأزومة من التشتت والانقسام الفكري والتوزع العقلي بين صراعات مذهبية جانبية وشكلية تنتمي الى الشرق تارة والى الغرب تارة أخرى، مما ترك هذا العقل في نهاية الأمر صورة سيئة للبلبلة الفكرية والضبابية الثقافية.

وفي ظل هذا الواقع الذي انعدم فيه التمييز أضحى العقل العربي فريسة سهلة للاستهواء الثقافي من عناصر تشبعت بروح الغرب وثقافته.

وقد وقف الاستعمار الثقافي وراء هؤلاء التغريبيين وفرضهم كأسماء فكرية لها حيزها الكبير على الساحة الفكرية العربية، وسعى الى تلميع واجهاتها بين فترة وأخرى، واظهارها كعلامات فكرية معنية بالدراسات الأكاديمية التي تهدف الى الافادة الحضارية واثراء الثقافات بنزاهة وموضوعية.

ولقد كان من الممكن ـ ومن المنتظر كذلك بعد خروج الاستعمار المباشر ـ أن تعود المجموعة المتغربة الى هويتها الثقافية

الأصيلة، ولكن الأمور سارت في الاتجاه نفسه الذي حدده الاستعمار منذ البداية وذلك بفضل مدارس الفكر المتغرب التي صنعها الاستعمار في بلاد العرب ومكن لها أزمة الأمور، وهكذا فقد كرس هؤلاء المتغربون للتبعية المستمرة للغرب بدلاً من البحث عن الخلاص والاستقلال الثقافي والسياسي والاقتصادي تحت دعاوى العصرية والتحديث.

وكان من مآثر هؤلاء التغريبيين ضرب قواعد المقاومة للتغريب في المجتمع واسكات صوت الشعب ومبادراته، ودفعه الى العزلة واللامبالاة، وبذلك طغت على السطح كل مظاهر الحضارة الغربية، وأصبحت الدولة المتغربة مسيطرة على أجهزة الثقافة والاعلام لتزيدها تغريباً على تغريب.[1]

ان هذا المحيط الثقافي التغريبي أغرق كثيراً من مثقفينا في واقع ثقافي وحضاري مريض ومتخلف، ومن هنا تشكلت رؤاهم الفكرية بصورة منحرفة ومشوهة، فهم انعكاس لواقعهم، ولا ينتظر بعد ذلك من مثل هؤلاء القدرة على العطاء الثقافي الناضج أو المشاركة في تشكيل أو اعادة بناء قسمات الهوية القومية لثقافتنا.

ويزداد الواقع سوءاً يوماً بعد يوم عما كان عليه أيام الاستعمار. وتزداد السيطرة الاستعمارية والتبعية للغرب في كافة المجالات، وكانت الهزيمة في ١٩٦٧م مؤشراً على الانحطاط الذي أصاب حياة الأمة.

---

١ ـ منير شفيق. المرجع المذكور. ص: ١٤٠ ـ ١٤١ بتصرف.

ولقد كان هذا الانحطاط والتدهور نتيجة طبيعية للتبعية المستمرة للغرب والتي كرست لها قيادات وزعامات وسياسات، ربما أخلصت لقضية الاستقلال السياسي ولكنها لم تعمل على الاستقلال الثقافي، لأنها في الحقيقة كانت تحمل وجهاً تغريبياً خالصاً.

لقد أطلقت بعد ذلك عبارات تحمل تعبيراً مؤلماً عن هذا الواقع مثل «زمن الانحطاط العربي» أو «الزمن الاسرائيلي الأمريكي» وكل ذلك نتيجة ومحصلة للتبعية الثقافية والفكرية للغرب بأيديولوجياته ومدارسه.

إن الثقافة التي شكلها التغريب تمثل نسيجاً غريباً في جسد ثقافتنا، ويظهر ذلك من خلال الخصائص التي حملتها ثقافة الاغتراب، فهي خصائص بعيدة عن روح الأمة وفكرتها، الاّ أن هذه الثقافة تسللت بجذورها الى الأرضية العربية فأفسدتها ويمكن اجمال الخصائص المميزة لثقافة الاغتراب في الآتي:

١ ـ لغة الاغتراب التي تتميز بعدم الوضوح والتلاعب بالكلمات التي تبدو بعد التحليل الدقيق أشبه بثوب مترهل على جسد نحيل.
٢ ـ الفصل بين الفكر والعمل وما يرتبط بهذا من احتقار العمل اليدوي واستصغار شأنه.
٣ ـ خلق معنى وهمي للحرية، حرية الابتعاد عن الواقع والانسياق وراء تصورات لا ترتبط بالمعاناة التي تحياها الطبقات المسحوقة من أبناء الشعب.
٤ ـ الاعتماد الكلي على مصدر واحد من مصادر الثقافة وهي الثقافة

القادمة من الخارج.[1]

٥ ـ الفصل بين الدين والدنيا وحصر الدين في شعائر محدودة والادعاء أنه غير قادر على قيادة الحياة وسياستها.

٦ ـ التناقض بين الأخلاق والسلوك وعدم ثبات مقاييس الخير والشر والحلال والحرام.

٧ ـ غياب الجوانب الانسانية من التعاطف والتراحم والألفة والتكافل الاجتماعي.

ويرى بعض الكتاب أن الصحوة الاسلامية هي البديل المطروح للخروج من الأزمة التي أوقعنا فيها التغريب والتبعية للغرب كما يرى أن التغريب أصبح (فشلاً) على وجه القطع واليقين، الأمر الذي يتطلب من الصادقين من أهل التغريب أن يواجهوا الحقيقة ويضعوا حداً لعبثية الانقياد وراء الحضارة الغربية وثقافتها، ويفتحوا عيونهم على الاسلام علهم يجدون فيه السبيل الى نجاة الأمة ونهضتها ومنعتها، وأن من لا يستطيع أن يصل الى هذه النتيجة بعد تجارب عشرات السنين وانفضاح الفكر المتغرب وانكشاف تهافت سياساته، وبرامجه ومشاريع حكمه. فهو لا يريد لهذه الحالة تغييراً ولا يريد للأمة أن تتخلص من حالة الانحطاط.[2]

---

١ ـ زكي الحابر المرجع المذكور ص: ٨٣.

٢ ـ منير شفيق: المرجع المذكور. ص: ١٨٣

الفصـــل الثالث
نحو مشروع للأمن الثقافي العربي

رأينا من العرض السابق ما يعانيه الواقع العربي من مخاطر متعددة تهدد أمنه الثقافي، فإلى جانب أن البنية الثقافية تعاني من الضعف وقصور الوسائل والمؤسسات تتوالى الهجمات ومحاولات التسلل من التيارات المعادية للثقافة العربية لتخريبها وتدمير مقوماتها.

ويتطلب هذا الواقع بذل جهد منظم تتوافر له الامكانات والوسائل لمواجهة محاولات الاحتواء والهيمنة على الثقافة العربية من قبل الدول المعادية، كما يتطلب التخطيط لاصلاح مؤسسات الثقافة الوطنية وأساليبها وتوجهاتها.

وهذا الجهد العلمي المنظم يجب أن يتبلور في مشروع ثقافي عربي يضع البرامج للعمل ويحدد الاطارات للتنفيذ فيعالج جوانب الضعف في البنية الثقافية عن طريق خطة للتنمية الثقافية الشاملة، ويحدد التوصيات التي تضمن تأمين الثقافة ضد الأخطار الخارجية ويتجاوز في كل ذلك المعوقات التي يطرحها واقع التجزئة السياسية.

إن واحداً من المثقفين العرب يدعو الى أن ندرك بوضوح أن الثقافة هي قبل كل شيء (معركة) ومن المحال أن نؤمن أنفسنا ضد خطر ثقافي خارجي مالم نقم نحن أنفسنا بهجومنا المضاد الذي نسعى فيه الى التخلص من الثقافة الفاسدة أو المنحلة عن طريق احلال

ثقافة أخرى ايجابية محلها، فالصد والدفاع وحده قد يكون مجدياً في ساحة المعركة الحربية، ولكنه في ساحة المعركة الثقافية لا يفيد وانما هو أقصر الطرق الى الهزيمة والتسليم. وبالفعل فإن المجتمعات التي تحاول صد الأخطار الثقافية الخارجية عن طريق سن تشريعات المنع والحظر والرقابة، هي أكثر المجتمعات تعرضاً لهذه الأخطار، أما المجتمعات التي تصنع ثقافتها الخاصة المستنيرة المتفتحة، وتواجه بها تلك الثقافة الانحلالية، فهي وحدها التي تستطيع أن تصمد وتنتصر [1]

والى هنا فإن اعتماد نظرية شاملة للثقافة العربية هو المرتكز الأساسي في بناء المشروع الثقافي العربي، ذلك أن هناك كثيراً من التخطيطات والسياسات ترسم دون وضوح كاف لفلسفة الثقافة العربية ودون تحديد للمنطلقات الأساسية للمشروع، وبعض هذه التخطيطات والسياسات توجهها قوى فكرية لم تنبع في تصوراتها ومبادئها من نهر الفكر العربي.

إن الثقافة لا ترتجل ولا تستورد ولا تنشأ من العدم لأنها ترتبط بأمة معينة وتعبر عن معطيات فكرها ووجدانها في آن. والثقافة لا تصنع بإصدار اللوائح والقوانين لأنها محصلة نهائية لمزاج الأمة وتفاعلها الاجتماعي، والثقافة توجه وعي الانسان بقيمها الروحية نحو موقعه المتفرد في الوجود الانساني.

ولذلك. لابد من استكشاف القيم الثقافية التي يحفل بها

---

١ - الدكتور فؤاد زكريا. المرجع المذكور. ص: ٤١.

وجدان الانسان العربي ومعرفة ان كانت تعمل بتلقائية وحرية في توجيه سلوكه أو تمنعها معوقات خارجية كما ينبغي أن نتعرض للبحث عن هوية الثقافة العربية ومقومات الأصالة فيها، اذ أن التخطيط للثقافة العربية يقتضينا البحث عن منطلقات المعرفة والثقافة العربية المتحررة من الطابع الثقافي الغربي، واعادة بناء كيانها وتصحيح مساراتها لتستعيد قدرتها على العطاء والارتقاء.

هوية الثقافة العربية:

يرى الدكتور يوسف نور عوض أن القيم الثقافية الأصيلة التي تحكم مزاج الانسان العربي وتعطيه ملامحه المتميزة هي تركيبة متداخلة من قانون الأخلاق الذي كان يحكم الحياة العربية في فترة ما قبل الاسلام والصورة المعدلة لهذا القانون والتي أوجدتها ثورة التصحيح الاسلامية، هذه التركيبة هي التي أعطت الانسان العربي ملامح شخصيته العربية والاسلامية وشكلت المعلم البارز في سلوكه.[1]

وهكذا. نرى أن الاسلام ـ دين الأمة ـ لا يرفض القيم الثقافية التي لم تنشأ في ظله بداية، ولكنه ينتقي منها ما يوافق مبادئه أو يقوم بتعديل هذه القيم ليتحول الكل في النهاية الى قيم اسلامية جديدة.

واذا اعتمدنا الحكم الذي أطلقه تولستوي عن الهوية الثقافية قائلاً: ان مقياس الهوية الثقافية هو أن يستطيع تذوقها أقل الناس

---

١ ـ الدكتور يوسف نور عوض. المرجع المذكور. ص: ٣٤، ٣٥.

ثقافة وأكثرهم على حد سواء فإن هذا المقياس يرشدنا الى حد بعيد في تحديد مكونات هويتنا الثقافية، ويساعدنا على أن نطرح كثيراً من الخيوط الثقافية التي دست في نسيج ثقافتنا دون أن تعبر عن موقف أصالة أو تلقى استجابة لدى قطاعات كبيرة من مثقفينا.

ان البحث عن هوية الثقافة العربية يقتضينا العودة الى جذور هذه الثقافة واستكشاف الأنسجة الثقافية الحية والفعالة التي تشكل عناصر هذه الجذور، وتنطلق رؤية هذا البحث عن هويتنا الثقافية من كلمتين: العربية الاسلامية، وليست العربية تحديداً للجنس، وليست الاسلامية مجرد تمييز للعقيدة بل ان اصطلاح العربية الاسلامية هو في حقيقته اصطلاح ملتحم له مدلول واحد.

ان المنطقة العربية التي تمتد من المحيط الى الخليج لم يكن يجمعها شيء واحد قبل الاسلام، فلم تشكل أمة واحدة ولا كانت لغتها واحدة ولا تاريخها مشتركاً ولا ثقافتها متحدة، ولا دينها واحداً، لقد كان الاسلام صاحب فضل على هذه المنطقة التي تعربت بسببه وتوحدت في قومية واحدة لم تجمعها الوحدة السياسية فحسب وانما وحدة اللغة والدين والتاريخ والثقافة، فعروبة هذه المنطقة هي نتيجة لدور الاسلام فيها، وما كان لها أن تتحول الى أمة واحدة دون الاسلام، وهذه الحقيقة التاريخية ينبغي أن يعيها الذين ينظرون لنهضة عربية في مجال الفكر والثقافة، كما ينبغي أن يذكر بها الذين يسعون الى هذه النهضة خارج الاطار الاسلامي، ان العروبة هي بنت الاسلام ولا يمكن لها الانتساب الاّ اليه، ومهما أرادت العروبة أن تزدهر وتتوحد سياسياً وثقافياً فلن يكون لها ذلك الاّ في اطار

إيديولوجيتها الاسلامية التي نشأت منها وصدرت عنها، بل ان الاسلام يمكن أن يضيف في المستقبل شعوباً أخرى، تتعرب على يديه الى دائرة الأمة العربية، فليست العروبة جنساً ولا أرضاً انما هي عروبة اللسان والفكر

واذا كانت اللغة ركن أساسي في مقومات الأمة، وهي العمود الفقري لهويتها الثقافية، والتعبير الأكبر والأشمل عن الثقافة فيها[1] فإن الدين الاسلامي هو الذي حفظ على العرب لغتهم وجمعهم في اطار ثقافي واحد، ولولا القرآن في العرب لتفرقت لغتهم الى لهجات اقليمية ولتباعدت حتى تصير كل واحدة منها لغة بعيدة تماماً عن الأخرى، ولو لا قيم الثقافة الاسلامية لظهر في محيط الوطن العربي ثقافات شتى تختلف كل منها عن الأخرى وكلما اقترب العرب من هويتهم الاسلامية زاد توحدهم الثقافي وتقاربهم الفكري، وكلما ابتعدوا عن قيم الثقافة الاسلامية برزت أوجه الاختلاف والشقاق في اللغة والفكر والسلوك.

ان العربي لم يتخل يوماً ـ من الناحية الوجدانية على الأقل ـ عن ثقافته الاسلامية التي وهبته الطاقة الايجابية الفاعلة حين بدأت منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، لكن هذه الطاقة الايجابية التي بنى عليها حضارته الفذة ومدنيته العملاقة قد تحولت في عصور الضعف

---

١ ـ تقرير اللجنة الاعلامية لليونسكو المنشور في كتاب «أصوات كثيرة وعالم واحد» عن ماهر الكيالي. المرجع المذكور. ص: ١٣٢

الى طاقة سلبية يستغلها في الانحراف.

فإذا أردنا للثقافة العربية أن تعبر عن كل المجموعات العربية وأن تكون عنصر توحيد لهم فإن الصبغة الاسلامية التي أعطتهم القوة ومنحتهم الطاقة الفاعلة وصاغت للانسان العربي والمجتمع العربي رؤية جديدة ونظرية جديدة وعقل جديد، قادرة على اعادة تشكيل الواقع العربي من خلال قيمها الفريدة وتوجهاتها الثقافية العظيمة

ان كشف هذا البعد الرئيسي للهوية الثقافية العربية يفسر لنا حرص الدول الغربية ـ ذات المصلحة في تخلف العرب ـ على أن يظل العربي بعيداً عن دينه وأن يستبدل بإيديولوجيته الاسلامية إيديولوجيات شتى متصارعة تقيم الشقاق السياسي والفكري داخل الوطن الواحد.

اننا بعد ذلك ندعو الى ثقافة جديدة قديمة ـ جديدة حين تساير العصر، قديمة حين تنتمي للاسلام ـ ويمكن أن نسميها بكلمة واحدة (ثقافة القرآن) لقد كان القرآن دوماً هو صمام الأمان الذي حافظ على أمتنا من الشتات والضياع والانكسار أمام موجات الهجوم المتعددة على أمتنا عبر تاريخها الطويل، كما كان بمفاهيمه وقيمه ومقوماته يحتل مركزاً فريداً في حياتنا مثل فيها دائماً الزاد الفكري والروحي الذي يتشربه العربي منذ نعومة الأظفار، وهو بعد ذلك رفيق حياة دائم يمكن أن يمد العربي في مختلف مراحل حياته بارادة النضال لاثبات هويته والزود عنها.

إنه القرآن الذي يتلى في البيوت والأكواخ والمساجد والزوايا

ويشمل الأرض العربية كلها.

وما حدث من تمزق ثقافي للأمة العربية سببه الرئيسي هو تلك النابتة التي نشأت على غير ثقافة القرآن وغشى بصرها ثقافات مشوهة أو وافدة مما جعلها عناصر شقاق ثقافي.

ولعل مساعدة الاستعمار الثقافي الغربي هي التي شجعت عناصر الشقاق هذه في أن تصبح ظاهرة ثقافية، ومكن لها من البروز لتكتسح مظاهر الثقافة الأصيلة ومقوماتها.

ولم يزل القرآن مرشحاً كزاد ثقافي مشترك للأمة العربية ليجمعها في اطار ثقافي واحد في وقت مزقتها الأيديولوجيات الثقافية المختلفة التي كانت طرحاً للاستعمار الثقافي الغربي، ولم يزل الزاد الثقافي القرآني يَعِد ـ بخصوصيته القدسية ومقوماته الروحية ـ بسبك الشخصية العربية سبكاً جديداً، وبهداية العقل العربي الى الهوية الحقيقية في وجه البضاعة الفكرية والثقافية الزائفة.

إن مقومات الاصالة في الثقافة العربية تتمثل في الجوانب الجوهرية والبذور الحقيقية التي ينبع منها الصبغة المميزة للثقافة العربية، وهي تمثل المرتكزات الأساسية لأي تجديد أو تخطيط ثقافي، وتتمثل هذه الركائز في الآتي[1]:

ـ الدين الاسلامي: القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة وعقيدة

١ ـ الدكتور سليمان العاني. محاضرة عن: «الثقافة العربية وأبعادها في الغرب». بجامعة الكويت، السياسة. ١٣/١١/١٩٨٧م.

التوحيد التي شكلت العقل العربي وأوجدت التلاحم العضوي بين كل ما هو عربي واسلامي.

- الركيزة الثانية: هي المجموعات السكانية التي تنتظمها الآن الساحة العربية.
- الركيز الثالثة: هي التاريخ الحضاري المشترك الذي يربط بين أواصر وأصول الأمة العربية الاسلامية.
- الركيزة الرابعة: هي هذا الحيز الجغرافي الذي تقطنه شعوب الأمة العربية الاسلامية.
- الركيزة الخامسة: هي اللغة العربية وعاء الاسلام الأصلي والتراث العربي الأصيل.
- الركيزة السادسة: هي التراث المشترك.

دور المثقف العربي:

إن الكلام على التخطيط للثقافة العربية يقتضينا أن نحدد أي دور تريده الأمة العربية لنفسها، هل كل ما تريده الأمة العربية لنفسها التوحيد في اطار ثقافي عربي قوي؟ إن الأمة العربية تريد لنفسها ذلك بلاشك، ولكن محاولات الوحدة الثقافية العربية تظل أملا يراود أحلام المخلصين ويتصادم مع واقع الساحة الثقافية العربية الآن.

إن مجرد البحث عن اطار قومي للثقافة العربية لم يستطع أن يتغلب على المعوقات العديدة السياسية وغير السياسية التي تفرق

العرب بدداً، وهنا لابد لنا من البحث عن دور جديد للثقافة العربية، دور يرتفع بها عن الاطار القومي الى الاطار العالمي الرحب، وهذا يعود بنا الى حقيقة الدور الرئيسي لأمة العرب التي كلفها الله بالرسالة الانسانية السامية وهي الاسلام، وجعل هذه الرسالة مفتاحاً لتعريب غير العرب، تعريب اللسان والجنان إن أمة العرب تتحدد قيمتها الحقيقية في العودة الى القيام بدورها العالمي في قيادة البشرية الى الحق والنور الذي تفضل الله به عليها.

ان الاسلام هو الإطار الثقافي الذي يرشح الأمة لأن تعود لتتبوأ الصدارة في الأمم لأنه بمنحها الوحدة في اللسان والعقيدة والفكر والأرض، وهو بعد ذلك يمنحها الشرعية في امامة غيرها من الأمم والتحول بها الى اطارها الثقافي من خلال التبشير برسالتها الانسانية السامية، ان هذا الدور يتحول بالأمة العربية من موقف التبعية والضعف الى موقف القيادة والقوة وذلك يتطلب الكثير بطبيعة الحال.

ويعد المثقف العربي هو المهندس الثقافي والبنّاء في صرح الثقافة العربية في الوقت ذاته، وعليه أن يتسلح بالوعي الحضاري والفهم للدور المنوط به والارادة الكاملة والمتحررة في الانطلاق من قيود الواقع المحدود وتغييره الى الأفضل مع الاعتماد في ذلك على المكونات الثقافية الأساسية للأمة وعدم التعارض معها. ان عليه أن يكشف عن الكنوز الثقافية للأمة، وينقيها ويصهرها في صورة صالحة للحياة، كما أن عليه تبديل العناصر التي أصابت الواقع الثقافي بالجمود والانحطاط الى عناصر جديدة دافعة الى حركة ثقافية متطورة.

وعلى المثقف العربي كذلك أن يستكشف جوانب التناقض التي طرأت على ثقافة الأمة ويحدد عواملها وأبعادها، وينقلها من الباطن الى العقل العربي الواعي مستخدماً في ذلك أدواته الثقافية من أدب وفكر وفن.

وعليه أيضاً أن يصل جسوره بالجماهير من حوله ويتفاعل معها، فلا ينحصر فكره في جزيرة معزولة أو يتعالى في برجه العاجي، بل انه مطالب بأن يقطع الفجوة الثقافية بينه وبين الناس من حوله ويأخذ بأيديهم في حركة من الوعي والتنوير الذهني، فالواقع يقول ان الصلة مقطوعة بين المثقف العربي والجماهير، وتزداد أبعاد المساحة الفكرية بين الطرفين بمرور الوقت، مما يوجد عناصر ثقافية شاذة وغير منتمية، ويحرم الجماهير من البصيرة بمكونات الثقافة العربية الأصيلة، ويعرضها للاستهواء الثقافي في مواجهة الثقافات الوافدة والتي تفرض وجودها كل يوم على حياة الجماهير من خلال التقنيات الحديثة ووسائل الاتصال، بل اننا لا نبالغ اذ قلنا أن التباعد الكبير بين المثقف العربي والجماهير أدى الى نشوء ثقافتين مختلفتين بينهما بون شاسع احداهما راقية والأخرى متدنية.

ان على المثقفين العرب أن يقتربوا أكثر من جماهيرهم ليجعلوا ثقافتهم في خدمة الحياة والناس وسيعترض المثقف العربي في حركته الاجتماعية مجموعة من السلطات والمؤسسات التي (تسلحت) أو استغلت سلاح الثقافة بصورة غير شريفة لخدمة أغراضها ومصالحها والتمكين لآرائها وتوجهاتها المناوئة لسلامة وصلاح الواقع الثقافي العربي. ان دوره هنا يتحدد بنزع السلاح من أيدي هذه القوى

وتجريدها من مصداقيتها الثقافية المزعومة، وتعرية دورها المشبوه أمام الجميع، حتى تكون بيده في النهاية الدفة التي يدير بها السفن الثقافي.

ان المثقف العربي ينبغي أن يكون الرائد دائماً للبعث الثقافي والموجه للنهضة الثقافية بما يحمل من وعي حضاري واخلاص لأمته يؤهله لأن يرسم طريق العودة الى ثقافة عربية خالصة من المؤثرات الأجنبية الشاذة والمغترضة، وأن يتصدى في تنقية التعتيم والتضليل الثقافي باسم العلم والبحث، كما تتحدد مسئوليته الحضارية في تنقية الثقافة من الخرافات والتهويمات الضارة والأفكار الباطلة والآراء الشاذة بحيث يحدد في النهاية هوية الانسان العربي في مواجهة الهجوم الثقافي للغرب وتناقضات الواقع الثقافي في آن.

مؤشرات حول المشروع العربي للأمن الثقافي

يهدف مشروع الأمن الثقافي العربي الى تحقيق الوعي: الوعي بالذات الثقافية، والوعي بالدور الحضاري، والوعي بعملية التشويه أو النقض لمقومات الثقافة العربية الاسلامية والبصيرة بالجرائم الفكرية والروحية التي ترتكب ضد الأمة العربية.

ان الهدف الأول للمشروع هو غرس الوعي (الوعي بالذات ـ الوعي بالموقف ـ الوعي بالآخر) وتنميته لتحقيق الحصانة الفكرية لدى جماهير الأمة.

ولذلك. لابد من تحديد الجوانب التي تشكل بنية الثقافة العربية وقد سبق أن جمعناها في: الدين الاسلامي، اللغة العربية

وآدابها، التاريخ الحضاري المشترك للأمة، التراث العربي، المجموعات السكانية التي تقطن المساحة الجغرافية الممتدة من المحيط الى الخليج

وتتحدد الوسائل الثقافية في: الصحافة والاعلام، التلفزيون والاذاعة والسينما والمسرح، والنشر والتعليم والفنون والآداب.

ويأتي بعد ذلك تحديد المشكلات التي تعترض هذه الوسائل الثقافية، وقد استعرضناها في الفصل السابق وخرجنا من ذلك بمؤشرين رئيسيين للخطر الذي يهدد الأمن الثقافي العربي وهما ضعف البنية الثقافية ومحاولات الاحتواء والهيمنة والاستلاب التي تفرضها ثقافات أجنبية.

والخطوة الأخيرة هي بناء تنظيم ينسق بين المكونات الثقافية العربية، ويعمل على تقدمها في الاتجاه الصحيح ويحفظها من الجمود أو التبعية للغرب، وينبغي أن يتسم هذا التنظيم بالشمول والتكامل بين العناصر الثقافية أو التي لها صلة بالثقافة أو مسئولية عنها، ويتضح ذلك في الشكل التالي:

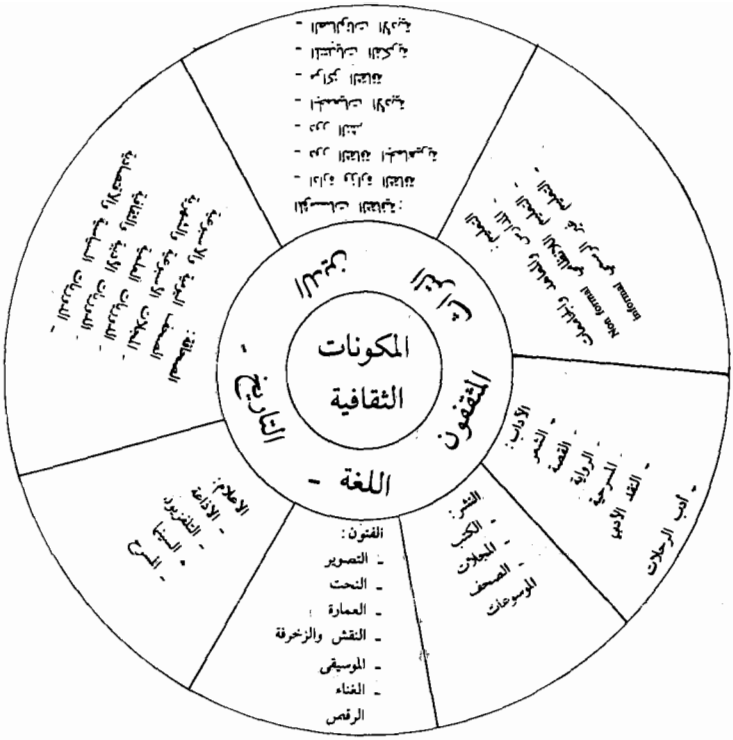

إن هذا التنظيم الثقافي الذي ندعو اليه ينبغي أن يسير في طريقين لتحقيق الأمن الثقافي العربي:

ـ تحقيق الاستقلال الثقافي في مواجهة محاولات السيطرة الخارجية عبر الشركات عابرة القومية ووكالات الأنباء والانتاج التلفزيوني والسينمائي والصحافة والنشر وشركات الدعاية والاعلان والأقمار الصناعية والسياحة وغيرها

ـ تحقيق التنمية الثقافية بإعادة بناء المؤسسات الثقافية في الداخل وتقويتها لتقوم بدورها في خدمة الثقافة الوطنية في اطار خطة التنمية الشاملة للوطن العربي.

ان الاستقلال الثقافي يمثل ضرورة في الاستقلال السياسي والاقتصادي كما عبر عن ذلك مالك بن نبي في كتابه (انتاج المستشرقين) «ان المجتمع الذي لا يصنع أفكاره الرئيسية لا يمكنه على أية حال أن يصنع المنتجات الضرورية لاستهلاكه ولا المنتجات الضرورية لتصنيعه».

وقد أثبتت الوقائع أن الاستقلال الثقافي يمثل شرطاً أساسياً لكل محاولات التغيير والاصلاح وأنها التبعية الشاملة، فبلا استقلال ثقافي تتعرض جوانب المجتمع كافة للانهيار

وضراوة الأساليب التي يتبعها الاستعمار الثقافي في أحدث صوره والتي ذكرناها في السطور السابقة، جعلت قضية تحقيق السيادة الثقافية والمحافظة عليها من أكثر الأمور حيوية والحاحاً، ولعل الأمر يتطلب حواراً موسعاً بين المثقفين من جانب والمسئولين عن الثقافة من جانب آخر لتحديد الخطوات التي يمكن اتباعها لتحقيق الاستقلال الثقافي والتعاون على تنفيذها.

ومن أبرز الأمور مثلاً بسبيل تحقيق الاستقلال الثقافي العربي اعداد دائرة المعارف العربية، فالعرب لليوم وللأسف يفتقدون دائرة معارف تعبر عن ثقافتهم وتجمع جهودهم وفكرهم بين دفتي كتاب، وهذا أمر يعوزهم الى الاعتماد على دوائر المعارف الأجنبية التي وضعها الغربيون من المستشرقين وغيرهم، مثل دائرة المعارف الاسلامية، وهذه الدوائر لا تخلو من خلط وتشويه للعرب وتاريخهم ودينهم.

ويعد افتقار الساحة الفكرية العربية الى ما يمثلها في هذا

المضمار عوراً في سيادتها الفكرية والثقافية، فلا يوجد شعب صغير أو كبير يعتز بنفسه وبثقافته في عالمنا المعاصر الاّ له دائرة معارفه التي هي جزء من استقلاله الفكري والثقافي. ولعل ما يعوق اخراج دائرة معارف عربية هو العوامل المثبطة المتعددة التي تعوق الجهود وتوزعها وليس أقل ذلك ما تتطلبه دائرة المعارف من عمل منهجي منظم موحد.

لقد انقضى زمن طويل والعرب جهودهم موزعة في كل المجالات، فعلى الرغم من المؤتمرات المتعددة التي يعقدها وزراء الثقافة العرب والمسئولون الثقافيون إلا أن ما تمخض عن هذه المؤتمرات قليل جداً بالنسبة لما يتطلبه العمل الثقافي العربي، لقد جاء الوقت الذي لا وقت بعده ليقوم العرب بجهد علمي منظم موحد نحو التنمية والتوحيد الثقافي، ولعل انشاء المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم قد فتح الطريق نحو التعاون الثقافي العربي.

ان هناك العديد من المؤشرات التي يجب رصدها عند الاعداد للمشروع الثقافي العربي، فلا ينبغي أن يغيب عن وعينا وطأة الواقع ونعني بالذات مشكلة الأمية المتفشية في البلدان العربية، إن الأمي أكثر من غيره استجابة للموجهات الثقافية الخارجية، وأقل قدرة على مواجهة تأثيراتها نظراً لقلة محصوله الثقافي وضعف حصانته الفكرية، وهذا يدعو المثقفين والمنظمات والمؤسسات الثقافية والسلطات الى اجراء عملية تعليم وتثقيف للجماهير التي تعاني ليس فقط من أمية القراءة والكتابة ولكن من أمية الفكر أيضاً، ان الوقوف الى جانب هذه الملايين التي تعاني من الجهل والعوز الثقافي يعد انتصاراً عظيماً في

مجال المشروع الثقافي العربي.

كما ينبغي في هذا الجانب تحقيق وتعميق الانتماء للثقافة، انتماء يهدف الى خلق انسان عربي جديد في فكره وسلوكه وفي الوقت نفسه ملتزم بالأصول والمورثات الثقافية وملتحم مع العصر ومعطياته.

ان شعار الانتماء الذي نرفعه فوق رؤوسنا يجب أن يتحول الى عمل والى موقف محدد مدروس، فكيف ينتمي الطالب الى ثقافة لا يعرفها وبالتالي لا يحبها؟؟ وكيف ينتمي الانسان الى لغة لا يعرف أسرارها؟ وكيف ينتمي الفرد الى أفكار غابت عنه؟! ويكفي ما يتعرض له هذا النشء من غزو فكري من خلال المجلات والكتب المترجمة والمسلسلات التلفزيونية التي تمسخ شخصية أبنائنا أو تصادف أذهاناً ضحلة خالية من المثل والأفكار فترسم فيها مثلاً مشوهة بعيدة عن شخصيتنا وتراثنا.[1]

ولعل هذا يبرز أهمية دور التعليم في الانتماء للثقافة ويوضح في الوقت ذاته ضرورة تأمين النظام التعليمي العربي ضد المحاولات التي بذلت لتحويله عن دوره في تنشئة الأجيال المنتمية للقيم الثقافية العربية، ان الرجال كالأمم يستمدون ذاتياتهم وجوهر صنعتهم من التقاليد والقيم التي يتلقونها من الأسر التي نشأوا فيها، والحضارات التي ينتمون اليها أكثر مما يستمدونها من الجينات التي يرثونها، كما قال (نيلز بوهر)، حينما تقبل جائزة «الذرة من أجل السلام».

ولابد في هذا المشروع من توجيه اهتمام متزايد للشباب

---

١ د. سلوى العناني. الأهرام. ١٩٨٨/١/٢٢م.

العربي لأنه يعاني كثيراً ازاء الواقع الثقافي العربي، انه يحار أمام الإيديولوجيات المختلفة التيتتصارع من حوله وكثيراً ما تعوزه الحنكة للتمييز بينها، وتتوزعه الأشكال الثقافية التي تطرحها هذه الإيديولوجيات فلا يملك الاّ أن يسقط رأسه بين راحتيه. وهو مع ذلك يثقله مادياً ـ اقتناء الكتاب والاطلاع على معطيات ثقافته.

والشباب العربي هو الفئة الرئيسية التي تتعرض للغزو الفكري لأنه يميل بطبيعته الى التجديد والفضول في التعرف على الوافد، وهو لا يملك مع ذلك الحصانة الفكرية التي تعصمه من السقوط في شراك الاحتواء الثقافي، وقد يضعف ارتباطه بتراث أمته فيكون أقرب الى فقدان هويته الثقافية والوقوع في ظلالها من التضليل الفكري والتشويش العقدي.

ومن هنا نؤكد على أهمية الارتباط والتواصل والحوار بين الأجيال على الساحة العربية كلها، وبناء جسور من التفاهم والتناصح من خلال اقامة الملتقيات والمنتديات والحلقات والمؤتمرات للشباب على مستوى الوطن العربي، لتتوثق العلاقات وتتقارب الأفكار، وهنا يقترح البحث على منتدى الفكر العربي بالأردن و المؤسسة الثقافية العربية بلندن، والهيئة المصرية العامة للكتاب وما شابهها من هيئات ثقافية عربية تعمل في الاطار الفكري والثقافي أن تعمل على انشاء منتدى الشباب العربي الثقافي وتسانده مادياً ومعنوياً حتى يستقل بذاته.

وعلى صعيد ثقافة الطفل العربي فمن الواجب ادراك تأثرها بالقيم والعلاقات الاجتماعية السائدة في المجتمع سواء أكانت سلبية

أم ايجابية، فالأطفال يتشربون ثقافة المجتمع ويتقمصون دوره الثقافي مما يجعلهم عرضة لتعلم طرائق غير مرغوبة وسلبية تشيع في ثقافة المجتمع، وهذا يدعونا الى المناداة بتقويم ثقافة المجتمع ونفي القيم السالبة وتجنب الأفكار ومظاهر السلوك الخاطئة وأبعاد الأعراف والتقاليد البالية، والتزام الأسس العلمية في التعامل مع الأطفال وذلك من أجل بناء ثقافة للطفل العربي تحمل وظائف ايجابية.

ويرى أحد المهتمين بثقافة الطفل أن أول الأهداف التي ينبغي أن يضعها الاتصال الثقافي الموجه للأطفال في حسابه هو تشكيل ثقافة للأطفال متوافقة مع العصر ومتلائمة مع الآمال الموضوعة للمستقبل، وألاّ يستهدف الاتصال الثقافي نقل الثقافة بل الانتقاء من عناصرها الايجابية وإثراءها والانعطاف بالقيم والمعايير والمعاني تحقيقاً لتلك الأهداف حيث لم يعد من المناسب اغراق الأطفال بفيض من عناصر الثقافة بل اختيار ما يناسب الطفل وما يتوافق مع آمال المجتمع.[1]

ان ثقافة الطفل العربي مازالت تخضع للتخلف والاهمال والمخاطر، اضافة الى المغامرة الفردية والارتجال وتدخل تجارة الثقافة وتقصير المؤسسات والمنظمات الوطنية وانشغال السلطات عنها، فالتلفزيون يحول دون تكون ثقافة للطفل بالصورة التي يأملها المربون، وقد دخل تجار الثقافة من خلال التلفزيون وغيره وأنشأوا شركات ومؤسسات ليس من أغراضها تثقيف الأطفال بالثقافة المناسبة، بل من أجل تحقيق مآرب وأغراض نفعية حتى أصبحت

---

١ ـ الدكتور هادي الهيتي. المرجع المذكور. ص: ١٠٦

وسائلهم وأساليبهم الثقافة جناية بحق ثقافة الطفل العربي.

ان القصة تمثل دوراً خطيراً في ثقافة الطفل وهي تحمل مضموناً ثقافياً يكشف عن روح المجتمع وما يريده لأطفاله، وعملية التحليل لمضمون القصة التي تقدم للطفل العربي اليوم تعطي دلالات عميقة للخطر الذي يتهدد التكوين العقلي لأطفالنا، فمعظم القصص مترجم وكذلك الأفلام والبرامج التي تعرض على الأطفال تحمل مضامين فكرية غربية وتغرس قيماً ثقافية غربية وترسخ مفاهيم سلبية عن طريق ما تعرضه من جريمة وعنف وتفسد ذوق الأطفال وبراءتهم بما تقدمه من موحيات ونماذج.

وعلى ذلك. فلابد من استنقاذ الجيل الجديد وحفظ عقله وقلبه من التلوث وذلك يتم بمراعاة الأسس التالية في ثقافة الطفل:[1]

١ ـ ربط كتاب الطفل بالاستراتيجية التربوية العربية والخطة الثقافية العربية الشاملة ومناهج التعليم.

٢ ـ تشجيع الابداع العربي في الكتابة للطفل والخروج من دائرة الاقتباس.

٣ ـ تجنب النزعة الاقليمية في كتاب الطفل العربي، ومخاطبة الطفل العربي في اطاره الثقافي العربي الشامل.

٤ ـ اعتماد الفصحى الميسرة في الكتابة للطفل على مستوى الكتب والمجلات، أو البرامج المرئية والاذاعة الموجهة، ومحاربة الغث من النماذج الموجهة الى الطفل التي تقوم على اللهجة العامية

---

١ ـ خليفة محمد التليسي. المرجع المذكور ص: ٩

٥ ـ الاستفادة من تجارب الدول الأخرى في مجال ثقافة الطفل وترجمة الكتب العلمية الميسرة.

٦ ـ مراجعة النصوص المدرسية وفق المعطيات الجديدة لخطة التربية والخطة الثقافية الشاملة.

٧ ـ الاهتمام بالرصيد اللغوي وقواميس الأطفال، بما يؤدي الى توحيد مفاهيم الكلمات والمصطلحات ويصوغ عقلية الأجيال صياغة عربية متشابهة.

٨ ـ بذل عناية خاصة بالمجلات التي تصدر للأطفال، واخضاعها للتقويم التربوي والثقافي.

٩ ـ اقامة المعارض الدورية على مستوى الوطن العربي الخاصة بكتاب الطفل والاستفادة من التجارب العلمية في هذا المجال.

١٠ ـ انشاء هيئة متخصصة في نطاق المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تعنى بثقافة الطفل العربي.

١١ ـ تشجيع قيام دور النشر الخاصة بكتب الأطفال.

١٢ ـ مراعاة التوازن الكامل في ثقافة الطفل العربي العلمية والأدبية.

واضافة الى ما سبق نطرح عدداً آخر من المؤشرات في المشروع العربي للأمن الثقافي هي:

ـ رسم سياسات ثقافية قومية تتفق في منطلقاتها وغاياتها مع المقومات الثقافية للأمة، وتضع هذه السياسات البرامج المحددة وطرق تنفيذها، وتضع في اعتبارها الواقع والامكانات فلا تهيم في تحديدات خيالية بعيدة عن الواقع ومتطلباته، وينبغي ألاّ تخضع

هذه السياسات في الوقت ذاته للعوائق التي تحد من انطلاقها في اغناء الأمة ثقافياً.

- يجب أن تتغير القيم والمعايير في نظرتنا للثقافة، أن يختفي المفهوم التقليدي للثقافة بل ينبغي أن تتغير مكانة الثقافة في حياتنا تماماً، فليست الثقافة ترفاً أو طلاء خارجياً، كما أنها ليست مواجهةموسمية لقضايا طارئة تؤرق النظم السياسية، وليست الثقافة شيئاً يصنع في ادارات الثقافة ليضاف الى حياة المجتمع فإن وزارات الثقافة لا تبدع الثقافة.

- التوعية الجماهيرية بمخاطر التعامل مع المنتجات الثقافية الأجنبية، والدعوة الى الاعتماد على المنتجات الثقافية الوطنية، وهذا بطبيعة الحال يتطلب توفير منتجات ثقافية وطنية تتسم بالجودة والطرافة والتشويق.

- مازال الاستشراق يعطي كل يوم نتاجاً جديداً في دراسته لثقافتنا وحضارتنا وعليه فينبغي أن نواجه ذلك على صعيد الفكر مواجهة جادة، فمازال للاستشراق تأثيره على فئات عديدة من المثقفين في العالم العربي والعالم الغربي أيضاً، وتكون المواجهة بالكتابة في الموضوعات التي كتب فيها المستشرقون، كتابة علمية ترقى الى كتابات المستشرقين وتتجاوزها وتجمع محاسن المنهج الاستشراقي وتزيد عليه في عمق الدراسة واستقصاء المصادر الصحيحة واصالة التحقيق والاحاطة، كما ينبغي التحلي بالموضوعية والبعد عن الأخطاء المنهجية التي يقع فيها المستشرقون.

ويجب دراسة أعمال المستشرقين ذاتها دراسة نقدية تظهر الخطأ

والصواب وترد على التلبيس والتشويه في نقل النصوص والاستشهاد بها، وتحقق النتائج التي يعرضونها والادعاءات التي يستنبطونها منها مع توضيح أغراضهم من وراء ذلك.

وقد نبه كثير ممن درسوا الاستشراق الى أنه على الرغم من وجود أكثر من مائة معهد ومركز استشراقي في الغرب الاّ أنه لا يوجد في العالم العربي مركز واحد لدراسة أعمال المستشرقين[1]، وقد دعا الدكتور محمود زقزوق في كتابيه (الاسلام في الفكر الغربي) و (الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري)، الى انشاء منظمة علمية عالمية مستقلة لدراسة أعمال المستشرقين تقف على قدم المساواة مع الحركة الاستشراقية ويكون لها دوريات ومجلات علمية ذات مستوى رفع تنشر بحوثها بلغات مختلفة وتعمل على استعادة أصالتنا واستقلالنا في ميدان الأفكار

ومن ناحية أخرى فقد دعت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في نهاية عام ١٩٧٩م الى ندوة في القاهرة لمناقشة موضوع اعداد (موسوعة للرد على المستشرقين). وقد أعد التقرير الختامي للندوة[2] ثم نامت الفكرة تحت تأثير الظروف السياسية التي سادت المنظمة العربية في السنوات الأخيرة الماضية كما تنام كثير من الأفكار

---

١ ـ الدكتور ادوارد سعيد. في كتابه «الاستشراق». والدكتور محمود زقزوق في كتابه «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري» وغيرهما.

٢ ـ يمكن مراجعة هذا التقرير في كتاب: «الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. ص: ١٣٢ ـ ١٣٧

الجادة التي نبذل جهوداً كبيرة في دراستها والتخطيط لها ثم ننساها بعد ذلك.

- الجامعات العربية من أهم المؤسسات التي يقع عليها دور ثقافي وتعليمي كبير، ودورها يتضمن في: تعريب العلوم والمصطلحات والترجمة والتعبير عن قيم ثقافة المجتمع وتنقيتها من آثار التبعية والاغتراب، والتصدي لمحاولات الاستلاب الفكري، واعداد الأجيال الملتزمة، بعروبتها واسلامها، فينبغي على الأكاديميين بذل جهودهم لتحقيق هذا الدور من خلال اعتماد اللغة العربية في التدريس الجامعي كما تعتمد العربية في البحوث ورسائل الماجستير والدكتوراه، وان يتولى اتحاد الجامعات العربية التنسيق بين الجامعات العربية لتتكامل في اطارها الثقافي واعداد البحوث والدراسات التي تسهم في عملية التنمية الثقافية.
- ان العلوم الاجتماعية الغربية متأثرة في نشأتها بعقائد الغرب وفلسفته وتراثه وحضارته، وأخذنا بهذه العلوم جملة واحدة يعد لوناً من الاستيراد الثقافي الذي لا يستند الى البصيرة والوعي، والوسيلة الصحيحة التي يراها البحث هي تعاون الهيئات العلمية والجامعات في العالم العربي على نقية ثقافتنا من الأفكار والمبادىء الوافدة مع العلوم الاجتماعية الغربية وبذل الجهد المنظم لتأسيس علوم اجتماعية عربية اسلامية.

ان هناك علوماً يمكن أن نأخذها عن الغرب مثل العلوم الطبيعية والرياضية مع الحذر من النظرة المادية البحتة للأشياء وانكار

ما فوق المادة، والنظريات التي تصطدم مع المسلمات الاسلامية، ويجب التأكيد على نسبة الظواهر الطبيعية دائماً الى خالقها بعد الوقوف على القوانين العلمية التي تحكمها.

أما العلوم الاجتماعية والانسانية مثل، الاقتصاد والسياسة والأخلاق والاجتماع والنفس والتربية والتاريخ والأنثروبولوجيا فيجب علينا أن ننظر فيها نظراً جديداً، فقد تضاربت فيها النظريات وتناقضت المقولات، وتباعد بعضها عن الواقع تباعداً كبيراً، واعتمد بعضها على الحد من الحدس والاستيطان، وبعضها على خلفيات فكرية وعقدية بعيدة عن الموضوعية على الأقل من وجهة نظرنا نحن العرب المسلمين، أن هذه العلوم لا يمكن أن تنقل عن الغرب نقلاً لأنها جزء من ثقافته وحضارته، وانما الأسلوب الموضوعي يقتضينا الاستفادة من هذه العلوم في وضع علوم اجتماعية وانسانية عربية اسلامية ترتكز على الحضارة العربية وثقافتها.

- ينبغي التقليل قدر الامكان من الاعتماد على وكالات الأنباء الغربية، وذلك بإنشاء وكالة أنباء عربية قومية ذات امكانات تؤهلها لتحقيق الاستقلال في مجال الأنباء، فليس من المعقول أن يستمر تدفق الأنباء في اتجاه واحد من الشمال الى الجنوب، وليس من المعقول أيضاً أن يكون للأنباء المتصلة بالغرب النصيب الأكبر والأول في صحفنا.
- كما يقترح اصدار صحيفة أو صحف عربية قومية تتجاوز حدود الاقليمية والاختلافات السياسية لتكون المنبر المعبر عن كل العرب،

وتكون في قوة الصحف العالمية، ولا يحكمها الولاء الاّ لمصلحة الأمة.

- لابد من تدارك ضعف انتاجنا التلفزيوني والسينمائي وذلك بإنتاج أفلام ومسلسلات وبرامج تكون على درجة عالية من الجودة والجاذبية ومعبرة عن قيم الأصالة العربية مع البعد عن الاسفاف والتبذل، واذا كانت الأفلام والمسلسلات قد أصبحت تجارة هدفها جمع الأموال الطائلة دون مراعاة للدور الثقافي الخطير الذي تمثله داخل البيوت ودور العرض، فالواجب أن تقوم الحكومات بدورها بتشديد الرقابة على نحو أشد على الأفلام التي تغير المفاهيم الصحيحة وتبذل الأخلاق الكريمة وتكرس للصراع الأسري والتنافس والتمحور على الذات ونشر قيم المنفعة المادية واللذة حيث يصبح الجري وراء المادة هو المحرك الرئيسي ومقياس النجاح ومعيار الخير والشر

- يجب تنظيم قطاع النشر بما يحميه من تيارات معادية داخليةوخارجية ويحقق له العمل بكفاءة في خدمة حركة المجتمع، والطريق الى ذلك هو وضع استراتيجية عربية للنشر تشترك فيها كل الدول العربية وقد عقدت لذلك ندوة «استراتيجية النشر العربي» بالجزائر بين ٢٢ - ٢٣ أكتوبر ١٩٨٥م. نظمها اتحاد الناشرين العرب، وقد تمخض عنها العديد، من التوصيات التي تخدم النشر العربي.[1]

- منذ امتلكت الثقافة التغريبية أدواتها الحديثة من صحافة واعلام

---

١ - راجع: اجراءات الندوة وتوصياتها والأبحاث التي عرضت فيها بمجلة الناشر العربي. العدد الخامس. يوليو ١٩٨٥م.

وسينما ومسرح ودور نشر أصبح لها خطرها المتعاظم، لأن هذه الأدوات تضمن لها الاتصال بالجماهير اتصالاً حميماً وتقديم مكوناتها الثقافية في صورة حية مقنعة جذابة تستهوي الأفئدة وتخلب الألباب وتسيطر على الجماهير وتسوقها نحو أهدافها التغريبية.

ومما ساعد التغريب على النفوذ داخل خلايانا الثقافية حرصنا الشديد على اقتناء أدوات الثقافة ووسائلها، ونظن أننا بامتلاكنا لها قد حققنا التقدم الذي نرجوه، وننسى أنها مجرد (وسائل) تتطلب البرامج والمادة الثقافية الجيدة الصالحة، يصدق هذا على المذياع والتلفزيون والسينما والمسرح والفيديو حتى الأقمار الصناعية، ولعل أوضح ما يبين لنا هذه المفارقة أننا استفرغنا (المال) في اقتناء القمر العربي (عربسات) على حين طاقته على العمل مازالت غير مستغلة الاّ بمقدار خمسة في المائة

ان التغريب يدخل في كل هذه النوافذ المشرعة ليل نهار، وتقوم (شلل الثقافة) بدور الوسيط حيث تمارس نشاطها المتسلط على رقاب الثقافة، ان اصلاح هذا الوضع يتطلب عزل هذه (الشلل) عن مراكز التوجيه، والعمل على اصلاح ما خلفه التغريب من مآسٍ فكرية وعقد ثقافية لدى الجيل الجديد.

ويثور سؤال: من المسئول عن تنفيذ التوصيات والمقترحات التي يضعها المشروع العربي للأمن الثقافي (ان المسئول بطبيعة الحال هو حكومات الدول العربية بما في يدها من امكانات وبما عليها من مواثيق مغلظة تجاه الأمة. فلا ينبغي أن تعمل النظم السياسية

الحاكمة على نشر ثقافة تخالف ثقافة المجتمع أو تضعفها، بل ينبغي أن تحمل الأمانة في تصحيح مسار الثقافة العربية حين يصيبه الانحراف، وتصحيح توجهاتها حين ينالها التشويه، وهذ هو دورها المفروض).

وهذا لا يعفي بطبيعة الحال المثقفين العرب من القيام بدورهم، فهم أصحاب الرأي والفهم والوعي، وعليهم أن يمارسوا دورهم الطليعي في حماية الثقافة وتقويم مؤسساتها وتقويم وسائلها، كما أن عليهم أن يتسلحوا بالإيجابية في توجيه الحركة الثقافية للمجتمع وألّا يركنوا الى الانعزال أو الإنطواء وأن يقوموا بالتعاون على انشاء المزيد من المؤسسات الخاصة بالثقافة التي تعبر عن توجيه نحو الثقافة الأصيلة وتمهد الطريق للوحدة الثقافية العربية.

لقد قدم المثقفون العرب مؤسسات ثقافية عديدةتسهم في اثراء نهر الثقافة العربية، وبعض هذه المؤسسات داخل الوطن العربي مثل: منتدى الفكر العربي بالأردن ومركز الدراسات العربية بلبنان، وبعض هذه المؤسسات خارج الوطن العربي مثل: المؤسسة الثقافية العربية بلندن، ومركز الدراسات العربية بلندن وبعض هذه المؤسسات له قدرة كبيرة مادية ومعنوية على العطاء، ولكن كثيراً منها يحتاج الى الدعم والتأييد بكل السبل من قبل المثقفين، واذا كان بعض هذه المؤسسات يعبر عن توجهات ايديولوجية محدودة، فإن المسئولية تجاه الأمة تحتم عليهم العمل في الاطار الصالح الذي يجمع الجهود ولا يشتتها، ويوحد الفكر ولا يمزقه.

ومع ذلك فإن الواجب الأكبر نحو الثقافة يقع على الحكومات

العربية لأنها تملك السلطة التي يمكن أن تمنح الثقافة الازدهار والنماء، أو تكبت أنفاسها حتى الموت، ففي الكفاح من أجل التنمية تقوم الثقافة بدور أساسي في تشكيل عقل الانسان، وهو دور لا يمكن أن يترك للمصادفات أو التلاعب في السوق، وانما ينبغي أن تتدخل فيه الدولة بكل ثقلها كيما تحمي العقول من المؤثرات السلبية التي تدغدغ أحط مشاعرها، وتستغل جوانب ضعفها لتحقيق مآربها الخاصة.[1]

وعلى الحكومات أن تشرك المثقفين والمبدعين في اتخاذ القرارات ورسم السياسات ووضع الخطط لدور النشر العامة ووسائل الاعلام، وذلك عن طريق الدعوة الى حوار ثقافي يشترك فيه كل المثقفين العرب وبخاصة الفئة العريضة الصامتة التي آثرت العزلة والبعدعن وسائل الاعلام، وتركت الساحة الثقافية لحفنة من مرتزقي الثقافة دأبت على نشر أفكارها بادعاء أنها سلطة كل المثقفين العرب!!.

ويجب أن تضمن الحرية في التعبير والنقد، حرية التعبير لكل الآراء في الصحافة ووسائل الاعلام المختلفة، وأن ترفع القيود عن حقوق الأقليات والقوى السياسية المختلفة في نشر نتاجها الثقافي والفكري مادامت تثري مجرى الثقافة العربية

اننا ندعو الى الغاء الرقابة على سائر المطبوعات وأن تتوافر حرية التعبير والنشر كحقٍ أساسي لكل مواطن، وان كان لابد من رقيب فليكن لصالح الثقافة لا عليها، وليكن دعماً للفكر الحر لا أداة للحجر والمصادرة، ان المثقف العربي لن يرضى عن الرقابة أن تكون

---

١ - الدكتور فؤاد زكريا. المرجع المذكور.

أداة حرمان من حقه في المعرفة الحرة ونشر المؤلفات التي تنير بشجاعتها الظلمات التي تكتنف الواقع العربي لأنه يعلم جيداً أن الرقابة المتزمتة تؤدي الى تخلف ثقافي وعوز فكري وأنيميا عقلية، وتفرض على الواقع ضباباً يخفي عيوبه بدل أن يصلحها.

وعلى الحكومات العربية كذلك أن تضع القيود للتعامل مع الشركات المتعددة الجنسية لحماية الثقافة القومية من التخريب، وفرض ضوابط استيراد التكنولوجيا الاعلامية والمواد الثقافية، وأن تشكل لجنة لدراسة حجم ونوع التسلل الصهيوني وأخطاره على ثقافتنا ونظامنا الاجتماعي والاقتصادي ثم تضع الأساليب العلمية لمواجهته

وقد دعا بعض المثقفين الى انشاء مؤسسة عربية مستقلة، عن مجمل الاتجاهات الفكرية والسياسية في الوطن العربي وتكون وظيفتها الأساسية وضع خطة قومية لمواجهة (التسلل الثقافي الصهيوني) وجمع المعلومات عن طبيعة هذا النشاط وابتداع الأساليب المختلفة لمواجهته وفضح المتعاملين مع العدو الصهيوني واصدار المطبوعات (الشعبية) التي توضح للمواطن العادي حجم المواجهة الحقيقية، وحقيقة المخطط الصهيوني الذي يهدد المجتمع [1]

لقد لعب التسلل الصهيوني دوراً خطيراً في غزو لبنان من أجل تعطيل الدور الثقافي اللبناني الذي أخصب ساحة النشر العربية، وكما ظهر الجيش الموالي لاسرائيل في الجنوب اللبناني فقد برزت دور نشر

١ ـ أسامة عفيفي. نحو مؤسسة قومية لمواجهة التسلل الصهيوني. مجلة الموقف العربي. العدد ٧٩. السنة العاشرة. نوفمبر ١٩٨٦م ص: ١١٥

مشبوهة وغامضة، ويعد حماية لبنان الناشر ـ على المستوى العسكري والثقافي ـ تحدياً كبيراً على العرب أن يواجهوه بقوة لأنه يعني مطاردة للانسان العربي والعقل العربي وتهديد الثقافة ووجوده.

ان الوحدة الثقافية العربية لن تتحقق بالقوانين وحدها أو بالمواثيق وقرارات المؤتمرات وتوصياتها، فقد ظلت فكرة الوحدة العربية عامة، والوحدة الثقافية خاصة أملاً مطروحاً اقترب منه العرب حيناً وابتعدوا عنه أحياناً، وقد أثبتت محاولات الوحدة السياسية فشلها لأنها قامت على أساس غير تنظيمي، بل كانت استجابة لعواطف وقتية فجة، وكذلك صدر ميثاق الوحدة الثقافية العربية سنة ١٩٦٤م ـ وعمره بذلك من عمر كاتب هذه البحث ـ وللآن لم تزل بنود هذا الميثاق حبراً على ورق.

وقد قامت دول الخليج العربي بخطوات طيبة نحو الوحدة الثقافية وتلبور ذلك في مشروع خطة التنمية الثقافية لدول مجلس التعاون الخليجي، وحددت أهدافها في الآتي:[1]

١ ـ إغناء شخصية المواطن في الخليج العربي وبناء تكاملها عن طريق الوعي المتزايد بعقيدته وتراثه وكرامته وانتمائه، وبقدرته على مواكبة التطور الانساني.

٢ ـ تطور البنى الاجتماعية والاقتصادية والفكرية بوصف الثقافة ركن البناء الحضاري وأساس تماسك الأمة

٣ ـ التشبع بالهوية الحضارية العربية الاسلامية بوصف الثقافة

---

١ ـ جريدة عكاظ. ١٩٨٧/٨/١١م.

مستودع الأصالة والكنز الواسع من الخبرات اللازمة.

٤ - تحويل واقع التجزئة الراهن لدول مجلس التعاون الى وحدة اقليمية متكاملة ترسي أسسها التوجيهات الثقافية، كما يغذي مسيرتها ويثبت دعائم استمرارها الانتاج الثقافي في أبعاده المختلفة من سياسية واجتماعية واقتصادية واعلامية وابداعية.

٥ - التحرر الشامل ضمن الاطار العربي بوصف الثقافة وسيلة دفاع ضد الاستلاب والتبعية بقدر ما هي عنصر بناء وابداع.

٦ - تنمية العطاء الحضاري انسانياً بوصف الثقافة عنصر التآخي ضمن الاقليم الواحد، وعنصر التقارب والتعاون مع الحضارات الانسانية الأخرى.

٧ - التصدي لمحاولات الاستلاب الثقافي بتحصين المنطقة عن طريق جعلها مجتمعاً فاعلا ومنتجاً.

٨ - توطيد المضمون الوطني توطيداً ثقافياً وتنموياً شاملا للأطفال والناشئة والشباب من خلال قطاعات التربية والتعليم والاعداد والانتاج الثقافي بمختلف أشكاله.

يعد قطاع نشر التراث اليوم من أكثر القطاعات امتداداً واتساعاً وعمقا في حركة النشر العربي، وتشير الاحصاءات الى أن كتب التراث تمثل ٥٥٪ من مجموع ما ينشر من عناوين في لبنان، كما يستهلك ٦٥٪ مما تستهلكه حركة النشر من ورق الطباعة، وهذا مؤشر طيب على اتصالنا بالتراث، ولكن الواقع يشير الى أن الوطن العربي ما زال يفتقد مؤسسة قومية تقوم على تحقيق التراث ونشره وتجمع تحت لوائها المؤسسات القطرية العربية، فالجهود المبذولة في

مصر والعراق والكويت ولبنان وقطر وغيرها من الدول العربية لا يمكن التقليل من شأنها، ولكنها تفتقر الى التنظيم الموحد الذي يجمع هذه الجهود ويحميها من التشتت أو ربما التضارب أحياناً!!

إن مسألة تحقيق التراث مازالت بحاجة التى تخطيط يضعها في سلم الأولويات ويقرب الينا تراثنا بلغة عصرية مفهومة، وأسلوب علمي سليم، ويحيي فينا خبرات هذا التراث وجواهره التي تصلح مرتكزات لنهضة ثقافية وتقدم علمي، لا أن نقف عند سلخ من التراث يحيي النعرات والعنصريات والفرق، ويعمق شقوق الخلاف بين الأمة الواحدة.

إن احياء التراث وتحقيقه ونشره عملية تتطلب مجهوداً أكبر وتعاوناً أعظم بسبيل انتقاء الصالح منه وتقديمه في صورة تجعله جزءاً من زادنا الثقافي اليومي، لا أن يكون التراث قصراً على مجموعة من الأفذاذ الذين يتغلبون على العوائق في الوصل اليه، والتواصل معه، وقد أثبتت دراسات عديدة أن الاستشراق دأب على احياء التراث الفاسد، وأن مؤسسات وجهات غربية عملت على نشر كتب لا تخدم مطالب الأمة ولكن تشغلها بقضايا جدلية فارغة من المضمون.

إن تراثنا العربي الضخم ينبغي أن يأخذ دوره المتميز في بناء ثقافة عربية أصيلة لأنه يمثل الجذور التي تربطنا بمقوماتنا الأساسية، ولكن ما نخشاه ونحذر منه أن تكون عودتنا للتراث واتصالنا به ليس لفهمه والتوسل به الى النهوض والتقدم وتحقيق الأصالة الثقافية، ولكن اتصال هو هروب من الواقع وانعزال عن العصر، وانسحاب

الى مواقع دفاعية نتحصن فيها بالماضي حين ننهزم في مواقعنا الآنية، وانكفاء على اجترار هذا الماضي حتى يصبح عملا يستهلك قوانا في حين يواصل الآخرون نهضتهم وتقدمهم.

ولعل الدعوة التي وجهها الاختصاصيون تجد صداها في تطعيم مناهج الدراسة في العلوم المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالتراث، وأن يدمج التراث في مناهج الدراسة بصورة متناسقة متكاملة، وأن نعمل بذلك على تدعيم انتماء جيل الشباب بالتراث بحيث نبدأ في تحديد المفاهيم من التراث، باعتبارنا ننتمي اليه ثم ننتقل الى ما عند الآخرين.

وبذلك فإن الاحساس بالانتماء ـ الذي يقابله الاحساس بالغيرية ـ انما يكون لدينا موجهاً نحو التراث العربي الاسلامي، حتى نقضي على الازدواجية التي تصيب المثقف العربي المغترب حينما يشعر بانتمائه لثقافة الغرب، هذا الانتماء غير الأصيل، الأمر الذي يجعله يرجع الى المراجع الأجنبية والموسوعات الغربية بدلا من أن يبدأ بالتراث ثم يكمل الاطار بعد ذلك من عند الغير، إن طريقة التدريس المعتمدة على البداية المستمدة من الفكر الغربي انما تحمل انحيازاً قيمياً للثقافة الغربية، وتحمل في الوقت نفسه الشك والتجاهل لقيمة التراث العربي الاسلامي[1]

إن خدمة التراث تتطلب استخدام التقنيات الحديثة ومنها

---

١ ـ الدكتورة نيفين عبدالخالق مصطفى. اشكالية التراث والعلوم السياسية. المسلم المعاصر ع ١٣ س ١١ ١٤٠٥هـ. ص: ٨٢.

الكومبيوتر في مجال الحفظ والفهرسة والتحقيق والدراسة والنشر، وبالاضافة الى المركز القومي لاحياء التراث ـ الذي دعونا اليه ـ نقترح انشاء معهد عال يمنح دبلومات متخصصة في تحقيق النصوص التراثية على اختلاف فروعها، كما نوصي بتخصيص احدى جوائز الدولة لتحقيق التراث، ولا يكفي في ذلك ما أعلنه مجمع اللغة العربية بالقاهرة مؤخراً عن تخصيص جائزة سنوية لتحقيق التراث رغم أهمية هذا الاجراء.

الأقمار الصناعية والغزو الثقافي

لعل التحدي الأكبر الذي يواجه الثقافة العربية في المرحلة الآتية والمستقبلية يأتي من دخول تقنية الأقمار الصناعية مجال الغزو الفكري والثقافي عن طريق البث الاذاعي والتلفزيوني المباشر، إن الأمة العربية مستهدفة فكرياً واجتماعياً وسياسياً ومن أخطر الأسلحة التي تستخدم ضد هذه الأمة وسائل الاعلام المتطورة التي تستغل تقنيات الفضاء في نشر مظلة من الثقافة الغازية تغطي الأجواء العربية.

ويرى الاختصاصيون أن هذه البرامج التي تبثها الأقمار الصناعية الغربية سوف تدعم هيمنة الدول الصناعية المالكة للأقمار وتعزز ثقافتها وعاداتها وتقاليدها في البلدان المستقبلة للبرامج، وهذا يشكل غزواً جديداً وتهديداً للثقافة والقيم والمفاهيم في الدول غير القادرة على مجابهة هذا الغزو، والدول العربية والاسلامية هدف

رئيسي في هذا الغزو

وقد أطلق مؤخراً القمر الصناعي الألماني (T.V SAT) وهو يغطي قسماً كبيراً من أوروبا وخلال الأشهر القادمة سوف يطلق القمر الصناعي الفرنسي للبث المباشر (T.D.F1)[1]، ويمكن استقبال ارسال هذين القمرين في الدول العربية في شمال افريقيا وشرق البحر الأبيض المتوسط باطباق استقبال دون المتر الواحد حسب بعد وقرب موقع الاستقبال من أوروبا

كما أن لدى البرنامج الأوروبي والبرامج الأمريكية للفضاء خطة لاطلاق العديد من أقمار البث التلفزيوني المباشر خلال السنوات الخمس القادمة، ويمكن استقبال ارسال معظمها في أرجاء العالم العربي.

وفي الوقت الحاضر يجري التقاط قنوات تلفزيونية ولا سيما في بلدان المغرب العربي، ومن بينها تلفزيونات أوروبية بل وحتى برامج قناة أو اثنتين من الولايات المتحدة الأمريكية وذلك بفضل هوائيات وتركيبات خاصة تباع في الأسواق أو تجلب من الخارج، وهذا ما يحدث فعلا في المملكة المغربية مثلا، كما أن الجزائر تلتقط بعضها، وتلتقط هناك في أوقات معينة بعض التلفزيونات غير البعيدة، فضلا عن تلك التي ترسل بالأقمار الصناعية وكذا الواقع في تونس.

---

١ ـ تم اطلاق القمر المذكور بالفعل في الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٨٨م ـ بعد كتابة هذه السطور ليستقر في مداره على بعد ٢٦ ألف كيلو متر من سطح المحيط الأطلنطي.

ولعل الأخطر من ذلك خطط الغزو الاعلامي والثقافي التي بدأ العدو الصهيوني يطور وسائلها، ففضلا عن أن الاذاعة والتلفزيون الاسرائيلي يصل بثهما الى مناطق عربية عديدة فقد كان العدو يعمل كذلك منذ وقت مبكر لاطلاق قمر صناعي يكون ركيزة للسيطرة على الفضاء العربي وبث سمومه من خلال البث المباشر للبرامج الاذاعية والتلفزيونية كوسيلة فعالة لغزو العقل العربي وتحطيم مقومات شخصيته.

ومن المنتظر في المستقبل ومع التقدم المستمر لوسائط الاتصال أن تسقط كل الحواجز القائمة بين الدول والشعوب، وأن تكون عمليات الاتصال والتفاعل والغزو الاعلامي أكثر يسراً وأشد خطورة نتيجة لطغيان الثقافات الغازية على ثقافات الدول الضعيفة ومحاولة احتوائها.

وأمام كل ذلك لنا أو علينا أن نسأل أنفسنا: ماذا أعددنا لمواجهة هذا الغزو الاعلامي الثقافي الاجتماعي السياسي الموجه! إن المواجهة لا يمكن أن تنجح ـ في رأينا ـ بسن القوانين التي تحظر الاستقبال وحدها، بل لابد من مواجهة هذا الخطر بكل السبل والامكانات المتاحة والممكنة.

إن مواجهة الغزو الفكري والثقافي القادم عبر أجواء الفضاء لا تتم عن طريق فرض سلطة قوية أو عقاب صارم أو مراقبة دقيقة أو محاسبة تحصى على الناس الانفاس وتحاسب على الخواطر والهواجس، كما لا يمكن أن تتم هذه المواجهة عن طريق الدعايات الصحفية أو

الاذاعية، ولكن تتم هذه المواجهة عن طريق التحصين الفكري والارتقاء الثقافي ومواجهة الحقائق بشجاعة وعلم ومقدرة.

ويجمع الاختصاصيون[1] على أن الوسيلة الأمثل لمواجهة هذا الزخم الهائل من البرامج الأجنبية المغترضة هي ايجاد البدائل من البرامج التلفزيونية العربية ذات الجودة العالية والمتعة الملموسة جوهراً وشكلا والتي تجذب اليها المشاهد وتصرفه عن غيرها، ودعم هذه البدائل علمياً ومادياً وفنياً ويؤكد الاختصاصيون على أنه ليس من بديل سوى اتخاذ قرارات على أعلى مستوى من المسئولية تلزم الجميع بتكريس الجهود والتعاون والتنسيق على جميع الأصعدة الوطنية والقومية والاسلامية لتطوير البرامج التلفزيونية والرسائل الاعلامية بصفة عامة لترقى من حيث الشكل والمضمون لمجابهة الغزو القادم عبر الفضاء.

ولعل دخول العرب عصر الفضاء باطلاق القمرين الصناعيين للاتصال (عربسات) عام ١٩٨٥م مرحلة هامة في تأمين الثقافة العربية، ووعي بالوسيلة المناسبة لمعالجة الخطورة الناجمة عن الغزو الثقافي عبر أجواء الفضاء، وقد ارتبط اطلاق القمرين العربيين بكثير

---

١ ـ منهم: عبدالرحمن العبدان. الأمين العام للمجلس الأعلى للاعلام بالمملكة العربية السعودية، وعبدالله شقرون. الأمن العام لاتحاد اذاعات الدول العربية، عبدالقادر بعيري. المدير العام للمؤسسة العربية للاتصالات الفضائية «عرب سات» وسعد دهلوي. المدير العام لجهاز تلفزيون الخليج. راجع مجلة الأمن والحياة. دار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب بالرياض. العدد ٦٨ السنة السادسة. رجب ١٤٠٨هـ.

من الآمال والتطلعات للمثقفين والعلماء العرب لأن توافر وسائل المواصلات أمر له آثاره المعروفة في كل ضروب التنمية، وانسياب المعلومات والثقافات من مكان لآخر يحمل من الخير الكثير، وحامت هذه الآمال حول توحد عربي تحت مظلة نقل الثقافة وتعميم الأخبار عوضاً عما اخفقت فيه السياسة والدبلوماسية.

وكان من هذه الآمال والتطلعات: الانفتاح على العلم والمعرفة بعمق وتوسع للقضاء على الأمية التي تعض بنابها أكثر من ٨٠٪ من أبناء أمتنا، وراودت المثقفين فكرة «الجامعة الشعبية أو جامعة الهواء» التي تنشر العلم والثقافة فى كل مدينة وقرية ونجع في بلاد العرب.

ويمكن عن طريق القناة الجماعية الغزيرة في اشعاعها التقاط المواد التي قد ترسل عليها بشكل يكاد يكون مباشراً في أنحاء العالم العربي في وقت واحد، ويمكن مع ذلك نشر صحافة عربية موحدة بأسلوب نقل الصور أو «الفاكسميلي» أو «الفيديوفون» بالاضافة الى نقل المعلومات وتخزينها في ذاكرة الحواسب الاليكترونية[1].

ومنذ البداية فقد انعكست سلبياتنا على القمر الصناعي العربي فبالاضافة الى توقف «عربسات ـ ١» على العمل بعد شهور قليلة من اطلاقه فإن «عربسات ـ ٢» لا يعمل بكامل سعته بل أن نسبة الاستخدام الكلي لسعة قنواته لا يزيد على ٢,٤٪ كما جاء في محاضر

---

١ ـ سعد شعبان. عربسات انجاز حضاري لم يستفد به العرب. مجلة المهندسين. العدد ٣٨١ ديسمبر ١٩٨٦م. ص: ٥.

المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية، مع العلم بأن «عربسات ـ ٢» قد انتهى من عمره قرابة ثلثه.

إن المشكلة الكبرى هي «إننا ننفق بسخاء على اقتناء التقنيات الحديثة مثل القمر الصناعي العربي . الا أننا نقتر الى درجة الشح في الانفاق على استخدام هذه التقنيات لتحقيق الغاية المرجوة من اقتنائها، وفي دعم الأجهزة والهيئات المستخدمة لها»[1]

لقد قصرت الهمم عن اعداد البرامج الثقافية والترفيهية والتعليمية اللازمة لتشغيل القمر الصناعي العربي، كما أن شعوب العالم العربي لم تتهيأ لاستقبال هذه البرامج اعلامياً ولم تبصر بأهميتها، إن سلبيات التخطيط تقضي على المجهودات الجبارة التي بذلها العرب لاقتناء تقنيات الفضاء، والأمر يحتاج الى رسم استراتيجيات جديدة وخطط متطورة لخدمة هذا القطاع الجديد الضروري لتحقيق الأمن الثقافي العربي.

ولابد لنا ألا تغفل لحظة عن أن الغرب يعد كل حين لغزوة ثقافية من خلال امكاناته المادية الجبارة وتقنياته المتطورة، كما يجب تحصين العقل العربي وتوعيته بانتمائه الحقيقي وقيم ثقافته الأصيلة، وغرس روح الاعتزاز بذاته وثقته بنفسه وبقدراته حتى لا يساق سوقاً أعمى أمام البرامج الغربية، إن البصيرة الناقدة التي تميز بين الغث والثمين هي أهم ما يجب أن يتحلى به العربي مع ايمانه العميق بدينه

١ ـ سعد دهلوي. مجلة الأمن والحياة. المرجع السابق. نفس العدد. ص: ٣٦

وأخلاقياته، ثم يتوجب مع ذلك توفير المواد الاعلامية الجيدة التي تشبع حاجاته وتصرفه عن المواد الأجنبية التي تصل اليه مع الهواء.

وهنا ندعو كل المعنيين بمشروع الفضاء العربي والمشاركين فيه الى النظر بجدية الى التحدي الحضاري العظيم الذي تمثله تقنيات الفضاء والمخاطر التي تهدد الثقافة العربية بالتحكم في قلوب أبنائها، كما ندعو الى عقد مؤتمرات يشارك فيها الوزراء العرب المسئولون عن المواصلات والثقافة والاعلام والتربية والتعليم لوضع مخططات غير تقليدية يتعاون الجميع على تنفيذها بجد واخلاص لاستدراك ما تخلفنا منه في هذا المضمار.

الخطة الشاملة للثقافة العربية

ظل الواقع الثقافي العربي في حاجة ملحة لوضع خطة ثقافية عربية شاملة تتخطى الايديولوجيا المطروحة، التي مزقت الوحدة الثقافية العربية أو حالت دونها، وتتمثل الأيديولوجيات العربية الاسلامية التي تعتمد على التراث بوعي ولا تتمرد عليه، وتمد أقدامها في الواقع ولا تتخلف عنه أو تنصهر فيه، لتصنع مستقبلا أفضل للثقافة العربية.

إن أزمة (الاتجاه) هي التحدي الأول أمام أية خطة ثقافية عربية شاملة موحدة، لأن الواقع الثقافي العربي تتوزعه دعوات مختلفة ومصارعة، وهذا يحول دون التوحد الثقافي، ويجعل محاولة التخطيط

لثقافة عربية واحدة ضرباً من التخليط.

وقد كانت الدعوة موجهة دائماً الى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (احدى منظمات الجامعة العربية) لوضع خطة شاملة للثقافة العربية، وعندما عقد المؤتمر الثاني لوزراء الثقافة العرب تحت شعار «نحو استراتيجية للثقافة العربية» (في ليبيا عام ١٩٧٩م) أصدر توصية الى المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (اليونسكو العربي بالمعنى المتداول) أن تقوم بالعمل على وضع خطة ثقافية عربية شاملة، وأصدرت المنظمة قراراً بتشكيل لجنة لوضع الخطة بعد ذلك رأسها الأستاذ عبدالعزيز حسين، وبعد دراسة استمرت ثلاث سنوات صدر القرار النهائي للخطة الشاملة للثقافة العربية في أربعة أجزاء تضمنتها ستة مجلدات أواخر عام ١٩٨٦م.

وقال الأستاذ عبدالعزيز حسين رئيس اللجنة في تقديمة للتقرير النهائي: «إن اللجنة كانت تدرك أن وضع الخطة يقتضي تحديد المنظور المستقبلي العربي والرؤية الواضحة لنوع الانسان الذي نريد وشكل المجتمع الذي نبني، وبناء نظرية ثقافية متكاملة على أساس ذلك لتكون الاطار المرجعي للسياسات الثقافية العربية في تنوعاتها القطرية وضمن تحديات الغد الثقافي ومتغيراته».

وقد تضمن المجلد الأول نص التقرير الذي تحدث عن خطوات عمل اللجنة وعن الثقافة العربية في اطارها القومي والعالمي وعن وسائل العمل للخطة من خلال دراسة شاملة حول مبررات الخطة ومنهجها وتبويبها وأسس عملها ووسائله بعد بحث مركز حول

الهوية الثقافية العربية.

وتضمن المجلد الثاني الدراسة الشاملة للخطة تحت عنوان: «الواقع والمستقبل، بدأت بطرح الملامح العامة للخطة وفرضياتها النظرية وفلسفتها وروحها ومبادئها العامة.

وضم المجلد الثالث البحوث وتوصيات الندوات التي عقدتها اللجنة العامة وقد نشرت التوصيات على أرضية من تلخيصات مستفيضة لمناقشات اللجنة العامة أو اللجان المتخصصة التي دعتها اللجنة العامة لبحث مجالات العمل الثقافي العربي.

ويشتمل المجلد الرابع على الاستبانة الثقافية التي أجرتها اللجنة على الدول العربية مستهدفة تقديم ملامح الواقع الثقافي العربي من خلال جداول أفرغت فيها بشكل احصائي اجابات جميع الدول والمؤسسات القطرية العربية، والجداول تضم اجابات ١٧ دولة عربية فقط والدول المفتقدة هي الصومال وجيبوتي وفلسطين وليبيا ولبنان.

وأوضح التقرير النهائي للخطة أن التراث بجميع أنواعه مهدد في أغلب الدول العربية، وجاء في المجلد الرابع لتقرير اللجنة عن واقع الثقافة العربية أن أسباب تهديد التراث في أغلب الأحيان تعود الى الأمور ذاتها في كافة الدول العربية. وهي اما بسبب وجود التراث في مناطق مشاريع حديثة أو بسبب التخلف وعدم الوعي، أو بسبب النهب التجاري يضاف الى ذلك سبب رابع وهو وجود التراث في مناطق محتلة، وتنفرد به دول المواجهة مع اسرائيل بالاضافة الى

المغرب التي تحتل اسبانيا بعض مناطقها التي بها التراث.

وأضاف التقرير أن هناك عمليات تزييف وانتهاك وسلب للتراث في أغلب الدول على الرغم من وجود تشريعات لحمايته، كما أكد وجود آثار منهوبة وقيام محاولات لاستردادها بمساعدة اليونسكو، كما تطرق الى المخطوطات ومستوى حفظها وأسلوب فهرستها مشيراً الى انفراد دولة البحرين فقط بفهرسة جميع مخطوطاتها.

وقد قامت الخطة على عدد من المبادىء الأساسية يمكن ايجازها في الآتي:

- ان الثقافة هي قوام شخصية الأمة، والمعبر الأصيل عن تطلعاتها والدعاية الحقيقية لوحدتها الشاملة
- ضرورة وضع سياسية ثقافيةعربية واحدة واضحة الأهداف والمعالم والوسائل.
- ضرورة التكافل الثقافي العربي. ودعم مجالات التعاون فيه، وبتنسيق متكامل يعزز الوحدة الثقافية العربية.
- الإيمان بالدور الحضاري الرائد للثقافة العربية.
- القضاء على جميع آثار الاستلاب الثقافي والغزو الفكري ظاهراً ومستتراً.
- تأكيد اعتبار الثقافة حقاً لجميع المواطنين مرادفاً لحقهم في التعليم ولحقوقهم السياسية والاجتماعية.
- وجوب دعم اللغة العربية واستخدامها في كل وسائل الاعلام والثقافة فاللغة القومية أهم دعامة للوحدة.
- الدفاع عن الثقافة العربية في الأراضي المحتلة في فلسطين.

- تعزيز تمويل العمل الثقافي ودراسة انشاء صندوق قومي للتنمية الثقافية.
- تنظيم التكامل والتنسيق بين أجهزة الثقافة وأجهزة التعليم والاعلام.
- توحيد الأنظمة العربية في جميع مجالات النشاط الثقافي أو التقريب بينها.

ان اصدار الخطة الشاملة للثقافة العربية يعد خطوة عظيمة الأثر في دوائر الثقافة العربية، فلأول مرة يتعاون جهد علمي عربي منظم في وضع خطة مشتركة للثقافة، تعتمد على دراسات المتخصصين وبحوثهم وندواتهم وآرائهم، وتهتم بالحقائق والمعلومات بأسلوب منهجي منظم، ولكن مضى حوالي عامين على اصدار الخطة دون أن نلمح بداية تنفيذ أو تغيير ثقافي يشير بوضوح الى أن الخطة لم تكن الاّ عملاً أكاديمياً نظرياً، كما تدلل بقوة على أن الواقع العربي لم يتخلص بعد من عيوبه التقليدية في علاج مشكلاته، فهو يدرسها ويضع العلاج ثم ينسى ما درس، ويتحمس بسرعة للتطوير والتحسين ثم يبرد حماسه بسرعة أيضاً.

ان المنظمة العربية قد أبرأت ذمتها بوضع الخطة فهل يبرىء المسئولون عن الثقافة في الوطن العربي ذمتهم بتنفيذها؟

وعلى الرغم من الجهود الجبارة التي بذلت لإعداد الخطة الاّ أن المثقفين العرب كانوا ينتظرون منها أكثر مما أتت به، كانوا يأملون اهتماماً أكبر بوضع البرامج ومشاريع العمل واطارات التنفيذ للارتقاء بحال الثقافة العربية واصلاح شأنها واخراجها من مأزقها

وانقاذها من دائرة الصراع التي تحكمها وتضعفها.

لكن الخطة صرفت جل همها في دراسات نظرية حول الثقافة عموماً والثقافةالعربية خصوصاً، ووقعت في عدة مآخذ في اعتمادها على التهويل اللفظي واطلاق العبارات غير المحددة والدفاع عن مراحل الضعف الثقافي وتبرير هذا الضعف دون مبرر لذلك، والاجمال في بيان مواطن القصورالضعفوالتفصيل في مواضع القوة والتغني بها.

وعلى الرغم من أن الخطة (شاملة) فإن دراستها للواقع الثقافي لم تكن كذلك فقد أغفلت كثيراً من جوانب الضعف والتشوه والانحراف والتناقض، وأهملت مايدور من معارك ومؤامرات والخطة إن لم تصور الواقع بصدق فلابد أن يصيبها القصور، فلابد من تحديد المشكلات التي يشهدها الواقع الثقافي ثم التعامل معها في محاولة للعلاج، ولابد من دراسة نقدية صارمة ومستنيرة لتاريخ الثقافة وحاضرها مع الكشف عن فترات الانتكاس أو التراجع الثقافي، أو حالات الضمور أو الانحراف الفكري وهي كثيرة في تاريخنا وواقعنا وليس معنى أن الخطة صدرت عن منظمة رسمية أن تتحول (الجهات الرسمية) الى منطقة محرمة.

ويخيل للدارس أن الخطة لا تنظر الى ثقافتنا نظرة واقعية تكشف حقيقيتها الغارقة في الحمأ المسنون، بل تنظر اليها نظرة منتشية محملة بالتمجيد والزهو والخيلاء والاستغراق في التعظيم والمباهاة في الحديث عن تفردها بين الثقافات القديمة بقدرتها على استيعاب الثقافات الأخرى دون أن تفقد خصوصيتها، وقدرتها الهائلة على

التطور وعدم الجمود على شكل واحد والحديث عن التوازن الذي يعيشه الانسان العربي بين المادة والروح من خلال نظرة متميزة لموقع الانسان في الكون وهي توازنية الاسلام وقيمه ثم الانفتاح الرحب.
والطنطنة حول هوية نوعية ليست مغلقة بل هوية شمول لتيارات مختلفة واتجاهات متنوعة، وهوية متطورة تمثل حصيلة تجارب انسانية عبر عهود طويلة من التاريخ وعلى حيز واسع من الأرض. والشقشقة بصمودها لجميع محاولات الاستلاب أو التشويه أو الغزو الثقافي سواء من الاستعمار بجميع أشكاله أو من الغزو الصهيوني الأجنبي.

ولعلنا من هذا الحديث المشعشع بالتفاؤل للخطة لا يحق لنا أن نتحدث عن الأزمة الثقافية واغتراب المثقف العربي. أزمة في الهوية والانتماء، وأزمة في الأدوات والوسائل والأساليب، وأزمة في السلطة وأزمة في مواجهة التغريب الذي تغلغل في أحشائها!! ولماذا بعد كل هذا الواقع «الطيب الصالح» الذي تشهده الثقافة العربية نتحدث عن (ثقافتنا الرديئة)!؟ أو نتكلم عن ضرورة التنمية والاصلاح الثقافي مادامت ثقافتنا قوية عفيفة ماجدة صادمة..!!

وعلى أية حال. فإن العمل على تنفيذ هذه الخطة الثقافية الشاملة وتحقيق قضاياها المختلفة، والانتقال بها من الإطار النظري الى الواقع العملي، هو التحدي الأكبر لأمتنا العربية ومستقبلها الثقافي والحضاري، وهو العمل المطلوب لبلورة ملامح مجتمعنا العربي الذي يتحقق بالهوية العربية الاسلامية في شكلها ومضمونها وقدرتها على العطاء، والمحافظةعلى خصوصيتنا الثقافية والوصول الى نظام ثقافي جديد لا يخاصم الثقافات الانسانية أو يناصبها العداء، ولايخضعلها

ضعفاً وعجزاً ولكن يتفاعل معها بسبيل اقامة حضارة انسانية عالمية تقوم على العدل والسلام. □

المراجـــــع

الكتـــب:

- أساليب الغزو الفكري للعالم الاسلامي. علي جريشة وآخرون. دارالاعتصام. القاهرة: ١٩٧٨م.
- الاستشراق. ادوارد سعيد. مؤسسة الأبحاث العربية الطبعة الثانية. بيروت: ١٩٨٤م.
- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري. الدكتور محمد حمدي زقزوق. الطبعة الثانية. كتاب الأمة (٥). قطر: ١٤٠٤هـ.
- الاسلام في معركة التغريب. أنور الجندي. كتب اسلامية ٣٤، المجلس الأعلى للشئون الاسلامية. العدد الثالث. القاهرة: ١٩٦٤م.
- الاسلام على مفترق الطرق. محمد أسد. دار الاعتصام. القاهرة: د. ت.
- الاسلام وتحديات الانحطاط المعاصر. منير شفيق. الزهراء للاعلام العربية. الطبعة الثانية. القاهرة: ١٩٨٧م.
- الأعمال الكاملة طه حسين. المجلد التاسع. علم التربية. دار الكتاب اللبناني. بيروت. ١٩٨٢م.
- تاريخ الغزو الفكري والتغريب خلال مرحلة مابين الحربين العالميتين. أنور الجندي. ١٩٢٠م/١٩٤٠م. دار الاعتصام القاهرة: ١٩٨٨م.

- تاريخ جمعية مقاومة التنصير المصرية ١٩٣٣ - ١٩٣٧م. الدكتور خالد نعيم. المختار الاسلامي القاهرة: د. ت.
- التربية الاسلامية الحرة في الحكومات والبلاد الاسلامية. أبوالحسن علي الحسيني الندوي. مؤسسة الرسالة. بيروت: ١٩٨٠م.
- حضارة عصر النهضة. جيمس ويستفال تومسون وآخرون. ترجمة الدكتور عبدالرحمن زكي. دار النهضة العربية بالاشتراك مع فرانكلين للطباعة. القاهرة - نيويورك: ١٩٦١م.
- خطاب الى العقل العربي. الدكتور فؤاد زكريا. كتاب العربي (١٧). الكويت: ١٥ أكتوبر ١٩٨٧م.
- الخطة الشاملة للثقافة العربية. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. ١٩٨٦م.
- دراسات أدبية. عمر الدسوقي. دار نهضة مصر القاهرة: د. ت.
- سموم الاستشراق والمستشرقين في العلوم الاسلامية. أنور الجندي. الطبعة الثانية. دار الجيل. دار التراث الاسلامي. بيروت - القاهرة: ١٩٨٥م.
- سياسة التغريب في الوطن العربي. الدكتور نزار الحديثي. مركز الدراسات العربية. لندن ١٩٨٠م.
- الصحافة والأقلام المسمومة. أنور الجندي. دار الاعتصام. القاهرة: ١٩٨٠م.
- الصحافة الصهيونية في مصر ١٨٩٧ - ١٩٥٤ الدكتورة عواطف عبدالرحمن. دارسة تحليلية. دارالثقافة الجديدة. القاهرة: ١٩٨٠م.

- الصراع بين الفكرة الاسلامية والفكرة الغربية. الطبعة الثالثة أبو الحسن النووي. دار الأنصار ١٩٧٧ القاهرة.
- العودة الى الذات. الدكتور علي شريعتي. ترجمة: الدكتور ابراهيم الدسوقي شتا. الزهراء للاعلام العربي. القاهرة: ١٩٨٦م.
- الغارة على العالم الاسلامي. محب الدين الخطيب وآخرون. مكتبة أسامه بن زيد. بيروت: د. ت.
- الغزو الفكري. محمد جلال كشك. المختار الاسلامي.
- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا. محمد الغزالي. دارالصحوة. القاهرة: ١٩٨٧م.
- فقه التاريخ وأزمة المسلمين الحضارية. الدكتور عبدالحليم عويس. دار الصحوة. ١٩٨٦م.
- في معركة التراث. الدكتور عون الشريف قاسم. دارالقلم. بيروت: ١٩٨٠م.
- قضايا التبعية الاعلامية والثقافية في العالم الثالث. الدكتورة عواطف عبدالرحمن. عالم المعرفة (٨٧). المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت: يونيو ١٩٨٤م.
- قضية السينما ـ الصمت المرفوض. أحمد الأسواني. دون بيانات.
- القرآن والثورة الثقافية. الدكتور محمد خلف الله. الأنجلو. القاهرة: ١٩٧٤م.
- المستشرقون. نجيب العقيقي. الطبعة الرابعة. دار المعارف. القاهرة: ١٩٨١م.

- مؤلفات في الميزان. أنور الجندي. وزارة الشئون الاسلامية والأوقاف. دولة الامارات العربية المتحدة. د. ت.
- المقومات الاسلامية للثقافة العربية الدكتور يوسف نور عوض. دارالقلم. بيروت: د. ت.
- المؤامرة الاسرائيلية على العقل المصري أسرار ووثائق. حازم هاشم. دارالمستقبل العربي. القاهرة: ١٩٨٦م.
- النفوذ اليهودي في الأجهزة الاعلامية والمؤسسات الدولية فؤاد بن سيد عبدالرحمن الرفاعي. دون بيانات.
- الوفاق الدولي والأمن القومي العربي حسن طواليه. الطبعة الثانية. دار الموقف العربي. القاهرة: ١٩٨٣م.
- واقعنا المعاصر محمد قطب. مؤسسة المدينة للصحافة. جده: ١٩٨٧م.

الدوريـــات:

- المسلم المعاصر تصدرها مؤسسة المسلم المعاصر بيروت: السنة التاسعة ١٤٠٣هـ. السنة الحادية عشرة ١٤٠٤ - ١٤٠٥هـ. السنة الثانية عشرة. ١٤٠٧هـ.
- الموقف العربي. تصدر عن دار الموقف العربي. القاهرة: النسة العاشرة ١٩٨٦م.
- الناشر العربي. تصدر عن اتحاد الناشرين العرب - الجماهيرية الليبية ٨٣، ٨٤ ٨٥، ١٩٨٦م.

المكتبة الامنية

- الوعي الاسلامي. تصدرها وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية بالكويت. ١٩٨٨م.
- اليقظة العربية. السنة الأولى. ١٩٨٥م.

المكتبة الأمنية

طبعت بالمطابع الأمنية بدار النشر بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب
بالرياض ١٤١٢هـ - ١٩٩١م

دار النشر
بالمركز العربي للدراسات الأمنية والتدريب - الرياض